ذكريات معتقل

من جوانتانامو (كوبا)

من فضلك خمس دقائق
فأصبحت الدقائق الخمس
ستة وعشرين شهراً

حسين عبد القادر

العبيكان
Obeikan

ذكريات معتقل

من جوانتانامو (كوبا)

من فضلك خمس دقائق، فأصبحت الدقائق الخمس
ستة وعشرين شهراً

حسين عبد القادر

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبدالقادر، حسين

ذكريات معتقل من جوانتانامو./ حسين عبدالقادر.- الرياض، ١٤٣٠هـ

٣٦٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٥-٧٨٥-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. سجن جوانتانامو ٢- التعذيب أ. العنوان

ديوي ٩٢٣,٢٧٣ ٤٦٨٠ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٤٦٨٠ / ١٤٣٠

ردمـــــك: ٥-٧٨٥-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

الرياض-شارع العليا العام-جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١/ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤/ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى روح الشيخ الشهيد عبد الله عزام، أستاذ مدرسة الجهاد في العصر الحديث.
- وإلى روح ولدي عبد الله الذي وافته المنية، وأنا رهن الاعتقال.

أهدي هذا الكتاب

حسين عبد القادر

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

لقد أنزل الله عز وجل عشر آيات من سورة النساء ذكر فيها قصة طعمة رجل من الأنصار، وحادثة السرقة التي اتهم بها يهودي بريء. إن الآيات تبرئ اليهودي من السرقة

وتثبتها على طعمة ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥).

هذه التبرئة لليهودي في زمن لا يدخر فيه اليهود سهماً إلا وطعنوا به الإسلام، وفي وقت لا يكف اليهود فيه عن التآمر والكيد للإسلام وأهله، لكنه العدل في الإسلام الذي يبرئ هذا اليهودي من السرقة، ويثبتها على رجل من الأنصار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ (يوسف: ٨١).

لقد أرسل الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لخرص تمر خيبر الذي أعطاه الرسول ﷺ لليهود على حصة من الثمر، فقدموا له نوعاً جيداً من التمر هدية خاصة له (رشوة) ليحابيهم في تقدير كمية التمر على الشجر، فقال لهم: يا إخوان القردة والخنازير، أترشونني، لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي (يعني رسول الله ﷺ) وإنكم لأبغض خلق الله إلي، ولكن حبي لرسول الله ﷺ

وبغضي لكم لا يمنعني من العدل معكم، وخرص لهم التمر وقدره كما هو دون زيادة ولا نقصان.

إذا كانت الدول والمؤسسات الآن، تعتمد على دراسات وأبحاث وإحصائيات وجمع معلومات، بشتى الطرق وكافة الأساليب، وتصدر بعد ذلك أحكامها، وتطبق مخططاتها وتنفذ توسعاتها وأطماعها، بناءً على هذه المعلومات، فإن رب العالمين الذي خلق البشر، ويعلم ما توسوس به نفوسهم وتنطوي عليه أفئدتهم، لا يحتاج إلى هذه الأبحاث والدراسات، وهو الذي يقول ويحكم ولا معقب لحكمه وهو أصدق القائلين.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩).

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (آل عمران: ٦٩).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ (النساء: ٨٩).

[الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا]، هذا الكلام ليس تحاملاً على الغرب أو غير الغرب؛ لأن الواقع والحال وما يجري وما يقال ويسمعه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ينبئ عما يقال.

ما ورد في هذا الكتاب ربما لا يعجب الكثيرين، لكنه الذي لمسته وشاهدته وفي المثل العربي (**ليس من رأى كمن سمع**).

الاعتقال في باكستان

مساء يوم الأحد ٢٠٠٢/٥/٢٥ صليت العشاء ورجعت إلى بيتي الموجود في ضاحية حياة أباد - بيشاور - باكستان، فوجدت عائلتي تنتظرني على طعام العشاء، إذ كانت الساعة العاشرة ليلاً، وقد كان في ذلك الوقت فصل الصيف والنهار طويل، فجلست على المائدة ولم أكد أكمل اللقمة الثالثة، حتى قرع جرس البيت، فقلت لابني إبراهيم البالغ من العمر اثني عشر عاماً: انظر من بالباب، فذهب الغلام وفتح الباب، ورجع مسرعاً يبكي ويقول: الشرطة، الشرطة.

وقبل أن ينهي الغلام كلامه، فإذا بمجموعة من الشرطة الباكستانية ٥-٧ يدخلون مسرعين يشهرون سلاحهم، وقفت وقلت لهم: ما الأمر؟ قالوا: أين أبو عبد الله البلخي؟ قلت هأنذا ماذا تريدون؟ قالوا: نريدك قلت: لماذا؟ قال: خمس دقائق إلى مركز الشرطة وترجع. قلت: ماذا فعلت؟ قالوا: تفضل، قلت لهم: أنا

أعيش بشكل قانوني في باكستان، أحمل جواز سفر أردني وأحمل بطاقة من الأمم المتحدة منذ ثماني سنوات، وأخرجت لهم البطاقة، أخذها مسؤول الحملة وقرأها، ثم وضعها في جيبه، وقال: اخرج معنا إلى المركز وسترجع، قلت: أين؟ قال: اخرج. وأمر أحد الجنود المرافقين له أن يضع القيد في يدي، ففعل الجندي، وكان معي في البيت أحد أبنائي، واسمه محمد الذي أنهى الصف الثالث الثانوي، عمره ثمانية عشر عاماً، ينتظر التسجيل في الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، قيدوه أيضًا معي، واقتادونا إلى خارج البيت، خرجنا وإذا بسيارات أخرى مليئة برجال الشرطة، وعند الباب الخارجي للدار، يقف رجل يبدو من ملامحه أنه غربي، يتهيأ للدخول إلى البيت مع امرأة يبدو أنها مثله أيضا، نزلت من سيارة باجيرو(Pajero) بيضاء، كانت تقف بجوار باب البيت.

وتحركت السيارة التي تقلنا بعيداً عن البيت؛ كي لا أرى ولا أسمع ما يحدث في البيت، فقد دخلت مجموعة من الشرطة الباكستانية مع الرجل والمرأة الغربيين، ثم أخبرتني العائلة بعد ما خرجت من السجن، أن الشرطة وضعت ما تبقى من العائلة زوجتي وأربع بنات وإبراهيم الصغير في إحدى غرف البيت وأغلقوا عليهم الباب، ثم قاموا بتفتيش البيت دون أن يراهم أحد، ثم تبين أنهم قاموا بكسر ما وجدوه مغلقاً من الغرف، وبعدما أنهوا مهمتهم أخذوا ما يريدونه وخرجوا.

أما جاري الذي يسكن معي في الطابق الثاني، فقد كسروا قفل بيته ودخلوا وأخذوا ما يريدون ومن جملة ما أخذوه، أسورة من ذهب لزوجته، كانت موجودة في خزانتها، مع أن عائلتي أخبرتهم أنه غير موجود، لا رب البيت ولا عائلته، وكانوا قد خرجوا من البيت قبل ثلاثة أيام من مداهمة البيت، بعد ذلك تحركت السيارة، فسألت الشرطي الذي يقودني: إلى أين تأخذنا؟ قال: خمس دقائق إلى مركز الشرطة، نسألك بعض الأسئلة وترجع، عندها قام شرطي آخر وأخرج قطعاً من القماش وربطها على عيوننا ولم نشاهد بعد ذلك شيئًا، ولا نعلم إلى أين تسير بنا السيارة.

وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى أحد مراكز الشرطة، فاستجوبونا بسرعة، حاولت أن أعرف أين أنا ومن حولي، لكن لم أستطع، وعندما أنزلونا من السيارة التي كنا فيها إلى سيارة أخرى، استطعت أن أرى ابني الكبير عبد الله يركب معنا، معصوب العينين، مكبل اليدين، فقد اعتقله الشرطي الذي كان يقف عند باب بيتنا، عندما رجع إلى البيت وعرف أنه ولدي، بعد نصف ساعة من اعتقالنا، وهذا الشرطي الذي اعتقله كان ينتظر الذين يفتشون داخل البيت فحاول عبد الله أن يقنعهم بإطلاق سراحه، وعدم اعتقاله وأنه مريض بالقلب، لا يستطيع أن يعيش في السجن، وأنه بحاجة إلى الدواء، وربما الطبيب أحياناً، لكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه.

لقد كان اعتقالي مؤثراً عليه، إذ أصبح مسؤول العائلة الأول، وهموم الأسرة كلها عليه، وذلك بعد إطلاق سراحه في اليوم الثاني، وعلاوة على ذلك ازداد مرضه وتعددت زياراته للطبيب، وكثرت الأدوية التي يتناولها، ومن ثم ساءت حالته، وتوقف عن الدراسة الجامعية بناءً على نصيحة طبية، وأخيرًا جلس في البيت، حين تضاعف مرضه كثيراً، خاصة بعدما سافر إلى الأردن، حيث العلاج المرتفع التكاليف، سواء فيما يتعلق بثمن الأدوية أو كشف الطبيب، وفي النهاية وافته المنية وانتقل إلى جوار ربه، بعد ستة أشهر من وصوله إلى الأردن، متأثراً بهذا المرض العضال، حيث أصابته أزمة قلبية، تقبله الله في الصالحين وأسكنه فسيح جناته.

تحركت بنا السيارة نحن الثلاثة، أنا وابناي، لكن لا نعلم إلى أين نذهب، دخلنا مكاناً آخر، دخلنا إلى بوابة كبيرة، ثم أغلق الباب، رفعوا الغطاء عن عيوننا وأدخلونا إلى غرف السجن، كل واحد في غرفة، فكوا قيد اليدين وأخذوا ما معنا من أغراض وأمانات، عندما دخلت غرفة السجن بدأ شريط الذكريات يمر في خاطري.

لقد سمعت أن الميت إذا احتضر وبدأ يعالج سكرات الموت، يمر في ذهنه من ذكريات حياته منذ أن أصبح واعياً حتى لحظة موته، هذا الشريط يمر في ذهن المحتضر بسرعة؛ ليبين له قصر عمر الإنسان الذي قضاه في الحياة الدنيا، لقد حدث معي ما يشبه

هذا، إذ عندما أدخلت غرفة السجن، مر شريط من الذكريات السريع في خاطري، وهكذا شبهت السجن بالموت، لكنه موت منه رجعة، أما الموت الحق فلا رجعة منه إلى الحياة الدنيا. لقد شبهت السجن بالقبر، لكنه قبر فيه حياة وحركة بخلاف القبر الحقيقي، أي أن السجن هو الموتة الصغرى.حاولت النوم، إذ بدأت أتقلب على ما وجدته من فراش في الغرفة، لكن لم أستطع النوم، بسبب الحر الشديد، وعدم نظافة الفراش.

بعد منتصف الليل جاء رجال الشرطة، وأخذوا ابنيَّ محمدًا وعبد الله، وقالوا لي: إنهما سيرجعان إلى البيت الآن، وأنت ستخرج غداً، ودّعاني وانصرفا، لكن بعد قليل جاء رجال الشرطة ومعهم مجموعة من العرب، ستة معتقلين، أعرف بعضهم، أو معظمهم، وقد علمت من بعضهم أن رجال الشرطة الباكستانية قد اعتقلوا في هذه الليلة التي اعتقلوني فيها عشرة من العرب، أخذوهم من بيوتهم، يحملون أوراقًا رسمية من الحكومة الباكستانية. ويعملون في مؤسسات إغاثية معترف بها من الحكومة الباكستانية. أحضر رجال الشرطة ستة إلى المكان الذي كنت فيه، ووضع الباقون في مكان آخر.

كان الصيف قد بدأ في باكستان، حيث الجو حار، وغرف السجن غير نظيفة، والفراش متسخ، والماء حار، إذ يقدَّم في

قارورة بلاستيكية مملوءة من حنفية موجودة في الخارج، وفي زاوية الغرفة سطل حديدي صغير لمن أراد التبول عند الضرورة، فقضاء الحاجة ثلاث مرات يومياً فقط الساعة السابعة صباحاً، وقبيل الظهر الساعة الثانية عشرة والنصف، وعند غروب الشمس، أما الطعام فنوعه رديء، وكميته قليلة فالفطور الساعة السابعة، وهو عبارة عن رغيف خبز صغير غير ناضج مقلي بالزيت، مع كوب شاي مختلط بالحليب، وربما يقَدَّم لك كوب آخر.

والغداء الساعة الحادية عشرة، وهو صحن صغير غير نظيف فيه العدس والطماطم، ورغيف خبز، والعشاء الساعة السابعة. أما الفاكهة فلا توجد، واللحم مرة كل أسبوع وهو عبارة عن قطع صغيرة وقليلة جداً مع الأرز، فالاغتسال مرة كل أسبوع، فالصابون والمكان والأواني غير جيدة، مع أن تهوية غرفة السجن غير جيدة، فالعرق كثير من حرارة الجو، مع انقطاع التيار الكهربائي أحياناً.

مكثنا في السجن الباكستاني في بيشاور أحد عشر يوماً، جرى فيها التحقيق معنا مرتين، مرة في اليوم الأول من وصولنا للسجن، عصر اليوم الأول، إذ جاء رجال الشرطة الباكستانية وقيدونا كل اثنين معًا، والعيون مغطاة بعصابة، وأركبونا في السيارات إلى مكان لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، وأنزلونا من السيارات وفكوا عصابة الغطاء عن عيوننا، وأدخلونا واحدًا بعد الآخر إلى غرفة كبيرة، فيها الأغراض التي صادروها من بيوتنا جميعاً، كان يجلس بها باكستانيون ورجال ونساء تبدو ملامحهم أنها غربية.

فقامت سيدة وأخذت البصمات لنا جميعاً، كل واحد على حدة، وقام رجل يتقن العربية باستجوابنا بأسئلة بسيطة عن الاسم، والبلد، والمكان الذي ولدت فيه وتاريخ الميلاد، ثم رجعنا كلٌّ إلى غرفته بالطريقة نفسها التي أحضرونا بها.

أما المرة الثانية التي أخذونا فيها للتحقيق، فكانوا يأخذون كل يوم واحداً أو اثنين إلى المكان نفسه الذي ذهبنا إليه في المرة الأولى، وحقق معنا الرجل نفسه الذي حقق معنا في المرة الأولى، وبعد مضي تسعة أيام حضر رجال الشرطة الباكستانية، وقيدوا يديَّ وغطوا عينيَّ بعصابة، وحملتني السيارة إلى المكان السابق نفسه، حيث هناك رجل غربي يتقن العربية، ويتكلم معي من دون مترجم، فسألني عن سيرتي الذاتية.

السيرة الذاتية

كانت أسئلة الرجل الغربي عن المولد، والدراسة، والعمل، وسبب وجودي في باكستان هذه المدة الطويلة من سنة ١٩٨٥م -٢٠٠٢م، فأخبرته بأنني فلسطيني، وتاريخ ميلادي ١٩٥٣م من قرية سيلة الحارثة، قضاء جنين، من أب وأم فلسطينيين، وأنا رابع إخوتي وأصغرهم، وهم ذكران وأنثى، توفيت والدتي قبل عشر سنوات تقريباً، فتزوج والدي زوجة أخرى، وأنجب منها بنتين وولدًا، وهو يعمل تاجراً متوسط الحال، أكملت دراستي الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة القرية، ولكن الصف الثالث الثانوي أكملته في مدرسة المدينة- جنين، سنة ١٩٧٣م، نجحت في الثانوية في هذه السنة، وفي السنة نفسها حصلت على منحة دراسية في المملكة العربية السعودية، وهناك أكملت دراسة البكالوريوس والماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وبين البكالوريوس والماجستير، عملت واعظاً في فلسطين مدة سنتين، على حساب إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد السعودية؛ وبعد الحصول على الماجستير ١٩٨٢-١٩٨٣م رجعت إلى فلسطين ومكثت سنة دون عمل، ثم عملت مدرساً في جامعة الخليل مدة سنة، بعدها سافرت إلى باكستان سنة ١٩٨٥م، وبقيت هناك، حتى سنة ٢٠٠٢م وقت اعتقالي، فقد عملت مدرساً للطلاب الأفغان المهاجرين والعرب وغيرهم في الجامعات والمعاهد والمدارس والكليات، ولم أغادر باكستان طيلة هذه المدة إلا يوم أن غادرتها عن طريق اعتقال الأمريكان لي.

إن تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والأمنية في فلسطين تضطر الإنسان إلى البحث عن عمل خارج وطنه، فقد فصلت من العمل الذي كنت فيه في جامعة الخليل، وبحثت عن عمل آخر فلم أجد، فاضطررت إلى أن أذهب إلى باكستان، حيث اتصلت بقريب لي، فقال لي: توجد هنا مدارس وجامعات كثيرة للمهاجرين الأفغان، وهم بحاجة إلى مدرسين عرب، فوصلت إلى بيشاور مع عائلتي والتحقت فور وصولي بالعمل في جامعة الدعوة والجهاد، وهي في حي يبعد عن بيشاور نحو عشرين كيلاً، يسكنه المهاجرون الأفغان، وهو مخيم فقير به جامعة لتعليم الطلاب الأفغان، عملت بها مدرساً لتعليم العلوم الإسلامية سنة ٨٥-١٩٨٦م، لكن بسبب بعدها عن مكان السكن تركت العمل بها، والتحقت بمعهد المعلمين

العالي التابع للجنة الدعوة الإسلامية الكويتية؛ لقربه من بيتي، و لأنه أعلى راتباً من العمل السابق.

بعد ذلك عملت في معهد الأنصار العالي، وهو يتبع رابطة العالم الإسلامي السعودية، وفي إجازة الصيف ذهبت مدرساً في مدرسة داخل أفغانستان، مدة أربعة أشهر؛ لتعليم الطلاب الأفغان العلوم العربية والإسلامية، ثم رجعت إلى عملي في معهد الأنصار العالي، وفي أثناء عملي في هذا المعهد عملت متطوعاً في مكتب الخدمات لترحيل الشباب العرب الذين كانوا يعملون متطوعين لمساعدة الشعب الأفغاني، فقد كنت أقدم لهم اللباس والحذاء والحقيبة، وغير ذلك وهذه المواد كان يقدمها مكتب الخدمات لهؤلاء الشباب.

إن هؤلاء الشباب كانوا يدخلون إلى أفغانستان في أثناء الغزو الروسي لأفغانستان، ويقومون بإحصاء الأيتام والمدارس والأرامل والشهداء، وتقديم ما يمكن تقديمه من العون المادي لهذا الشعب، لقد كانت هناك مؤسسات عربية وغربية وشرقية تساعد الأفغان المهاجرين في أثناء الغزو الروسي لبلادهم، وهذه المؤسسات كان لها نشاط في باكستان وفي داخل أفغانستان، وكانت لها مدارس وجامعات ومستشفيات وملاجئ ودور للمعوقين والمجروحين.

بعد ذلك جلست مدة بلا عمل، وبدأت أعيش في باكستان دون أوراق أو وثائق رسمية، وعندما انتهى الجهاد الأفغاني بدأت

المضايقـات للعرب الذيـن كانوا يساعـدون الشعـب الأفغاني، وفي هـذه الحقبـة انتهت مـدة جـواز سفـري، ولم أستطـع تجديده ولا تمديده، إنني أريد السفر لكن لم أستطع، وفي هذه المدة انتهت مدة التصريح الإسرائيلي الذي خرجت بموجبه من الضفة الغربية عام ١٩٨٥م، وإذا انتهـت مدة هذا التصريـح، فإنه لا يسمح لي بدخول فلسطين؛ لأنه غير ساري المفعول، فحاولت تجديده عن طريق أهلي في فلسطين فلم يستطيعوا ذلك.

كادت الشرطة الباكستانية تلقـي القبض علي، لكن أفلت منها بقدر من الله عز وجل.

اضطرتني الحاجة إلى أن أذهب إلى الأمم المتحدة، عام ١٩٩٢م وشرحـت لهم وضعي، وبعد مراجعات ومقابلات لهم، قبلوني لاجئاً في باكستان تحت مظلة الأمم المتحدة. إن قبولهم لي لاجئاً يعني أن يقدموا لي وثيقة رسمية أعيش بها، وأتنقل بموجبها داخل باكستان دون مشـكلات، ويقدموا لي مساعدة ماديـة قدرهـا (١٥٠) دولاراً في كل شهر، ويساعـدوني في رسوم المدارس، ويقدموا ثمن الملابس والحقائـب والكتب والدفاتر لطلاب المدارس. لقد كانت هذه الأمور بالنسبة لي أمراً مهماً وكبيراً، وبقيت معي وثيقة الأمم المتحدة منذ ذلك الوقت، حتى سنة ٢٠٠٢م وقت اعتقالي.

لقـد كان بإمكان من يحمل هـذه الوثيقة أن يعمل عمـلاً إضافيا، بجانب ما تقدمـه الأمم المتحدة له مـن مساعدة، ففـي سنة ١٩٩٤-١٩٩٠م عملـت في بيشاور محاضراً في الأكاديميـة الإسلامية- جامعة العلوم والتقنية التابعـة لهيئة الإغاثـة الإسلامية السعوديـة، وبعدها عملت في معهد الأنصـار العلمي في بيشـاور، التابع للمعاهـد العلمية اليمنية، الذي كانت تشرف عليـه السفارة اليمنية في إسلام آباد، وقد بقيت في هذا المعهد حتى سنة ٢٠٠٠-٢٠٠١م ثم أُغلق من قبل الحكومة اليمنيـة التـي قامت بإغلاق المعاهد كلها، ومن ثـم كان هذا المعهد من جملة المعاهد المغلقة، وبعد إغلاق المعهد بقيت عدة أشهر من دون عمل، أبحث عن عمل، لكن لم أجد، وفي يوم ٢٠٠٢/٥/٢٥م كان اعتقالي.

وهذا اليوم كان آخر العهد لي بباكستان ومعاهدها ومدارسها وجامعاتها، فهذه المدارس والجامعات والمعاهد، تدرس مواد كثيرة من ضمنها المـواد العربيـة والإسلامية، وتدرس اللغـة الإنجليزية والرياضيـات والعلوم والاجتماعيات والرياضة والفن، فهي مدارس نموذجية عصرية، وليست مدارس دينية فقط.

كانـت مـدة استجوابـي قصيرة لا تتعـدى الساعـة، وفي نهاية التحقيـق سألـت المحقـق عـن سبب اعتقـالي، فقـال لي: علاقتك بالإرهـاب. قلـت له: أي إرهـاب وأي إرهابيين الذين لي علاقة بهم؟ قال: سوف تعرف فيما بعد، وانتهت الجلسة وعدت إلى غرفة السجن معصوب العينين مكبل اليدين، بسيارة «بك أب» كما جئت.

بعد مـرور أحد عشر يوماً جاء رجـال الشرطة الباكستانيون، وأخبرونا أنهم سيأخذوننا غداً إلى إسلام آباد؛ ليتم التحقيق معنا هناك؛ لأن التحقيق هناك أسهل وأوسع وطلبوا منا أن نكتب رسائل لعائلاتنا، نخبرهـم فيها بأمر السفر هذا، وبعد صلاة العشاء من هـذا اليوم جاء إلينا أعداد كثيرة من الشرطة الباكستانية، وكبلوا أيدينـا خلـف ظهورنا، ووضعـوا العصابات على عيوننـا، وأركبونا سيارات «البك أب» وبـدؤوا يعانقوننا، ويطلبون منا أن نسامحهم، وظهر على بعضهـم البكاء، وقالوا: نحن مضطرون، وكنا مجبرين -علينا ضغوط خارجية لتسليمكم- وتحركت السيارات ليس لإسلام آبـاد، ولكن إلى مطار بيشاور، حيث السيـارات تقترب وتمشي بنا، وصوت الطائرات نقترب منه شيئا فشيئا، وتوقفت السيارات بجانب الطائرة، هكذا تشعر، وأنزلونـا من السيارات وأجلسونا على أرض المطار، لا نرى شيئاً.

بـدأ الشرطـي الباكستـاني ينادي علـى الأسماء، جـاء اسمي فوقفـت، أمسكنـي الشرطـي الذي ينـادي على الأسمـاء، وقدمني خطوتـين، وقام شخص وفك غطاء عينـي، واستلمني مجموعة من الجنـود قريبًا من بـاب الطائرة الخلفي، فهـم يحيطون بي من كل الجهات، اليمين والشمـال الأمام والخلف، ألبسوني كيساً في رأسي لا أرى منه شيئـاً، فهؤلاء الجنود الجدد ألبستهم وسحنتهم تختلف

عـن الوجوه الباكستانية، إنهم حمر أو شقر، لم يساورني شك أنهم غربيـون أمريكان، فكـوا يديّ وربطوهما خلـف ظهري بقيد محكم حديـدي مـؤلم. أدخلوني إلى الطائـرة من البـاب الخلفي بطريقة شديدة وعنيفة.

الترحيل إلى بجرام

أجلسونا على أرض الطائرة بجانب بعضنا، الأرجل مقيدة ومثبتة في أرض الطائرة، والأيدي مقيدة خلف الظهر، ثم شدوا جنزيراً غليظاً على صدورنا، وكان هذا من أشدها علينا، فقد كادت أرواحنا تخرج من أجسادنا، والرأس يغطيه الكيس الذي يمنع الرؤية، ويعيق التنفس، والجو حار .أقلعت الطائرة من بيشاور. فالكلام ممنوع والحركة ممنوعة .وأنت من دون أوامر لا تستطيع الحركة بسبب قيود الحديد التي تحيط بك، والجو يوحي بالخوف، يا إلهي، إن هذا يعني أنهم سلمونا للأمريكان!

ماذا صنعنا، ما جريمتنا؟ إنه الظلم، فالدنيا والظلم قرينان لا ينفصلان، ما دامت هناك دنيا فلا بد أن يوجد فيها ظلم، لقد راودني شعور صادق وأمنية صحيحة أكيدة، أن تسقط بنا الطائرة ونموت، لكن بعدما يقرب من ساعة نزلت الطائرة لا ندري أين

نزلت، أنزلونا من الطائرة خلف بعضنا، ربطونا بحبل، الواحد تلو الآخر، كل في ذراعه، الأصوات تعلو من الجنود، لا تتحرك، لا تتكلم، الخوف والرعب يتملكنا، ساقونا مقيدين نخطو إلى الأمام بصعوبة بسبب قيد الأرجل، فقدت حذائي في أثناء المشي، بدأ السير بطريق ملتوية، ذات حجارة وحصباء، مما تسبب في آلام الأرجل.

بعد نصف ساعة، أدخلونا إلى بناء، وأجلسونا على الأرض بعد أن حلوا الحبل الذي يربطنا ببعضنا، بدأ واحد يتكلم، وآخر يترجم الكلام من خلفنا: ممنوع الكلام، ممنوع الحركة، أنت بيد القوات الأمريكية المسلحة، يجب أن تحافظ على النظام وتنفيذ التعليمات. أدركنا الفجر ونحن على هذه الحالة، فصلينا الفجر على حالنا كما نحن. بدؤوا يأخذوننا واحدًا تلو الآخر دون أن نعلم، أو نرى إلى أين.

الحياة في بجرام

جاء دوري، وتقدم جندي ساقني أمامه، وهو يمسك بي، وأدخلت إلى غرفة، حلوا قيد الأيدي ورفعوا الكيس عن رأسي، حلوا قيد الأرجل، إنهم يحيطون بي من كل مكان ،طلبوا مني أن أخلع ملابسي كلها، تلكأت؛ لأن هذا يحدث للمرة الأولى في حياتي، لكن تحت ضغط الكلام العالي، والغضب، فعلت .أخذوا مني كل شيء وأعطوني لباسا آخر - أبرهول - وحذاء خفيفاً وكتبوا على الأبرهول الرقم١٧١، وقالوا: هذا رقمك وأعادوا قيد الرجلين، ثم قيد اليدين، لكن من الأمام، وأدخلوني إلى غرفة صغيرة، وحُقّق فيها معي تحقيقًا سريعًا، ثم أدخلوني إلى حظيرة أرضية تحيط بها الأسلاك والأشواك المدببة من كل جهة، لكن أرض الحظيرة خشب عليه سجاد خفيف.

إنها ست، أو سبع حظائر، بجانب بعضها، كل حظيرة تتسع لعشرين شخصًا، كل حظيرة منفصلة عن الأخرى بأسلاك مدببة

وأدخلوني إلى الحظيرة رقم (١) لقد كان الوقت صباح يوم الجمعة ٦ أو ٧ لعام ٢٠٠٢م، يشرف على هذه الحظائر حراس من الطابق الثاني، معهم أسلحتهم الرشاشة المصوبة على الحظائر، كما يوجد أيضاً حراس في الطابق الأول حولنا، يحملون أسلحة صغيرة، مسدسات أو نحوها، يحملونها على صدورهم، أو على أفخاذهم يسيرون حولنا، أو يجلسون أمامنا، يقومون بتقديم الخدمات، كالطعام أو الماء للسجناء، عرفنا فيما بعد أن هذا المكان هو قاعدة بجرام في أفغانستان.

الطعام ثلاث وجبات، أولاً الفطور، بعد صلاة الفجر مباشرة، والغداء الساعة الحادية عشرة، والعشاء الساعة الرابعة بعد الظهر، والطعام عبارة عن وجبات معلبة ليست جيدة، ولكنها ليست سيئة، متشابهة ومتكررة يومياً، وهي أكياس جاهزة يحضرها الحارس لكل حظيرة في وعاء بلاستيكي، وكل سجين له وجبة مكونة من كيس، فيه معكرونة أو أرز بالدجاج قطعاً صغيرة جدًا والكمية قليلة أو أرز مع قطع اللحم القليلة والصغيرة أو فاصوليا سوداء مع قطع الدجاج الصغيرة، بالإضافة إلى قطعتين من البسكويت، علبتين صغيرتين جداً فيهما صن فلكس (Sunflax) وهو بسكويت خفيف، وفي الأيام الأخيرة كانوا يقدمون عبوة من الزبيب صغيرة جداً لكل سجين، أما الخبز ففي كل أسبوع نأخذ مرتين، والفاكهة لم نرها إلا مرات قليلة خلال الشهرين.

وبعد انتهاء وجبة العشاء عصراً، يسمح لكل سجين أن يستعمل معجون الأسنان والفرشاة مرة كل يوم، يحضرها الحارس يومياً ويأخذها بعد انتهاء الاستعمال، ولا يسمح ببقائها مع السجين، ولكل سجين فرشاة خاصة عليها رقمه، لا يستعملها غيره، والمياه ٣-٤ لترات يومياً لكل سجين، وهي للشرب والطهارة والوضوء، أما الاغتسال، فمرة كل أسبوع مدة خمس دقائق، والماء غير كافٍ وغير نظيف والذهاب للحمام مقيد اليدين والرجلين، ومغطى العينين، وربما ربطوا العشرة والعشرين شخصاً بحبل، الواحد تلو الآخر، وإذا وصلنا إلى مكان الحمام، فكوا القيود من أيدينا وأرجلنا، وأزالوا الغطاء عن العينين، والحمام ساتر من ثلاثة أوجه إلى منتصف الشخص إذا وقف، والجهة الرابعة مكشوفة.

أما التفتيش، فالسجين معرض للتفتيش في أي وقت من ليل أو نهار، وبطريقة استفزازية وعنيفة، ولا تستطيع أن تعترض على أي شيء، فالخوف والرعب كان يتملكنا في هذه القاعدة، وربما كان بعضنا لا يستطيع النوم أو الأكل أو الشرب من شدة الخوف، إنه بمجرد أن يقول الحارس: تفتيش، يقف جميع السجناء في زاوية الحظيرة، الأيدي خلف الرأس، وممنوع الحركة، يدخل مجموعة من الجنود داخل الحظيرة، ويبقى بعضهم في الخارج، ويقوم أحدهم بإشهار السلاح واليد على الزناد، والتفتيش يشمل الجسم في كل ناحية منه، ويشمل تفتيش الأغراض.

أمـا الحمام، حيث مـكان قضاء الحاجة، فيوجـد برميل لكل حظـيرة يجلس فوقـه الشخص عند قضاء الحاجـة، وهو مكشوف من الجهـات كلها إلا الجهة الخلفية يستره الجـدار، لكن السجناء يسـترون أنفسهـم بالبطانية عند دخولـه، ويجب أن يكـون القسم العلـوي مـن جسمك، وأنـت داخله ظاهـراً للحارسـ، وإذا حاولت تغطية نفسك بالبطانية عند قضاء الحاجة، صرخ عليك الحارس، حتى تكشف رأسك المغطى بالبطانية؛ من أجل أن يراك.

بعـد مضـى ثلاثة أسابيـع قاموا بحلـق شعر الرأسـ واللحية والشوارب، فاعترض بعضنا وطلب إعفاءه من الحلق، لكن لم يسمعه أحد، وقد كرروا علينا الحلق في بجرام مرتين، بعض السجناء تأثر كثـيراً، ولم يستطع الأكل عدة أيام، فأحد السجناء طلبوه للحلاقة، حيث جلس على الكرسي مقيد اليدين والرجلين، وبدأ الجندي يحلق لـه، لكنه في أثناء حلق لحيته يبـدو أن آلة الحلاقة تسببت في إيذاء لحيتـه ووجهة، فقام السجين مـن دون قصد، وأمسك بيد الجندي الذي يمسك آلة الحلاقة، يريد أن يقول له: لقد آذيتني، هذا العمل أثار غضـب الحارس، وأمسك بخناق السجـين ورماه على الأرض، وجلسـ فوقـه، والسجين مقيـد اليدين والرجلـين، فهجم مجموعة مـن الجنود، وساعد بعضهم الجندي علـى السجين وانتهى المشهد بانتصار الجنود على السجين المقيد.

ولما رجع السجين إلى الحظيرة التي نعيش فيها سوياً، سألناه: مـا الذي جرى، أتريد أن تمنـع الحارس من الحلاقة؟! قال: لا إنما اذتني آلة الحلاقة، فأمسكت بيد الحارس دون قصد، وكأنني أقول له: لقـد آذتني آلة الحلاقة، فظن الحارسـ أني أريد أن أمنعه من إتمـام الحلاقـة، لقد كان هذا الأمر شديـداً علينا، نحن المسلمين؛ لأن اللحيـة عندنا في الدين لها مدلول وحكم معين، إن بعض الناس لم يحلـق لحيته طيلة عمره، منذ أن نبتـت على وجهه، أما أنا فإنها المـرة الأولى التـي تحلق فيها منذ ٢٩ عاماً، لكـن ربما هذا الأمر لا يعني شيئاً عند الأمريكان، أو غيرهم.

التحقيق

بعد خمسة أيام من وصولي إلى بجرام، وعند الساعة العاشرة ليلاً نادى الحارس على رقمي (١٧١) لا يوجد هناك أسماء أنت مجرد رقم في مسألة فما لبثت إلا قمت مذعوراً؛ لأنها المرة الأولى التي أمثل فيها أمام التحقيق، فالتحقيق الذي مر معنا في باكستان لم يكن بمثل هذا الجو، وهذه الرهبة، فتقدمت إلى الشبك، وقيد الشرطي يديّ ورجليّ ووضع الكيس في رأسي، وساقني أمامه، ثم صعد بي على الدرج، وأدخلني إلى غرفة، وأجلسني على الكرسي، عرفت أنني في الطابق الثاني، رفع الكيس عن رأسي، بعد دقائق جاء رجلان يلبسان اللباس المدني، فعرفت فيما بعد أن أحدهما محقق والآخر مترجم، بدأ المحقق يسأل والمترجم يتكلم معي، وأنا مقيد اليدين والرجلين، فالمترجم عربيته مكسرة، لكنه يفهم، فهو ليس عربياً يبدو من سحنته أنه غربي مثل المحقق، فداخلني شعور

وإحساس يقول: هذا المحقق لا أدري عن أي شيء سيسألني، ماذا صنعت في حياتي ضد الأمريكان ليسألني عنه، فأول سؤال يتوجه به المترجم إلي: هل تشرب البيرة؟ قلت: لا، قال: هل تأكل لحم الخنزير؟ قلت: لا، هذه أمور محرمة في ديننا قلت في نفسي: ما علاقة البيرة ولحم الخنزير بالإرهاب، أو بتفجيرات نيويورك وواشنطن ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ (النساء: ٨١).

المترجم يسألني عن الاسم، وسنة المولد، والعائلة، والدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، والتحصيل الجامعي، والعمل بعد التخرج، والزوجة والأولاد، والعمل في باكستان، ثم بدأ يسألني عن الشباب العرب الذين يهربون من أفغانستان إلى باكستان، وعن أماكنهم ومن يساعدهم في المال والوثائق للسفر للخارج، فقلت: لا أعلم، قال: كيف لا تعلم، إنك تعيش في باكستان؟ قلت: أنا أعيش في باكستان، لكن أعيش في مناطق الحكومة الباكستانية، ولا يعيش في المناطق الحكومية إلا من يحمل وثائق وإقامة من الحكومة الباكستانية، وهؤلاء الذين تسألني عنهم، تقول: إنهم يحملون وثائق وجوازات غير صحيحة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا في مناطق الحكومة، ثم تقول: إنكم أمسكتم بمجموعة من هؤلاء، إذاً هم موجودون عندكم، فاسألهم: هل يعرفونني؟ اسألهم: من يساعدهم؟، فإن سألتني عن الذين يعيشون في مناطق الحكومة، ربما أعرفهم، أما الآخرون فلا أعرفهم.

بعد ساعتين تقريباً انتهت الجلسة، ورجعت للحظيرة رقم (١) التي أسكنها، مقيد اليدين والرجلين، والكيس في رأسي، لكن عند دخول الحظيرة -على بابها- يقوم الحارس بفك قيد اليدين والرجلين ونزع الكيس من الرأس.

إن التحقيق لا يكون يومياً، وليس له برنامج منظم، كل أسبوع مرة مثلاً، فهو حسب المحقق الذي يستلم قضيتك، يطلبك متى يريد، مضت أيام قليلة لم أذهب إلى التحقيق، وفي منتصف إحدى الليالي إذا بشاب سجين في الحظيرة نفسها التي أعيش فيها يرتفع صوته، بصراخ ممزوج ببكاء، بعد ذلك عرفنا القصة، وهي أن أحد الحراس قام بمعاقبة هذا السجين، والعقاب أن يقف ساعة أو أكثر، ويداه إلى أعلى مقيدتان معاً، ومربوطتان بشبك حديد الباب، ووضع الكيس في رأس المعاقب.

هذا العقاب للشخص العادي الذي لا يوجد عنده مرض، خاصة في رجليه محتمل، مع وجود بعض التعب، لكن من يعاني من مرض في رجليه، أو في مكان آخر، فهذا العقاب الذي يبدو خفيفاً يتعبه، إن هذا السجين نحيل ضعيف الجسم، متعب ومريض، لا تحتمل قدماه الوقوف ساعة كاملة، ويبدو - كما سمعت - أنه كان قد تعرض للضرب والتعذيب في المعتقل الذي جاء منه، وعلى صراخ هذا السجين هرع الحراس؛ ليروا المشكلة، وإذا بالسجين معلق بالباب، مدلى على الأرض لا تحملها قدماه.

والعادة أن الحراس يهرعون إذا ما سمعوا أي صوت؛ لأن الصوت دليل على وجود مشكلة ما، خاصة أن الجو العام لجميع الحظائر الستة الصمت والسكوت، فالكلام ممنوع مع الآخرين، حتى الكلام مع نفسك غير ممسوح به، فقام الحارس بفك قيد السجين من حديد الباب، فسقط المسكين على الأرض؛ لأنه كان معلقاً بيديه على الباب، طلب منا الحارس رفعه وإرجاعه إلى فراشه وتقديم الماء له، لكن تنفس هذا السجين وتشخيره مرتفع، فقد كان عنده ضيق تنفس، جاء الطبيب- كانت سيدة- فقدمت له بعض الكبسولات، تفرقنا عنه؛ لأن التجمهر ممنوع، تركناه يشخر، وأسلمنا أنفسنا للنوم.

العقاب في السجن كثير، ولأتفه الأسباب وأقلها، وربما من دون سبب؛ لأن المطلوب إلقاء الرعب في قلوب المساجين، وإلزامهم بأنظمة السجن وقوانينه، من تكلم مع جاره، ولو بصوت منخفض، أو تكلم مع نفسه، أو خالف أي قانون من قوانين السجن أو خالف أي أمر من أوامر الجنود، ولو كانت أوامر الجنود ليست من قوانين السجن ولوائحه فإنه يعاقب، والأذان ممنوع، فقد قام أحد السجناء العجم، وحاول أن يؤذن مرة، فقال له الحارس بالإنجليزية: اسكت، ولكني لست أدري هل قانون السجن يمنع الأذان، أو هو أمر من الحارس، ومن أراد الأذان كان يؤذن بصوت منخفض، ويلتفت يميناً ويساراً؛ حتى لا يراه أحد.

وصلاة الجماعة ممنوعة، والوضوء بالماء، ولو بالماء القليل الذي هو نصيب السجين واستحقاقه ممنوع، إلا أن يكون الوضوء خفية، وإذا رآك الحارس يصرخ عليك بأن الوضوء ممنوع، وقد سمعت أذناي من الحارس قوله: استعمال الماء، ولو كان قليلاً في دورة المياه غير مسموح به، وطلب الحوائج والخدمات من الحراس لا بد أن يسبقه كلمة: PLEASE -من فضلك- لا بأس بهذا، لكن لو نسيت هذه الكلمة عامداً أو ساهياً، فإن هذا السهو لا يجبره أي شيء على المذهب الأمريكي.

كان معنا في الحظيرة رقم (٦) أحد السجناء المعوقين، من دون ساق، قام مرة وطلب قارورة ماء من أحد الحراس، فغضب الجندي وقال للسجين: قل لي: PLEASE من فضلك أعطني الماء، وغاب الجندي عشرين دقيقة تقريباً، ثم رجع وقال للسجين، تريد الماء مني؟ إذا طلبت شيئاً من الحارس فقل له: من فضلك لو تسمح أعطني، وكرر هذا الكلام على السجين عدة مرات.

ماء الشرب الذي يقدم للسجناء، ماء حار، غير بارد، ودرجة الحرارة مرتفعة، ومن أجل أن نبرد الماء، كنا نقوم بتغليف قارورة الماء بورق الفاين T.P منديل الحمام عدة طبقات، ونصب الماء على الفاين؛ حتى يتشرب ورق الفاين الماء، ونتركه قليلاً في الهواء، فيبرد الماء، وهذا يتم خفية عن الحرس، وإذا رآه الحارس منعه وصادر علب الورق.

كنت أرى بعض السجناء لا يفارقه قيد اليدين والرجلين، سواء في داخل الحظيرة التي ينام فيها أو عند الذهاب للتحقيق، فعيون الحراس ترقبه ليل نهار.

أما اللباس، فقد مضى عليه شهر دون تغيير، وظهر عليه الوسخ ورائحة العرق، بسبب الغبار الكثير والحرارة المرتفعة، وإذا تمزق لسبب أو لآخر، فمن الصعوبة تغييره أو إصلاحه، فقد تمزق لباسي -الأبرهول- لأنه لباس ليس على قياسي؛ إنه ضيق، لقد تمزق من أول يوم، ومع ذلك لم يغيروه لي، حتى أخبرت أعضاء الصليب الأحمر الذين كانوا يزوروننا بين الحين والآخر، حتى اللباس الجديد تمزق وانكشف بعض جسدي، فطلبت تغيير اللباس من الحرس، فأجابوا بالرفض، ولكنني لا أستطيع النوم أو الصلاة فيه، أو حتى الجلوس به، فأخذت قطعة حديد من الأسلاك الموجودة، وبدأت أثقب القماش مكان إبرة الخياطة، وأربط مكان الثقب بخيط، وهكذا من هنا خيط، ومن هناك خيط آخر حتى تم إصلاحه، ولكن ليس بشكل جيد.

بعد مضي أسبوع على وجودي في الحظيرة رقم (١) قام الحراس بنقلي إلى الحظيرة رقم (٦)، وقد بقيت فيها حتى رُحِّلنا إلى كوبا، وقد بقيت في بجرام مدة شهرين.

بعد مضي أيام من وصولي إلى هذه الحظيرة طلبوني للتحقيق، وسألوني إن كنت أعرف الأشخاص الذين يساعدون المقاتلين

الهاربين من أفغانستان إلى باكستان، أو إلى خارج باكستان، من يساعدهم ويقدم لهم المال، أو يقدم لهم الجوازات، ويعمل لهم التأشيرات للدخول أو الخروج، من يرشدهم ويدلهم على الأماكن والطرق؟ فقلت لهم: أنا لا أعرف إلا الذين يعيشون في بيشاور؛ لأنهم يحملون وثائق صحيحة وإقامات من الحكومة الباكستانية، وهؤلاء الذين تسألونني عنهم لا يمكنهم العيش في أماكن تسيطر عليها الحكومة؛ لأنهم يحتاجون إلى وثائق وجوازات صحيحة وإذن تصريح إقامة من الحكومة، وهذه لا توجد معهم.

بعد ذلك سألوني: هل يمكن أن يعيش هؤلاء الذين لا يحملون الجوازات والوثائق الصحيحة في مناطق القبائل التي لا تخضع لسيطرة الحكومة الباكستانية؟ فقلت لهم: نعم، الهاربون من أفغانستان إلى باكستان، ربما يعيشون في مناطق القبائل، لأنها مناطق حرة، لا تخضع لحكومة، وهي مناطق لا تحتاج إلى تأشيرات وإذن إقامة من أحد، ثم إنكم تقولون: إنكم اعتقلتم مجموعة من هؤلاء الهاربين من أفغانستان، في المناطق الحدودية والقبلية، اسألوهم عن الأشخاص الذين يساعدونهم بالمال أو بالوثائق وغيرها، لماذا تسألونني عنهم، ثم اسألوهم إن كانوا يعرفونني، أنا لا أعرفهم ولا يعرفونني؟ فقالوا لي: لقد شهد عليك بعضهم بأنك تقدم لهم المساعدة، قلت: هذا غير صحيح، قالوا: كيف غير

صحيح؟ إن الشاهد الذي شهد عليك موجود هنا، في إحدى هذه الحظائر، قلت لهم: إن كان ما تقولونه صحيحاً، فليحضر هذا الشاهد هنا، وليشهد علي وليقلْ: كيف أقدم لهم المساعدة ومتى وما هي المساعدة التي قدمتها لهم، وفي أي مكان قدمت لهم ذلك، فقالوا: الشاهد عليك موجود، لكن لا يريد أن يقابلك، قلت: هذا الكلام إذاً غير صحيح، فهو كلام بلا بينة، لا يستحق الرد عليه.

انتهت الجلسة وانصرفت كما جئت، مقيد اليدين والرجلين والكيس في رأسي، بعد يومين طلبني المحقق وكان هذا المحقق جديداً، فسألني عن أقاربي الموجودين في باكستان والأردن، فقد كان يتقن العربية وسألني عن أفراد عائلتي، أولادي، الذكور والإناث، ثم سألني سؤالاً محرجاً لا علاقة له بالقضية التي جمعوا الناس من أجلها، قال: بناتك كبيرات، قلت له: نعم، قال: ابنتك الكبيرة جميلة؟ قلت له: إن كانت جميلة أو غير جميلة فما علاقة هذا الأمر بالتحقيق؟ أنت اعتقلتني من باكستان إلى هنا، حتى تسألني هذا السؤال.

وكانت بيده سيجارة يمصها بقوة، ثم ينفث دخانها من فمه علي، وينظر إلي بغرابة، قال: إني أشعر بالملل والسأمة، قلت له: لماذا؟ كل شيء متوافر لديك، الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، والأفلام والمآكل والمشارب والنساء، قال: إني أشعر

بالضجر والملل، أنا مسجون مثلك، لا أستطيع مغادرة هذا المكان، إنني مقيد الحركة، أتمنى أن أرجع إلى زوجتي وأولادي، كما تتمنى أنت، قال: الشيخ عبد الله عزام قريبك؟ قلت: نعم، قال: ما صلة القرابة بينكما؟ قلت: عمي، قال: أين عائلته، قلت له: في الأردن، فسألني عن أولاده وبناته وأزواجهن، وأسمائهم، قلت له: الكبير محمد، قتل معه مع أخيه إبراهيم، ثم حذيفة ويدرس في كلية الشريعة، ثم حمزة ومصعب يدرسان في الأردن، قال: بناته، قلت له: الكبيرة كانت في باكستان، وسافرت مع زوجها إلى الأردن، ثم الأخرى زوجها يدرس في روالبندي، وسافر إلى الأردن، قال: عبد الله أنس، قلت له: صهر الشيخ قال: أين هو؟ قلت له: في بريطانيا، قال: ماذا يعمل؟ قلت: لا أدري، هو لاجئ هناك منذ عشر سنين.

ثم سألني من قتل الشيخ عبد الله عزام؟ قلت: لا أعرف، كان رجال الشرطة الباكستانية يأتون ويأخذون التحقيق والمعلومات من عائلته، ويخبرونهم بأن التحقيق في قتله مستمر، وسنخبركم فيما بعد عن القتلة، فعليكم بالصبر، ثم قلت له: إن ضياء الحق الرئيس الباكستاني سقطت طائرته منذ أربعة عشر عاماً، وحتى الآن لم تعلن الحكومة الباكستانية عن سبب سقوط الطائرة، ولا يزال الشعب الباكستاني ينتظر الجواب من حكومته خاصة عائلة الرئيس، أتريد منا أن نعرف من قتل الشيخ، والحكومة الباكستانية

لم تعلن أي شيئاً عن هذا الأمر، على الرغم من أنه قتل على أراضيها، وكان يعمل دكتوراً مبعوثاً من رابطة العالم الإسلامي إلى الجامعة الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامي هيئة حكومية سعودية عالمية، فقتل الشيخ ليس كقتل أي شخص عادي، إنه شخص ينتسب إلى جامعة حكومية وهيئة سعودية عالمية، لكن غاب كل شيء ولا يعرفون عن القتلة شيئاً.

كان يبدو على المحقق الإرهاق والتعب، فقال لي: إني متعب، قلت له: لماذا لا تستريح؟ قال: لا أستطيع الراحة، والإرهابيون موجودون، وكان الوقت ليلاً، فقال: انتهت الجلسة الآن انصرف، وعدت إلى الحظيرة كما جئت مقيد اليدين والرجلين مع الكيس في رأسي.

إنهم يراقبون ويسجلون، ويحاسبون السجين على كل حركة، أو تصرف يقوم به إن الإنسان في السجن يشعر بالفراغ الكبير، إن اليوم في السجن طويل، فلا بد أن يطرد الإنسان الملل والسأمة عن نفسه أولاً، ثم لا بد أن يملأ هذا الوقت بالنافع من القول والعمل، إن جميع الاتصالات بالعالم الخارجي غير موجودة، ليس هناك صحيفة ولا مجلة، ليس في السجين تلفون أو تلفزيون، لا كتاب ولا شريط، لا يوجد معك إلا القرآن الكريم أو العبادة التي تملأ السجين بالأمن والطمأنينة والسكينة، والرضا بالقضاء والقدر، لا يوجد معك إلا الاتصال برب الأرض والسماء، والعبادة والدعاء بأن يكون فرج الله

للمظلومين قريباً بقدرة رب العالمين، قال لي صاحبي: لا تكثر من العبادة والنوافل وقراءة القرآن أمامهم إنهم -الحرس- يراقبون كل واحد، ويكتبون كل صغيرة وكبيرة يعملها.

وصدق صاحبي في ملاحظته بعد يومين من نصيحته لي، طلبني المحقق وقال لي: أنت جيد، أنت مسلم ملتزم، صادق، وأنت كم تصلي في اليوم، كم مرة كنت تذهب إلى المسجد؟ قلت له: كيف عرفت أني مسلم صادق؟ قال: أنت تصلي كثيراً، قلت له: لا يوجد عندنا أي شيء من الكتب والمجلات والجرائد، لا يوجد شيء يؤنسنا، ويخفف عنا ساعات السجن إلا الصلاة وقراءة القرآن، أنت لا يعجبك هذا لا تحبه؟ قال: لا، لا، أنت تفعل ما تحب، هذا أمر يخصك، قلت لصاحبي لما رجعت: لقد سألوني عن الصلاة والقرآن، قال: ألم أقل لك، قلت له: إذاً لماذا هم يقدمون لنا القرآن الكريم؟ قال: أنت مسكين، إنهم يقدمون القرآن الكريم لك؛ ليعرفوا كم تقرأ منه يومياً؟ هل أنت متعلق به أم لا؟ ليعرفوا مدى احترامك وإجلالك للقرآن؟ بينما لو لم يسلموك القرآن، فكيف يعرفون هذا.

لقد كنت أرى بعض المسجونين يقللون صلاتهم وقراءتهم للقرآن، ويخففون عباداتهم ونوافلهم؛ حتى يظهروا عامدين أمام الحراس الأمريكان بأنهم عاديون، وليسوا متطرفين متشددين،

وليسوا متزمتين (حسب تفسيرهم) إنهم أرادوا أن يأخذ عنهم الأمريكان أنهم مسلمون (سكر خفيف) كما يقول بعض الناس، بل إن بعضهم كما سمعت قال للمحققين: إنه ترك دينه، إنه تنصر ودخل في دين المسيح عليه الصلاة والسلام؛ ليخرج من السجن، لقد ظن هذا المسكين أن المحققين سيصدقونه ويطلقون سراحه.

وقد فطن له المحققون، وأدركوا كذبه وأن الذي يفعله هذا الشخص إنما هو حيلة ورخصة يترخص بها؛ ليخرجوه من السجن، وليس جاداً فيما أظهره، لقد كان بعضهم يتعمد الكلام مع المجندات، كلما مرت إحداهن من أمامه، بل لا يطلب ما يريده من أغراض إلا من المجندات، مع وجود الجنود والحرس، إنه يطيل الكلام مع النساء، ويضحك، وربما بدأ يغني، ويظهر في اللباس الرياضي في غرفته في مكان الرياضة، بل ربما يتكلم مع المجندة بكلام لا يقوله الرجل إلا لزوجته، يقول لها: أعطني قبلة، إنني أحبك (I LOVE YOU) وغير ذلك، أنا لا أدري هل هذه هي حقيقة هؤلاء السجناء أم هو التظاهر بقلة الدين والتحلل، لأمر يقصدونه.

لقد كان بعض السجناء يستلم بعض آلات التسلية، مع أنه لا يعرف استعمالها، ولا يريد أن يستعملها أصلاً؛ حتى لا يقول عنه الأمريكان: إنه ليس متشدداً أو إرهابيًّا كما يسمونهم، كما كان بعضهم يتسلم الشطرنج مثلاً أو أوراق الشدة- البليت- أو غيرها

من الألعاب، ويضعها في غرفته؛ حتى لا يُقَال عنه: إنه متزمت، بل إنه منفتح وليس منغلقاً على نفسه، لقد سمعت أن بعض السجناء لبس الصليب، وترك الصلاة، وترك دينه الإسلام ودخل في دين الآخر، إنه ارتد عن دينه لأمر يقصده ولحاجة دنيوية يطمع فيها، ومضى عليه وقت طويل لم يحصل على هذا المقصد ولم يحقق هذا الطمع، بل تعسر حاله وساءت أحواله، وازداد بلاؤه وصعبت حياته، وتسلط عليه الضنك والهم والحزن.

ومضت أيام قليلة وحضر الحارس وقال: رقم (١٧١) للتحقيق، وقفت على باب الحظيرة؛ ليقوم الحارس بتقييد اليدين والرجلين، ثم أخذ الكيس وألبسه في رأسي وساقني كالمعتاد إلى الطابق الأعلى دخلت الغرفة، وجلست على الكرسي، ورفع الكيس عن رأسي، وإذا أنا أمام محقق جديد ومعه مترجم- سيدة- جلست، حيث كان الوقت ليلاً، فقلت له: مساء الخير، قال: أنا لست بخير، قلت له: لماذا؟ قال: أنا لا أستطيع أن أستريح حتى أقتل جميع الإرهابيين، قلت له: من هم الإرهابيون؟ قال: أنتم، قلت له: ليس كل من جمعتموهم هنا إرهابيين، إن كثيراً منهم لا يعرف أسامة بن لادن، ولم يره طيلة حياته وقسم منهم لم يدخل أفغانستان أبداً، جمعتموهم من باكستان، حيث كانوا يعملون في مؤسسات إغاثية وإنسانية، ويقيمون بأوراق وجوازات صحيحة وإقامات من الحكومة الباكستانية

التـي تعـرف عنهم كل شـيء، عملهم، مسكنهـم، تحركاتهم، قال: هؤلاء الإرهابيون كيف يدخلـون إلى باكستان من الحدود الأفغانية وباكستـان دولة فيها حكومة وجيشـ وشرطة كيف تسمح لهم؟ قلت له: أنا لا أعرف.

ثم أردفت قائلاً له: إن علاقتكم بالحكومة الباكستانية جيدة وعلى أحسن حال يمكنكم أن تسألوهم عنهم، وفي أثناء الحديث مرت فراشة من أمامي، وجعلت تذهب وترجع أمامي، فأردت أن أقتلها برجلي، قال لي: ماذا تريد منها؟ قلت: أريد أن أقتلها، قال: لا تقتلها أنت إرهابي؟ قلت: لا، إنها أزعجتني وأزعجتك أنت أيضا، فأردت قتلها.

وبعد أيام حصل مثل هذا الموقف وأنا في الحظيرة مكان النوم، فقـد رأى أحـد الحراس من يريد قتل مثل هـذه الفراشة فنهاه عن قتلها فسألت أحد السجناء عن سر النهي عن قتل مثل هذا الفراش، فقـال لي السجـين: إن أحـد الجنود أخـبره أنهم يحبـون مثل هذا الفراشـ يطبخونه مع الزيت وهو وجبة لذيـذة عندهم، والله أعلم بمـا قاله السجين، ومـا قاله الجندي، ثم سأل المحقـق سؤالاً آخر، فقال: هـل يمكن أن يقوم هؤلاء الإرهابيـون بتقديم أموال ورشاوى للشرطـة الباكستانية حتى تغض الطرف عنهم، وتسمح لهم بالمرور من أراضيها أو العيش فيها؟

قلـت له: لا أدري، قال: هل قمت طيلة حياتك في باكستان بدفع رشوة للشرطة الباكستانية، قلت له: لا؛ لأنني أقيم في باكستان بشكل قانوني، قال: هل يمكن أن تقبل الشرطة الباكستانية الرشاوى، قلت لـه: أنـا لا أعرف، قال: هل سمعـت أن أحداً قـدم الرشوة ليتجاوز القانون أو يتخطاه؟ قلت له: لم أسمع، قال: هل يعقل هذا؟ قلت له: أنـا لم أسمع، أنا ليس لي اختلاط بالناس، قال: ما هي بارة ودارة؟ قلـت له: أسمع بهما ولم أرهما، إنهما منطقتان قبليتان لا تخضعان للحكومة الباكستانية، قال: هل يمكن أن يكون بهما إرهابيون؟

قلت: أنا لا أعرف إن كان بهما إرهابيون أم لا، أنا لست مراقباً على الناس حتى أعرف أين يعيشون، وكيف يتحركون وبمن يتصلون، وعندكـم وسائل حديثة وأجهزة متطورة أكيد أنها أخبرتكم عن كل شـيء أو أخبرتكم عـن أكثر الأشياء، ثم أخـرج خريطة لحياة أباد وهـي منطقة سكنيـة جميلة ونظيفة وهـي حي من أحيـاء بيشاور، الخريطة، كبيرة طولها متر، وعرضها متر ثم قال: أين بيتك؟

قلت له: عفـواً أنا لا أستطيع أن أستعمـل الخريطة العسكرية، اقـرأ لي أنت أسماء الأحيـاء والشوارع والمناطـق، عندها يمكن أن أخـبرك أين بيتي، وفعلاً قـرأ اسم الشوارع والمنـاطـق قلت له: هنا بيتنـا قـال: وبيت فـلان وفـلان، وهم أشخاصـ مسجونـون معنا، واعتقلـوا معنا في ليلة واحدة، قرأ أسماء الشوارع والمناطق قلت له: هنا يكون بيـت فلان، وهنا يكون بيت فلان انتهت الجلسة، ورجعت إلى الحظيرة، مكان الإقامة والنوم.

مضت أيام، وإذا بالحارس ينادي على رقمي (١٧١) تحقيق قلت: هأنذا، قيدني كالمعتاد ووضع الكيس في رأسي وساقني إلى الطابق الثاني مكان التحقيق، جلست على الكرسي وإذا المحقق جديد، سألني عن السيرة الذاتية اسمك، مولدك، دراستك،عملك، حتى ألقي القبض علي، ثم قال لي: هناك معادن نشيطة متحركة، غير ساكنة تؤثر في غيرها وتنشطها، أنت عنصر نشيط، مثل المعدن النشيط، قلت له: المعلومات هذه غير صحيحة، قال: هل تعرف الفارين من أفغانستان إلى باكستان، أين يسكنون، ومن يساعدهم في عمل الجوازات والتأشيرات، ومن يرشدهم، ومن يقدم لهم المال؟

قلت له: أنا أعيش في بيشاور، وهي منطقة حكومية، إن سألتني عنها أعرف وأجبك، وهؤلاء الذين تسألني عنهم لا يستطيعون السكن في مناطق الحكومة، إنهم يسكنون في المناطق القبلية والحدودية التي لا تخضع لسيطرة الحكومة، وهذه مناطق لا تحتاج إلى وثائق وجوازات، ولا تحتاج إلى إذن إقامة أو تصريح دخول وخروج، ولا تحتاج إلى إذن أحد، قال: بل تعرف ويوجد من يشهد بذلك عليك.

قلت: هذا غير صحيح، وإن كان صحيحاً، فأحضر لي من قال لك، وليشهد علي أمامي، قال: أنا متأكد أنه يوجد من قال:

إنك تعرف، قلت: أؤكد بجميع التأكيدات أنني لا أعرف، قال: انصرف الآن وفكر في الأمر، عدت إلى الحظيرة رقم (٦) مكان النوم، وفي اليوم الثاني استدعاني، وقال: هل فكرت؟ قلت له: فيم ذا: قال: فيما أخبرتك بالأمس، قلت له: إنني أنا، قلت لك: إنني لا أعرف، فأجلسني على ركبتي، ويداي مقيدتان خلف رأسي ورجلاي مقيدتان، وقال: أجب، وأخبرني عما سألتك، قلت له: ليس عندي إلا هذا الجواب، لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الذين سألتني عنهم، أبقاني ساعة على هذه الحالة والكيس في رأسي، والجو حار وألجمني العرق وضاق نفسي.

بعد ساعة جاء، وقال: انصرف الآن وفكر في الأمر وسوف نطلبك فيما بعد، رجعت وكان الوقت نهاراً وفي اليوم نفسه ليلاً طلبني، والذهاب إلى التحقيق أو الرجوع منه لا يتم إلا بتقييد اليدين والرجلين والكيس في الرأس، جلست، فوجدت المحقق السابق ومعه شخص آخر، يبدو من سحنته وخلقته أنه من جنوب شرق آسيا، كأنه ياباني أو صيني، هكذا يبدو إليَّ شكله، أجلسني على ركبتي ويداي خلف رأسي مقيدتان ورجلاي مقيدتان أيضا، لكن لا يوجد كيس في رأسي، قال لي هذا الرجل الجديد: هل فكرت فيما سألك عنه بالأمس، هل تعرف أم لا تعرف؟ قلت له: أنا أخبرتك بالأمس أنني لا أعرف، وأؤكد لك ذلك فشد لحيتي بيده شداً عنيفاً وقال:

لماذا تكذب؟ قلت: له أنا لا أكذب، قال: إنكم تعتقدون أن الكذب على العدو -علينا- يجوز في دينكم.

الكذب على العدو، وفي الحرب مباح وجائز أليس كذلك؟ قلت له: أنا لا أكذب عليك، قال: إن الكثيرين ممن يوجدون معك في الحظائر كذبوا علينا، ثم رجعوا وغيروا اعترافاتهم، وقالوا لنا: لقد كذبنا عليكم، وقالوا لنا: الأخبار والمعلومات صحيحة، قلت له: أنا لم أكذب عليكم، حتى أبدل كلامي وأغير معلوماتي، قال: سوف ترى هذا الكلام كله ليس من المحقق القديم، بل من المحقق الجديد- الياباني- إنه يهدد ويتوعد، أوقفني ووجهي على الجدار وقدماي مقيدتان ويداي خلف رأسي مقيدتان أيضاً، ووضع الكيس في رأسي، والحر شديد ألتقط نفسي بصعوبة وألجمني العرق كان العقاب ساعة تقريباً، بعد مضي الساعة قال: أتعرف أم لا تعرف؟

قلت: لا أعرف، قال: انصرف الآن، لنا معك عودة أخرى، نادى الحارس، أمسكني الحارس ودفعني أمامه بشدة وهو يمسكني بيديه، يد على منكبي واليد الثانية على خاصرتي، ومن شدة دفعه لي، كدت أسقط من أعلى الدرج، وصلت الحظيرة رقم (٦) مكان النوم، وفي اليوم اللاحق نادى علي الحارس: رقم (١٧١) تحقيق، ذهبت، قال لي المحقق: أظن أنك غيرت رأيك وستخبرنا عما طلبناه منك، كما فعل ذلك كثير من السجناء.

قلت له: أؤكد لك أنني لا أعرف، من دون قصد وانتباه بدأت أقسم له بالله العظيم إنني لا أعرف، بدأ يضحك هو وصاحبه ويقول: إنكم تعدوننا كفاراً يجوز الكذب علينا، أنتم لا تحبوننا تريدون إيصال الضرر والشر إلينا؛ لأنكم تعتقدون أننا كفار يجوز أن تفعلوا ضدنا كل شيء، هكذا أنتم تظنون، قلت له: إن كنت كافراً أو غير كافر، فهذه ليست مسؤوليتي، وهذا ليس عملي، هل أحضرتني من بيتي في باكستان إلى هنا؛ لأنني أنا مسلم وأنت كافر؟ إن المسلمين في العالم كثيرون لماذا لم تحضرهم هنا وتحقق معهم؟ إنك تتهمني بشيء وأنا منه بريء، لا علاقة للإسلام والمسلمين به، إنكم تجمعون الناس بلا ذنب وتحققون معهم وتتهمونهم بما هم منه براء.

قال: إذا لم تخبرني بما سألتك عنه فسوف نحضر زوجتك إلى هنا، وبعد أيام سوف تنهض من النوم وإذا بزوجتك هنا معك في السجن، قلت له: ما علاقة زوجتي بما تتهمني به وأنا منه براء، فكيف بزوجتي؟ قال: زوجتك تعطي المحاضرات والدروس وتحرض على القتل والإرهاب، قلت له: يا هذا، زوجتي امرأة أمية لا تستطيع أن تلقي المحاضرات والدروس، إنها ربة بيت ومربية أطفال، أنت واهم، الأخبار التي وصلتك خطأ ١٠٠٪ لم يكترث بما أقول أوقفني وأعاد علي عقاب الأمس، لكن الوقوف اليوم على قدم واحدة وليس

علـى قدمين، انتهت الساعة، أصبحـت ثيابي كأنني خارج من بركة ماء من كثرة العرق، قال: انصرف الآن وسنعود إليك، جاء الحارس وأرجعني إلى مكان النوم.

بعـد أيام استدعـاني للتحقيق وأعاد علي السـؤال السابق: هل أعـرف الإرهابيين، كما يسمونهم ومـن يساعدهم؟ قلت: لا أعرف كـرر علي السـؤال، وكررت عليه الجـواب بالنفي، لقـد استدعاني هـذا الشخص اليابـاني أو الصيني الشكل، وسألنـي السؤال نفسه عـدة مـرات، وأعيد عليه الجواب نفسه، فليـس عندهم أي تهمة أو شبهـة إنما هي اتهامات وافـتراءات ليس لها أي نسبة من الصحة، ليـس عنده إلا هذا السؤال والاتهام، يعيده علي وأعيد عليه الجواب نفســه، وفي كل مـرة العقـاب ساعـة، الكيس في الرأس والرجلان مقيدتـان، واليدان خلف الرأس مقيدتان أيضاً، وهذا العقاب يكون وأنـا واقف ووجهي نحـو الجدار، وهم يجلسـون أو هو يجلس وحده يرقبنـي حتى أبقى على الحال نفسه، دائم الوقوف لا أستريح، لقد مرّ في ذهنـي وأنا على هذه الحالة قولـه تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. (البروج: ٧).

وبعد مـرات كثيرة، وهو يطلبني للتحقيـق، ولا يوجد عندي إلا الجواب نفسه، وأظنه يرى أنني صادق فيما أقول، ولا يوجد أي دليل ضعيـف أو شبهة، تثبت علي ما يقوله، قلت له: لو كان معك مسدس أو علقـت لي حبل المشنقة في سقف هذه الغرفة، ثم هددتني إما أن أقـول لك ما تريده أو تنفذ حكم الإعـدام في بالمسدس أو بالمشنقة، لقلـت لك: أنا لا يوجـد عندي إلا الجواب نفسه الـذي قلته لك نفذ الحكم الـذي تريده؛ لأنني متأكد مما أقوله لـك وأنا صادق ١٠٠٪ فيمـا أقوله لك، إلا إن أحببـت أن أقول لك كلاماً كاذباً، أتريد مني معلومات كاذبة؟

قـال: لا أريد، قلـت له: إن المعلومـات الكاذبـة لا تفيدك، فإن كنـت غضبان علـي الآن شيئـاً قليلاً لأنني صادق، فكيـف لو قلت لك معلومـات كاذبة، إن المعلومات الكاذبة تضـر أو تؤخر التحقيق الـذي تقوم به معي أو مع غـيري، إنكم تريـدون معلومات توصلكم إلى الحقيقـة، أو توصلكـم إلى الإرهابيين الذين تبحثون عنهم كما تسمونهـم، والمعلومـات الكاذبـة لا توصلكم إلى الحقيقـة يبدو لي أن قسمـات وجهــه ارتاحت لما أقولـه وصدق ما يسمعـه، قال: جيد انصرف الآن وسنعود إليك بعد ذلك.

نـادى الحارس وأرجعني إلى حظيرة النوم، ثم طلبني في اليوم اللاحق ليلاً وقال لي تكلم، قلت: صدقني إني بريء وبدأت أحلف له وهو يضحك، أنا جاد في يميني؛ لأنني أظن أنه يصدقني في يميني؛ قلـت له: صدقني لا يوجد عندي إلا الصدق والكلام الصحيح، قال لي: سـنرى، نادى على الحارس وأرجعني إلى حظيرة النوم، رجعت

نمت مباشرة من شدة التعب، ولم تمضِ على نومي إلا ساعتان، وإذا بالحارس يوقظني بصوته العالي، فزعت من النوم، قلت له: ما الأمر؟ قال: ممنوع النوم وقفت مكاني، ثم أردت أن أرجع للنوم، قال: لا تنم، فعرفت أنه عقاب، لم أنم تلك الليلة، إلا ساعتين.

وفي اليوم اللاحق طلب مني الحارس أن أنقل فراشي البسيط، بطانيتين إلى غرفة صغيرة مشبكة بالحديد، أمام الحظيرة التي أسكن فيها؛ لأن كل حظيرة من الحظائر الستة يوجد في مقدمتها غرفة صغيرة ١,٥ × ٢ متر تقريباً، هذه الغرفة يدخل منها السجناء الموجودون داخل الحظيرة، ويخرجون إلى التحقيق أو إلى الحمام، أو أي غرض آخر، وتستخدم هذه الغرفة عقاباً للسجناء؛ لأنها صغيرة لا تتحرك فيها كثيراً، ومغلقة دائماً، حتى الحمام لا تذهب إليه إلا بالإذن، بخلاف باقي السجناء، يذهبون إلى دورة المياه من دون إذن، كما يشاؤون، ومن يجلس في هذه الغرفة يكون مقيد اليدين والرجلين، وحتى الذهاب إلى دورة المياه يكون السجين مقيد الرجلين، واليدين، ونادراً ما يفك لك الحارس قيد إحدى اليدين؛ ليسهل عليك استعمال دورة المياه، ثم يعود ويربطها لك بعد ذلك، ثم إن هذه الغرفة- غرفة العقاب- أمام الحراس والجنود ٢٤ ساعة تحت المراقبة ١٠٠٪، إنك تأكل وتشرب فيها.

وقد جلست في هذه الغرفة أياماً لم يسمح لي بالنوم فيها إلا قليلاً، حتى النوم وأنت جالس على الأرض (متربع برجليك)

بجسمك على الأرض غير مسموح به، النوم قليل، وإن نمت وأنت جالس على الأرض، قال لك الحارس: قف لا تنم؛ لأن الغرفة تحت المراقبة الكاملة ١٠٠٪، وإن وقفت تعبت من الوقوف، ولا يسمح لك أن تتكئ على جدار الغرفة الحديدي لا بيديك ولا بجسمك، إنه إرهاق شديد.

مضى على هذا العقاب أيام، ثم أدخلني إلى داخل الحظيرة، مكان النوم السابق، فرحت كثيراً لهذا التحول، لقد عافانا الله -عز وجل- من هذا العقاب الذي لا ناقة لي فيه ولا جمل كما يقول المثل.

إن جميع أوامر الحراس والجنود التي يوجهونها إلى السجناء، إنما يتلقونها من المحققين، الذين يديرون السجن من أوله إلى آخره عن طريق الحراس والجنود الذين ينفذون أوامر المحققين وتعليماتهم بدقة، إنهم لا يستطيعون عصيانها أو تأخيرها أبداً.

في بجرام كانوا يفرضون على السجناء المعاقبين زيادة على وضع الكيس في الرأس والتقييد بالسلاسل، كانوا يطلبون من بعض المعاقبين تنظيف الأرض من الأوساخ، والأشد من ذلك كان سجناء كل حظيرة يقومون بتنظيف حظيرتهم، وكان كثير من الأوساخ بين الأسلاك ذات الشوك المدبب، ولا بد لك من إدخال يدك بين هذه الأشواك، مما كان يتسبب في كثير من الجروح في أيدينا.

في بجرام يأمرك الحارس بما يحلو له، ذات مرة أراد واحد من الحراس أن يأمرك بأوامر لا ندري ما الحكمة منها، وما هي الفائدة في فعلها، قال: ضع القرآن جانباً لا تمسه، لا تقرأ فيه ولو غيباً، لا تتكلم حتى مع نفسك، اجلس على الأرض ولا تقف ولا تتحرك من مكانك، الجميع جلس كان كل واحد منا جماداً في مكانه، بعد قليل قال: قم واقفز مكانك، بعدها جلوس، بعد الجلوس هرولة داخل الحظيرة خلف بعضنا.

إن مشاهدة النساء -المجندات- باللباس الرياضي القصير شيء عادي عندهم ومألوف في حياتهم، لكن عند السجناء هذا الأمر غير مألوف، إنه أمر يضايقهم، ربما تمر المجندات باللباس الرياضي القصير من أمام السجناء، إنه مرور في الطريق تراه يومياً مرات كثيرة، خاصة أن الجو حار، إنه فصل الصيف، وربما جاءت المجندة باللباس الرياضي وجلست مع الجندي مقابل الحظائر التي نعيش فيها يتحدثان ويضحكان، إن بإمكانهما أن يذهبا بعيداً عن أعين السجناء، ولكن لا نستطيع الكلام معهما أو الاعتراض على فعلهما.

ذات صباح جاء الحارس، وقال: كل واحد يضع القرآن جانباً، لا يمسه، لا يقرأ فيه، والمطلوب من كل واحد الوقوف والقفز إلى أعلى، وحركات رياضية أخرى غير معتادة ومتعبة، بعد ذلك الجلوس

مع عدم الكلام، أو الالتفات إلى أي جهة، باستثناء الجهة التي فيها الحراس لمراقبة الوضع، الكلام مع غيرك ممنوع، وحتى الكلام مع نفسك غير مسموح به، وللحارس أن يختار من يشاء لإيقاع العقاب عليه دون أن يسمح للسجين أن يدافع عن نفسه والسجين يكون مقيد اليدين والقدمين والكيس في الرأس، ولما حاول أحد السجناء الدفاع عن نفسه بالنقاش والكلام الهادئ، شددوا عليه العقوبة، ربطوا يديه خلف ظهره والكيس في رأسه، وأجلسوه على الأرض دون حركة مدة ساعة.

بعد منتصف إحدى الليالي، وقبل أذان الفجر جاء أحد الحراس وقال لي: أنت تكلمت، قلت: مع من؟ قال: مع هذا الرجل، وأنت تعجب أو تسأل ما الذي يجعلنا إلى هذا الوقت من الليل دون نوم؟ إن معظم الليالي وليس هذه الليلة لا نستطيع النوم إلا آخر الليل والسبب أن الإضاءة الكهربائية علينا شديدة جداً إن الأنوار الكاشفة تحيط بنا من كل جانب، كأنها إضاءة في ملعب كرة القدم.

إن جميع السجناء في جميع الحظائر وفي جميع حالات وجودهم داخل الحظائر، سواء أكانوا نائمين أو جالسين، أو واقفين إنهم طيلة اليوم (٢٤) ساعة، تحت الرؤية الواضحة جداً للحرس، وإذا حدث أن ضعفت الإضاءة أو تعطلت إحدى اللمبات، تجد الحراس يهرعون إلى أسلاك الحظائر، ويقتربون منها ويصرخون على

السجنـاء بعـدم الحركة، والبقاء نياماً على الأرض، حتى لو أردت الصلاة أو الذهاب إلى دورة المياه، لا يسمحون لك بذلك، نعود إلى القصـة، هذا الحارس وقبل أذان الفجر قال لي: أنت تكلمت، قلت: مـع من تكلمت؟ قال: مع هذا الرجل الـذي يصلي، قلت: إنه يصلي كيـف أتكلم معه؟ قال: بل تكلمت، أخبره أنه سيعاقب مثلك، قل له: فليحضر، قلت له: إنه يصلي، انتظر حتى ينتهي.

قـال: أخبره، وأمام إصرار الحارسـ، وهو يرى ويشاهد، قلت للسجـين: يقول لك هـذا الحارس احضر إلى جهـة الباب من أجل العقـاب، لكنه يصلـي، لم يجبني، لم يقتنع الحارسـ، وبدأ يصرخ علـى المصلـي، لكن المصلـي أكمل صلاتـه وتقدم، ووقفنـا بجانب بعضنـا مكان العقاب، ربط اليدين معاً، ثـم ثبتهما بباب الحظيرة الحديدي، ووضع الكيس في الرأس وربط القدمين بسلسلة حديدية، هذا العقاب مدة ساعة، وأنت واقف على رجليك.

بعـد يوم طلبني المحقـق للتحقيق، وقال لي: هـل تسمع بكوبا؟ قلـت: نعم إنها في أقصـى الأرض قرب بلادكم، قال ماذا بها؟ قلت لـه: قبل اعتقالنا كنا نرى فيها الشباب الذيـن تقولون عنهم: إنهم أسرى تنظيـم القاعدة وطالبان، إنكم تسمونهـم الإرهابيين، إنهم يلبسـون اللباس البرتقالي، قـال لي: إذا لم تتكلم الكلام الصحيح فسـوف تذهب عندهم هناك بعيداً، وبـدأ يضحك كالمتشفي، قلت:

أنا لم أرتكب جرماً حتى أستحق أن تكافئني بهذه الجائزة، أتريد أن تكافئني أم تعاقبني؟ لا بأس أيها المحقق، أن ترسلني إلى هناك، إن الدنيـا مليئة بالظلم وهذا من الظلـم يا سيادة المحقق، إنني أفضل أن أذهـب إلى كوبـا، وأنا صادق خير من أذهـب إليها، وأنا كاذب، أقدم لـك معلومات غير صحيحة، فظهر عليـه الغضب قليلاً، قلت له: أنت الآن غضبان علي، مع أنني أقول لك الحقيقة والصدق، ولو قلت لك المعلومات الكاذبة، فكم سيكون غضبك علي؟

سيكـون أكثر بالطبع، قال لي: قد يكـون كلامك صحيحًا، لكن لو ذهبت إلى كوبا، وأثبت للمحققين هناك أنك بريء فستخرج من السجن، لكن تحتاج إلى وقت طويل، بينما لو قلت لي هنا: المعلومات الصحيحة وأخبرتني بالحقيقة فستمكث هنا في بجرام وقتاً قليلاً، وسترجع إلى بيتك بسرعة، قلت له: ليس عندي إلا الكلام الصحيح، وهـو ما قلته لك، وهو أنني لا أعـرف شيئاً عن هؤلاء الذين سألتني عنهـم، وليس مـن مصلحتـك ولا مصلحة التحقيق الـذي تقوم به معـي أو مع غيري مـن المعتقلين أن أقول لـك معلومات خاطئة غير صحيحة، قال: أنت ستذهب إلى كوبا، وستأتي طائرة ونرسلك معها إلى كوبـا، قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل، الله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أحسست أنه تفهم ما أقوله، لكن لم يخبرني بشيء مما في نفسه، قال: انصرف الآن، وسنطلبك فيما بعد، رجعت مع الحارس لمكان النوم- الحظيرة رقم (٦) كما كنا نسميها.

قبل السفر من بجرام إلى كوبا بيوم واحد استدعاني المحقق نفسه، وكان معه في الغرفة رجل يلبس الزي العسكري وامرأة أذكر أنها كانت بلباس مدني يجلسان ويسمعان فقط، دون تدخل أو دون أي سؤال أو كلام منهما، ولأول مرة أذهب إلى التحقيق من دون قيد الرجلين، كان القيد فقط في اليدين، مع وجود الكيس في الرأس، إنها المرة الأخيرة التي أذهب فيها إلى التحقيق في بجرام، جلست على الكرسي كالمعتاد قال لي: هل ستتكلم أم تذهب إلى كوبا؟ قلت له: ليس عندي أي كلام جديد، أنا صادق، أنا بريء، أنا مظلوم، إنكم تتهمونني، ليس عندكم دليل أو إثبات على ما تقولونه، أكرر لك ما قلته لك: إنني أفضل الذهاب إلى كوبا وأنا صادق خير وأحب إلى نفسي من أن أدلي بمعلومات كاذبة؛ لأنك الآن غضبان ومتضايق مني قليلاً ولو قلت لك معلومات واكتشفت بعد وقت أنها كاذبة سيزداد غضبكم علي كثيراً، وربما يزداد عقابكم لي.

قال: في كوبا سجن جيد أفضل من هنا، لكل سجين غرفة خاصة، وفيها ماء بارد وماء حار، إنها أفضل من هنا، لكن ربما تمكث هناك وقتاً أطول؛ حتى تستطيع إقناع المحققين أنك بريء،

قلت: لا بأس، قال لي: انصرف وسيكون سفرك إلى كوبا قريباً جداً، نادى الحارس الذي قادني إلى مكان النوم في الحظيرة رقم (٦).

قبل سفرنا إلى جزيرة كوبا- المنكوبة- بأيام وبعد أن تم اغتسال الجميع الاغتسال الأسبوعي المعروف السريع القليل الماء ثلثي سطل، الماء نظافته غير جيدة، بعد الاغتسال تم توزيع اللباس البرتقالي على الجميع، بنطلون من دون لباس داخلي، فانيلة نصف كم وعلى فانيلة كل واحد رقمه، مكتوب على الظهر، لا يعرف إلا بهذا الرقم؟ أنت رقم في مسألة (قضية) ليس إلا.

الترحيل إلى كوبا

حان وقت سفرنا من بجرام إلى كوبا، عند منتصف النهار، وبعد تناول طعام الغداء مرت مجموعة كثيرة من الحراس ١٥- ٢٠ حارسًا، كلهم يصرخون بصوت عالٍ: الجميع وقوف، ممنوع الحركة، ممنوع الكلام، وبدأ أحدهم ينادي على الأرقام، ومن سمع رقمه تقدم إلى باب الحظيرة الحديدي المشبك وأدار ظهره للباب وقام الحارس بتقييده في رجليه وتقيد يديه خلف ظهره وألبسه الكيس وأخرجه إلى الساحة خارج الحظيرة لا يعرف أحد إلى أين المصير وأين سنذهب، كان دفع الحارس لنا إلى الساحة بشدة؛ لنقف في الطابور، وربما سقط بعضهم على الأرض من شدة الدفع إذا لم يكن السجين منتبهاً أو متوازياً في حركته نحو الطابور، ربطوا الجميع بحبل في ذراع كل واحد، والحبل ممتد من أول سجين إلى أخر سجين.

مشينـــا لا ندري إلى أيــن، وأجلسونا على مقاعد خشبية طويلة بجانــب بعضنا، بدؤوا بفك قيد الرجلــين ووضعوا مكانه قيدًا آخر، فكوا قيد اليدين من الخلــف وجعلوه في الأمام عند البطن، وربطوا الخاصرة بسلسلة حديدية وربطوا هذه السلسلة بقيد اليدين؛ حتى لا ترتفــع اليدان أو تنزل، وضعوا كفوفــاً قماشية غليظة وسميكة في اليديــن، بحيــث إنك لا تتمكن من فــك أي شيء أو ربطــه، مع أنك مقيــد في جميــع أجزاء جسمك نزعــوا الكيس مــن الرأس ووضعوا نظــارة سوداء محكمة على العينـــين ولا ستيك مطاطي حول الرأس يمسكها مــن الزوال والسقــوط، ثم أغلقوا الأذنـــين إغلاقاً محكماً بقطعتين بلاستيكيتين، بحيــث لا تستطيع أن تسمع شيئاً، كما أغلق الأنف بقطعة قماش وإغلاق الفم كذلك، بحيث إنك لا تستطيع أكل أي شـــيء أو شربه، مع أنك مقيد ومع أنه لا يوجد طعام تأكله إلا ما يقدمونه لك.

وعند الأكل أو الشــرب يأتي الجندي ويرفع غطاء الفم ويقدم لك الطعــام أو الشراب الذي تمسكه بيديك المقيدتين، بعد الانتهاء يقــوم الحارس بإعــادة غطاء الفــم إلى مكانه، نقلونــا إلى شاحنة كبــيرة، كل سجين يمسكــه الجنود ويقذفونــه، يناولونه بسرعة من الأرض إلى داخل الشاحنة كما يناولون الكرة ويجلسونه في الشاحنة على مقعد طويل بجانب بعضنا، كان جلوسنا في الشاحنة مدة ساعة والحر شديد مع ضيق النفس، والفم والأنف مغلقان.

تحركــت الشاحنة واقتربت مــن صوت الطائــرة، وأنزلونا من الشاحنــة إلى الطائرة، فجلسنا على مقاعد الطائرة بجانب بعضنا ومع القيود السابقة التي على جسمك تجلس على مقعد الطائرة، ثم يربطون قيد رجليك بقيد آخر ويربطونه في حلقة في أرض الطائرة، وبعــد ذلك يربطــون كل واحد بمقعد الطائــرة بسلسلة حديدية من هــذا الجانب مــن خاصرتك إلى الجانب الثــاني، بحيث لا تستطيع معه القيام أو الحركة إلا الحركة البسيطة وأنت جالس.

فوق هذه الأربطة وقبل إقلاع الطائرة جاء المترجم وأبعد الغطاء عــن أذنيك، وقال سوف نعطيك بعض الأدويــة، أقراص من الدواء؛ حتى لا تتأثر من السفر؛ حتى لا تخرج ما في بطنك من الطعام بسبب الدوخــان في السفــر، وحتى لا تتقيأ، لكن تبــين فيما بعد كما سمعت من بعضهم أن هذه الأدوية تصيبك بشيء من الدوار والهلوسة، كما حصل معي أنــا شخصياً، وحصل كذلك هذا الــدوار والهلوسة، مع مــن سألتهم ممــن كانوا معنا في هذه الرحلــة المشؤومة، بحيث إنك لا تستطيــع النــوم، لكن لست أيضاً في حالــة استيقاظ، صحيح إنك تشعر بشيء يجري حولك تسمع وتعي، لكن لا تميز جيداً.

ربما يقول قائل: لماذا شربتم هذا الدواء لقد كان بإمكانكم أن ترفضوه؟ لكن الجواب أن شرب هذا الدواء إجباري على الجميع وليس اختياريًّــا، لقد استطعت أن أسمــع كلام من كان يجلس بجانبي من

المعتقلين وكان عربيا، قال الجندي للمعتقل المقيد: أتريد أخذ الدواء؟ قـال له المعتقل: إن كان الأمر باختياري فـلا أريد، قال له الحارس أو الممرض الذي يقدم الدواء: ليس الأمر باختيارك إنه إجباري، فأجابه المعتقـل المقيـد إذا كان أخذ الـدواء إجبـارًا، وليس اختيـارًا فلماذا تسألني أتريد أخذ الدواء أم لا؟ وأعطاه الدواء أو وضعه في فمه طبعاً، يأتـي الحارس ويزيل الكمامة عن الفم ويضع الدواء في الفم ويعطيك جرعة من الماء، ثم يرجع الكمامة كما كانت.

أقلعت الطائرة بعد العصر، والفصل صيف، بداية شهر أغسطس ٢٠٠٢م، أمـا الطعام في الطائرة فإنهم يقدمون لك ساندويتشًا من الفـول السوداني، يضعه الجندي بين يديـك المقيدتين بالسلاسل، ومع السلاسل، الكفوف السميكة يزيل الكمامة عن فمك تبدأ تأكل، لكـن لا بد أن تحني ظهرك؛ حتـى تستطيع إيصال الطعام [الخبز] إلى فمك؛ لأن يديك، لا تصلان إلى فمك بسبب السلاسل، ثم تنهي الطعام، ثم يعطيك تفاحة.

وإذا احتجـت إلى ماء تنادي بصوت لا يسمع جيداً ولا يستطيع أحـد أن يميزه بسبب الكمامة على فمـك، يعطيك جرعات ماء بعد أن يزيل الكمامة عن فمك ثم يعيد الكمامة كما كانت، وهكذا سارت الطائـرة، لكن لا ندري عن وجهتها شيئاً، لا نعرف عن مرور الوقت أي شيء وإن سألـت عن الساعة لا يجيبك أحد، وإن أردت الصلاة

تقدر دخـول الوقت بنفسـك، تجتهد وتصلي منفـردًا، طبعاً كيفما اتجهت بك الطائرة من دون وضوء أو تيمم، تصلي وأنت على مقعد الطائرة مقيد بالسلاسل والحديد كما ذكرنا.

بعد وقت لا نعرف هل كثير هذا الوقت أم قليل نزلت الطائرة في مـكان ما، وأنزلونا من الطائـرة وأركبونا في طائرة أخرى، لا نعرف أي شيء عن هذا المكان، أقلعت الطائرة الجديدة والقيود والسلاسل كما هي وكما كنا في الطائرة الأولى وبعد مرور وقت لا نستطيع تقديره نزلـت في مكان ما لا نعرفه، وطيلة الرحلة منـذ إقلاعنا من بجرام حتـى أنزلونـا في هذا المـكان لا تكلم أحـدا ولا يكلمـك أحد، وقفت الطائرة، في هذا المكان الجديد، أنزلونا من الطائرة لكن بشيء من الشدة والعنف، فأركبونا في شاحنة ليس لها مقاعد.

الوصول إلى كوبا

أجلسونا على أرض الشاحنة بشيء من الصراخ، رؤوسنا تكاد تلمس الأرض، والمترجم يترجم كلام رجل بالإنجليزية، ممنوع الحركة، ممنوع الكلام، جو من الرعب والخوف، لا تملك أن تقول شيئاً، ولا تستطيع أن تفعل أي حركة يقول المترجم: هل تعرف أين أنت الآن؟ طبعاً لا يجيبه أحد، لكن هو يجيب نفسه بنفسه: أنت الآن في يد القوات المسلحة الأمريكية، تحركت السيارة لكن لا نعلم إلى أين؟ لا نعلم عن الوقت شيئاً لا نعرف أي شيء يدور حولنا، وقفت السيارة فأنزلونا منها وأجلسونا على الأرض مقيدين كما كنا، الحر شديد، والعرق ألجمنا وغطاء الفم والأنف ضيَّق علينا عملية التنفس.

بعد قليل فكوا غطاء الأذن عنا، ثم فكوا كمامة الفم والأنف، وبدؤوا يأخذوننا واحدًا تلو الآخر لا ندري أين يقودوننا، دخلنا إلى مبنى فكوا عنا بعض القيود، قاموا بخلع ملابسنا؛ لأن أيدينا مقيدة، ثم أدخلونا إلى حمام اغتسال عراة تماماً، كما ولدتنا أمهاتنا، باب

الحمام مفتوح، والجنود يشاهدون منك كل شيء، تغتسل أمامهم وهم يرقبونـك، تنهي الاغتسال فتخرج عارياً ثـم يعطونك حذاءً خفيفاً - شبشب ولباسًا برتقاليًا، يتكون من بنطلون وقميص نصف كم ولباس قصير، أعادوا علينا القيد، اليدان معاً جهة البطن وهذا القيد مشدود بسلسلة تحيط بالخصر، تتدلى من هذه السلسلة سلسلة إلى الأسفل تتصل بسلسلة تربط القدمين معًا، ويمسك بك جنديان يقودانك إلى الطبيـب للكشف عليك، ثـم إلى التصوير، ثـم إلى التحقيق السريع: اسمك، بلدك، عمرك، أين كان اعتقالك، مذهبك سني أم شيعي؟

كان هـذا المحقق يكتب على الكمبيوتر، وآخر يكتب على الورق، ثـم أحضـر المحقق بطاقة صغـيرة وطلب مني أن أكتـب رسالة إلى أهلـي، أخبرهم فيها بأننـي في كوبا، ووصلت بسـلام وكتبت عليها العنـوان وسلمتها له، كان عنده إصـرار لكتابة الرسالة، لكن هنا لا يوجد غطاء للرأس- الكيس- العيون مكشوفة ترى ما حولك.

كان هـذا الوقـت قبيل المغـرب مـن اليـوم الأول لوصولنا إلى كوبـا؛ لأن الشمس كانت تجمع أشعتهـا لتختفي وتغيب خلف المباني المجـاورة والعيادة التـي دخلناها كانـت مكتظـة بالسجناء الجدد وبالحرس والجنود والمحققـين والمترجمين، وخضعنا لعملية تفتيش بعـد خروجنـا من العيادة، ثـم أدخلنا الحراسـ إلى أماكن تحقيق أخـرى خـارج العيـادة الطبية، فقـد كان الوقت بعد المغـرب، وبدأ الظلام ينتشر في المكان، ودخلت على المحقق الذي كان يلبس اللباس العسكري ومعه مترجم.

التحقيق

يظهـر مـن كلام المترجم الـذي صَحِـب المحقق أنـه عراقي، وهنــاك شخصـ ثالث يلبس اللباس المدني يكتـب كل شيء يسمعه، كان هذا في اليوم الأول لوصولنا إلى كوبا، الغرفة هنا نظيفة وواسعة وفيهــا أجهزة تكييف حديثة، وأجهزة أخرى أنا لا أعرفها، أجلسني الحراس على الكرسي، فكوا قيد اليدين فقط، وربطوا قيد القدمين بحلقـة مثبتة في أرض الغرفة، بحيث لا يستطيع السجين أن يتحرك إلا حركـة بسيطـة، لا يستطيع أن يقـف، ولو فكـر أن يقوم ويحاول الاعتداء على المحقق أو المترجم مثلاً لا يستطيع.

بدأت الأسئلة عن السيرة الذاتية من المولد حتى وقت الاعتقال، فأجبتـه كمـا أجبـت غيره كمـا هي السـيرة الذاتيـة في بداية هذا البحـث، قال ما هي آخـر أعمالك؟ قلت: آخر عملـي كان في معهد الأنصار العلمي في حياة آباد بيشاور باكستان، قال هل تظن أن هذا

المعهد أغلق من دون سبب؟ قلت له: إن هذا المعهد أغلقته الحكومة الباكستانية؛ لأنها كانت تريد أن تنهي الوجود العربي في باكستان، لقد قررت هذا، وتريد أن تطبقه سواء كان هذا القرار برغبتها وإرادتها، أم بسبب ضغوط خارجية عليها.

ثم إن هذا المعهد كان تابعاً للمعاهد اليمنية في اليمن، ويعمل تحت إشراف السفارة اليمنية ومعرفتها في إسلام آباد، والمعهد مناهجه مثل مناهج أي مدرسة حكومية في اليمن، فيه الرياضيات والعلوم والاجتماعيات واللغة الإنجليزية وغيرها، لكن يضاف إلى هذه المواد مواد إسلامية وعربية، ولما قامت الحكومة اليمنية وأغلقت معاهدها، أغلقت معهد بيشاور؛ لأنه كان يتبع لها، وعلى حد سواء أن كان هذا الإغلاق برغبتها وإرادتها، أم بسبب ضغوط خارجية، مع ترجيح الرأي الثاني كما سمعنا.

كان المحقق لا يناديني باسمي الحقيقي -حسين- كان يناديني بكنيتي- أو عبد الله- في كل سؤال يقول: أبو عبد الله كذا...

فأجبته ثم قال لي: إن اسمك أبو عبد الله على اسم أسامة بن لادن، فإن اسمه أبو عبد الله، قلت له: إن اسمي أبو عبد الله منذ أكثر من ثلاثين سنة وقبل أن أتزوج وقبل أن أسمع بأسامة بن لادن بعشرات السنين كانت كنيتي أبو عبد الله، قبل أن يخلق عبد الله بن أسامة بن لادن، تبسم المحقق وغير الحديث.

وقد استمرت الجلسة أكثر من ساعة وفي آخرها قال لي: أنت الآن متعب وقادم من سفر بعيد، ترجع الآن إلى غرفتك وتستريح وعندما نحتاجك سوف نطلبك، قلت: جيد، فجاء الحراس وفكوا قيد الأرض الذي يمسك بسلسلة القدمين وأعادوا قيد اليدين، خرجت من مكان التحقيق، وهو غرف طويلة بجانب بعضها يقابلها غرف مثلها بينهما (بهو) كرادور، الغرف ليس لها نوافذ أو فتحات من الخارج، أركبني الحراس في سيارة صغيرة تستعمل داخل المعتقل مكشوفة، أحدهم يجلس بجانبي، ويمسك بسلسلة الخصر الحديدية التي تقيدني والآخر يقود السيارة، وصلنا إلى عنابر النوم والإقامة عبر أبواب وحواجز أمنية مشددة، وصلنا العنبر وصوت المؤذن يسمع لصلاة العشاء، أدخلاني إلى الغرفة وكانت في طرف العنبر من جهة الباب، المطلوب الآن حل القيود والسلاسل.

قال الحارس لي: تجلس على ركبتيك ووجهك إلى الحائط المقابل لباب الزنزانة، أي ظهرك لبابها، وأحد الحارسين يمسك بك بيديه، الأولى يمسك بها كتفك، والثانية على رأسك، والحارس الآخر الذي يوجد معه مفتاح السلسلة يفك أولاً قيد الرجلين والسلسلة متصلة بسلسلة تحيط بخصرك وسلسلة الخصر تشد على جسمك-خصرك يقوم بفكه، فتصبح حركة اليدين الآن سهلة، لكنهما مقيدتان مع بعضهما، ترفعهما من الأمام من جهة

صدرك ووجهك بمستوى رأسك بعد أن يسحب الحارس السلسلة من بـين رجليك جهة الأمام، يقوم الحارس المكلـف بفك السلسلة بفك إحدى يديك من الحلقة ويضعها خلف رأسك، فيمسك بها الحارس الآخـر، ويجعلها ملتصقة برأسك، ثـم يفك الحلقة الثانية ويضعها علـى اليد الأولى ويمسك بهما معاً ويلصقهما برأسك، فتصبح الآن مـن دون قيود، لكنّ يديك خلف رأسك، أنـت الآن كأنك تجلس بين رجليه والآخر يقف بجانبك، يده الأولى على يديك الموجودتين خلف رأسك، ويده الثانية يمسك بها كتفك.

الآن ممنـوع أن تتحـرك أي حركة وممنـوع أن تتكلم أي كلام، الحارس المكلـف بفـك السلاسل يقف خلـف ظهرك وظهـره إلى جهـة باب الزنزانة، يخرج هذا الحارس متراجعاً القهقرى خطوة خطـوة ووجهه إلى السجين الجالس حتـى يخرج من باب الزنزانة، الآن الحارس الـذي يمسك بك يرجع القهقرى فينظر إليك وظهره إلى بـاب الزنزانـة خطـوة خطوة، ثم يرفـع يده الثانيـة عن يديك الموجودتين على رأسك، يرجع بسرعة، ويغلق باب الزنزانة بسرعة، ولا يسمـح لـك الجنود بـأي حركة مهمـا كانت قبـل أن يغلق الباب بالقيـد -بالقفل- فإذا أغلق باب الزنزانـة بالقيد يقول لك: انتهى يمكنك أن تقوم الآن.

إن أي حركـة تقـوم بها في أثناء فـك القيـود أو ربطها، سوف تعرضـك إلى عقوبة معينـة، يكتب الحارس الـذي يحرسك، سواء حـين أخذك من الزنزانة أو حين إرجاعك إليها، يكتب عنك تقريراً عمـا جرى إلى المسؤول عنـه، فيقرر عليك العقوبـة، أولاً تسجل في ملفـك في السجـن بأنك صاحب مشكلات واعتـداءات، وربما يفتح معـك المحقق جلسة بهذا الأمر، وربما تفسر هذه الحركة التي قمت بهـا بأنها محاولة للاعتداء على الحارس بالضرب مثلاً، أو محاولة هـروب، أو مخالفة القوانين في السجـن، أو أي تفسيرات وتعليلات أخرى عندهم.

الزنزانة الانفرادية

دخلنا إلى الزنزانـة التي يسمونها بيتك (Your home) إنك تجـد في الغرفة قطعة مـن الإسفنج، تصلي عليها أو تنام أو تجلس أو تأكل عليها، أو تستـتر بها عند قضاء الحاجة، ويوجد فيها بطانيتان متوسطتان، واحدة تضعها تحت رأسك -مخدة- والثانية تتغطى بها، ومنشفة صغـيرة وأخرى كبـيرة، وصابونة صغـيرة، وفرشاة أسنان صغـيرة من دون يد تضعها في رأس إصبعك حين الاستعمال لتنظيف الأسنان جيداً، تجد في الغرفة كوب ماء بلاستيكيًّا صغيرًا للشرب، أو الوضوء أو لقضاء الحاجة، ومصحف شريف- طبعة المدينة المنورة- ومعجون أسنان، ومُلاَءَة بيضاء متوسطة يسمونها «شيت».

أمـا بناء الغرفة وتكوينها، فكل مـا في الغرفة حديد، الجدران والسقـف والأرض، يوجد في الغرفـة دورة مياه- حفـرة- ومغسلة صغـيرة، وحنفية مـاء، وسرير عبـارة عن قطعة حديـد طويلة من

أول الغرفـة إلى آخرها طولاً، وهو أطول من الإنسان بقليل، السرير مثبـت بالجدار، ويرتفع عن الأرضـ أكثر من متر، في سقف الغرفة فتحة صغيرة يأتي منها الهواء البارد؛ لأن الجو حار والزنزانة حديد تمتصـ الحرارة في النهار، لكن البرد في الليل يؤذيك ولا يسمح لك الجنـود بخفض الهـواء البـارد ولا إغلاقه، ولا يسمـح لك الجنود باستلام غطاء آخر زيادة عما عندك لتتقي به برد الليل.

الغرفـة مغلقـة من كافـة الجهـات، إلا فتحة صغـيرة بالباب، يأتيـك منها الطعام والشـراب أو الدواء، يوجـد في الغرفة مروحة صغـيرة لسحب الهواء من داخل الزنزانة إلى خارجها، هذه الغرفة أو هـذا العنبر يسمونه بالانفرادي، طول الغرفة متران ونصف المتر تقريباً، وعرضها متر ونصف المتر إلى مترين تقريباً.

الطعام

كان التاريـخ هو شهر أغسطس من عـام ٢٠٠٢م بداية الشهر كمـا أذكـر، بعد قليل مـن وصولنـا أحضـر الحارس وجبـة طعام عبـارة عـن أكياس جاهزة، داخل هذه الوجبة كيسـ فيه معكرونة، وكيسـ فيه قطعتان من البسكويت، مع معجون فول سوداني، وقطعة كيـك وكيس فيه عصير وملعقة تـأكل بها، لكن وقت الطعام ثلاثون دقيقـة من وقت تسليمه، ولا يسمح لك أن تبقي الطعام عندك أكثر مـن هذا الوقـت، إما أن تـأكل الطعام وإما أن تـرده إلى الحارس، هـذه الوجبـات ليس فيهـا لحم أو دجـاج أو سمـك أو أي شيء من البروتينـات الحيوانية، نمت تلك الليلـة وفي منتصف الليل أيقظني البرد؛ لأن الغطاء ليسـ كافياً، ولأن ما يوجد تحتنا قطعة إسفنج لا تقينا برد السرير المصنوع من الحديد.

وقـد طلبت من الحارس غطاءً آخـر، كنت أظن أن هذا ممكن أو مسمـوح بـه، فقال الحارس: لا أستطيع، فعرفـت بعد ذلك أنه لا

يمكـن أن يصـرف لك غطاء زيـادة عما عندك، بقيـت أتقلب على السرير دون نوم من شدة البرد حتى الصباح، سمعت الأذان، فقمت توضـأت وصليت الفجـر، كل واحد يصلي في غرفتـه، بعد الصلاة مباشـرة يأتي الفطـور وقته ثلاثـون دقيقة ويتكون مـن كوب شاي وكوب حليب صغيرين، وبيضـة واحدة مسلوقة، وقطعتين صغيرتين مـن الخبز، وثمرة فاكهـة واحدة، وكمية قليلة مـن الدقيق أو الأرز المطحـون المطبوخ، وكمية الطعام قليلـة لا تكفي الإنسان، ولا يسمح لك باستلام طعام زائد.

في الساعة التاسعـة صباحاً جاء جندي ومعه بطاقات صغيرة يعرض فيها علـى السجناء كتابة رسائـل إلى أهاليهـم إن أرادوا، يتسلـم السجين البطاقة وقلمًا بسيطًـا جداً من الحبر الجاف، بعد كتابـة الرسائـل لا يسمح لـك بامتلاك القلم أو إبقائـه عندك، إنه يسجـل عليك كل شيء حتى تـرده إليه بعد الانتهاء من الكتابة، بعد ذلك بساعة جاء جندي ومعه بعض الكتب البسيطة باللغة العربية وبالإنجليزية وبالفارسية، باللغـات التي يتكلم بها السجناء، تختار الكتـاب الـذي تريده من هذه الكتـب، تقرؤه ثم تعيده بعـد أسبوع، تستبـدل بهذا الكتـاب كتاباً آخر بعـد أسبوع أو يمكنـك أن تجدده عندك أسبوعاً آخر.

جـاء وقت الغـداء وكان الغـداء، قليلاً مـن الأرز، وخضراوات قليلة وقطعة خبز، وثمرة فاكهة، أما اللحم والدجاج والسمك فأذكر

أنهـم كانوا يقدمون لنا نوعـاً واحداً مرة واحدة في الأسبوع والكمية قليلة طبعـاً، أذن الظهر والغداء قبل الصلاة، فجلس كل واحد بعد الغداء إلى العصر، وبعد العصر إلى المغرب بعضنا يقرأ أو ينام، أو يتكلم مع جيرانه داخل العنبر من خلال النافذة الصغيرة الموجودة في بـاب الزنزانة، أذن المغـرب، فصلى كل واحد في غرفته، ثم جاء طعام العشاء وهو مثل الغداء مع اختلاف قليل، والكمية قليلة، وهذه ليست ملاحظتي بل ملاحظة الكثيرين.

وأذكـر أننـي أخبرت المشـرف الاجتماعي كمـا يسمونه بكمية الطعام القليلة التي تقدم لنا، وذلك في أول مرة أراه، قلت للجيران: مـن هذا؟ قالوا: هذا المشرف الاجتماعي، قلت له: إن كمية الطعام التـي تقدمونهـا قليلـة وإن لم تصدقنـي، فاسـأل الآخريـن، قال: أصدقـك قلت له: اسألهم، قال: قلـت لك: أصدقك، لكن لم يحدث تحول أو زيادة في كمية الطعام، بقيت كما هي مع للأسف، أما وقت الطعـام، فهو ثلاثـون دقيقة، ثم عليك أن ترجـع الصحن والملعقة، وقشر الفاكهة أو بقية التفاحة، أو قشر الموز، ويسألك عنها الحارس إن لم يجدها في الطبق عند إرجاع الطعام، وأخطر شيء عندهم أن تحتفـظ بالملعقة ولا ترجعها لهم؛ لأنهم يعدونها آلة حادة كالسكين، وهذا عندهم شيء خطير وتعاقب عليه وتتعرض للتفتيش الدقيق في جسمك وملابسك وغرفتك وأغراضك.

بعـد طعـام العشاء أذن المـؤذن لصلاة العشـاء، والأذان هذا كنـا نسمعه بمكبرات الصوت في كل عنـبر وفي جميع الأوقات وبعد شهـور وقف الأذان عـن بعض الأوقـات، وبقي في بعضهـا، وأخيراً أوقفـوا الأذان تماماً في جميع الأوقـات ولم نكد نسمع أي أذان وكنا نعرف أوقات الصلاة عن طريق الشمس والظل، وكان بعض الجنود يخبرنا بالوقت.

انتهى اليوم الأول بسـلام، كان بعض المعتقلين يذهب للتحقيق وبعضهـم يذهب للعلاج وهـذا العنبر يسمونه بالانفـرادي؛ لأن كل سجـين في غرفة لا يرى أحـداً ولا يراه أحد، الجـدران غير مشبكة بـل مغلقة، ألواح حديدية لا ترى عـن يمينك ولا عن يسارك ولا من خلفـك ولا مـن أمامك ولا من فوقـك ولا من تحتـك، نافذتك على العـالم هي الفتحة الموجودة في بـاب الزنزانة، ترى منها وتتكلم مع جيرانـك منها ويأتيك الطعام والشـراب أو الدواء منها، قضيت في هـذا العنبر سبعة أيام أو ثمانية كانـت غرفتي في طرف العنبر من جهـة باب الدخول، وأحياناً أقف علـى نافذة الباب، أشاهد الجنود يلعبون الورق، أو يتحدثون، أو يقرؤون الجرائد والمجلات، وهذا غير مسموح به للجنود؛ لأنهم كانوا يخفونها حين يحضر المسؤول.

كانت معاملتهم لنا في الأسبوع الأول هادئة، إذ كان يتناوب على حراستنا في كل يوم (٢٤) ساعة ثلاث مجموعات، كل مجموعة ثماني

ساعـات، وهذه المجموعات لا تأتـي عندنا كل يوم في وقت معين، بل ربما يمر الأسبوع والأسبوعان حتى يرجع بعضها إلينا،كان الخروج إلى المشي والرياضة والاستحمام مرتين كل أسبوع،تخرج مقيداً إلى ساحتـين في مؤخرة العنبر المقابل لباب الدخول، وهما ساحتان لكل عنبر بجانـب بعضهما،كل ساحة من هاتـين الساحتين المتجاورتين محاطة بالأسلاك المشبكة من كل الجهات،وحتى السقف.

وبجانـب هذه الساحة حمـام اغتسال،سعة الساحة (١٠-١٥) متـراً طولها، والعرض مثـل ذلك، تدخلها الشمـس والهواء من كل الجهـات، لك الحرية في أن تمشي بها أو تهـرول أو تركض أو تلعب التماريـن الرياضيـة أو تجلس، وقد مرت أوقـات يقدمون كرة قدم لأصحـاب الدرجـات الأولى عندما استحدثت الدرجـات في عنابر السجـن، وربمـا يسمـح لك بالـكلام من هـذه الساحة مـع العنبر المجـاور، الساحـة الواحـدة لا يوضع فيهـا إلا سجـين واحد، بعض الحراس لا يسمح لك بالكلام مع العنبر المجاور، ويقول لك: الكلام مع الآخرين مخالف لقوانين السجن.

الخـروج إلى هـذه الساحة من غرف السجـن، تكون مقيداً في اليديـن والرجلـين والخصـر، ومن حسنـات معسكـر جوانتنامو - كوبـا - أنه لا غطـاء للرأس أو العينين في هـذا السجن، أي أن كيس الرأس غير موجود.

الرياضة والاغتسال

إن الذهاب إلى الساحة الرياضية مرتين في الأسبوع أمر متعب للسجين، مع أن السجين يحب هذا الخروج، ولو كان هذا الخروج فيه تعب، فالخروج كل ثلاثة أيام مرة؛ لأن العنبر فيه (٤٨) سجينًا، وكل يوم يخرج الحراس (١٦) سجيناً، ثمانية في الصباح وثمانية في المساء، يبدأ الخروج صباحاً من الساحة (٨) إلى (١٢) أي حتى وقت الغداء، فيأتي الشفت الثاني، الوردية الثانية الساعة (٢) بعد الظهر، يخرجون السجناء الثمانية، من الساعة (٢) إلى غروب الشمس، نادراً جداً أن تغرب الشمس قبل الانتهاء منهم.

عندما تأتي نوبتك للخروج إلى الرياضة يدق عليك الحارس، فتستعد، والحارس ينظر إليك من نافذة الباب الصغيرة، ولا يمكن أن يفتح عليك الباب حتى تستعد، والاستعداد يكون بالجلوس على ركبتيك على الأرض، وتضع يديك خلف رأسك فوق بعضهما،

فظهـرك يقابل باب الزنزانة وأنت في هـذا الوضع يفتح الحارسان عليـك الغرفـة، ويدخلان بسرعـة، أحدهما يمسـك بمنكبك باليد الأولى، ويمسك باليد الثانية على يديك.

أمـا الحارس الثـاني فيقوم بتقييد رجليك مـن الكعبين بسلسلة تصـل بـين كعبيك، طولها نصف مـتر أو يزيد قليـلاً، كل كعب يقيد بحلقـة ليسـت ضيقة كثيراً علـى رجليك، لكنها لا تخـرج من رجلك تتحـرك داخـل الرجل قليـلاً ويقفل الحلقة بمفتـاح صغير ومن هذه السلسلـة التي تصـل بين كعبيك تخرج من منتصفهـا سلسلة تتصل بسلسلـة يربط بها الحارس خصرك بقفل من جهة ظهرك، ثم تمتد السلسلة ويسحبها الحارس من بين رجليك، وأنت جالس على ركبتيك علـى الأرض إلى جهة الأمام نحو السرة تقريباً، طرف هذه السلسلة الآن فيـه حلقتان على شـكل T بالإنجليزية، كل حلقة تبعد عن أختها (١٠-١٥) سم، يأخذ الحارس إحدى يديك ويضعها في الحلقة الأولى ويغلق الحلقة بمفتاح صغير، ثم يأخذ اليد الثانية ويضعها في الحلقة الثانية ويقفل عليها بمفتاح صغير أيضاً داخل اليد.

حلقـة اليد مثـل حلقة الكعـب تتحـرك- الرسغ- لكـن ليست مشدودة تماماً على اليد، لكنها لا تخرج من اليد طبعاً.

الآن أنـت مقيـد لا تستطيع النهوض وحدك، يقـوم الحارسان بمساعدتـك في الوقـوف ويكون الحـذاء الحفيـف- الشبشب- في رجلـك مسبقـاً، كل حارس يقف من جهة، واحـد جهة اليمين وآخر جهـة الشمـال، الواحد منهـم يمسك بـك بكلتا يديـه، اليد الأولى يمسـك بهـا كتفك، واليـد الثانية يمسـك بالسلسلـة الموجودة على خصـرك، وتمشي إلى خـارج غرفتك ويقوم الحارسـان بتفتيشك، وكل حارسـ يفتش الجهة التي يقف فيهـا الواحد بعد الآخر، يفتش ثيابك وجسدك حتى أماكن العورة، من الأمام والخلف.

بعض الجنود ربما يفعل هذا وبعضهم يفتش بعيداً دون أن يقترب مـن العورة، ويقـوم الحارس بنفضـ وتحريك قميصـك أو بنطالك الذي تلبسه، ويفتش حتى الحذاء- الشبشب الذي تلبسه -يقوم بطيه والتدقيق والتحسس عليه، إنه يفتش حتى شعر رأسك وشعر لحيتك، إنه يفتش طيات القميص أو البنطال يهزه ويرفعه وينزله حتى تنتهي عمليـة التفتيش بسلام، وكم أثار تفتيش أماكن العورة من مشكلات بين السجناء والحرس، وإذا وجد بين الحراس مجندات وكان المكلف بنقلك إلى التحقيق أو إلى الرياضة رجل وإمرأة يقوم الرجل بالتفتيش من الجانبين دون تدخل من المرأة.

وكثـير من السجنـاء لا يوافـق علـى الخـروج إلى التحقيق أو الرياضـة مع امرأة، فيخسر المشي والخـروج للشمس أو الاغتسال، تنتهـي عملية التفتيش ويمشـي السجين بين الحارسـين إلى ساحة المشـي التي سبق ذكرهـا، يجلس السجين علـى ركبتيه لفك القيود

كما جلس في غرفته، عندما قيدوه يقوم أحد الحارسين بالإمساك بإحدى يديه على كتفك واليد الأخرى على رأسك.

يقوم الحارس الآخر الآن بفك القيود عن جسمك، بحيث يفك أولاً قيد الرجلين ويحمل السلسلة بيده إلى جهة ظهرك، حيث توجد سلسلة على خصرك، مقفلة من جهة الظهر بقفل يفكه ثم يسحب السلسلة من بين رجليك إلى جهة الأمام، جهة يديك المقيدتين لكن حركتهما الآن إلى أعلى أو أسفل سهلة ثم يرفع يديك المقيدتين، فوق رأسك فيفك اليد الأولى من الحلقة ويضعها على رأسك، يقوم الحارس الأول الذي يمسك بكتفك ورأسك، بوضع يده على يدك الموجودة على رأسك، ثم يقوم الحارس المكلف بالفك بفك اليد الثانية، ويضعها لك على يدك الأولى الموجودة فوق رأسك، فيقوم الحارس الأول بوضع يده على كلتا يديك الموجودتين على رأسك، الحارس المكلف بالفك يحمل السلسلة بيده ويرجع إلى الخلف إلى جهة باب الشبك الذي يحيط بمكان الرياضة.

الآن الحارس الذي يمسك بكتفك ويديك يرجع القهقري خطوة خطوة بعد أن يترك كتفك ويديك، يرجع إلى باب الساحة الرياضية ووجهه جهة السجين ووظهره جهة الباب، لا يسمح لك الآن بعد فك القيود بأي حركة حتى يغلق الحارسان باب الساحة الرياضية المشبك، وعندها يطلبان من السجين أن يقف ويمشي أو يهرول كما يشاء، ولو تحرك السجين بعد فك القيود وقبل أن يخرج الحارسان من الساحة الرياضية ربما تعرض للضرب منهما أو يمسكان به أو يجلسان عليه؛ لأن هذا يعد محاولة لضربهما والاعتداء عليهما، أو يُعد محاولة للهرب.

إن هذه المحاولة تعرض السجين للعقوبة، فيسمح للسجين بعشرين دقيقة يمشي أو يهرول حسب رغبته، قد تزيد قليلاً أحياناً، إذا انتهى وقت المشي يجلس السجين، كما جلس عند أخذه من غرفته للمشي ويقيدونه هنا كما قيدوه هناك، ثم يخرجانه من ساحة المشي إلى حمام الاغتسال، الذي يبعد خمسة أمتار تقريباً عن باب الساحة الرياضية، إذا أدخل إلى الحمام يجلس كما جلس في ساحة الرياضة، ويقوم الحراس بفكه هنا كما فكوه هناك، يغلق عليه الحراس باب حمام الاغتسال، فالمكان للاغتسال فقط وليس لقضاء الحاجة، باب الحمام مشبك ربما يضع السجين منشفة أو بنطاله على الشبك إن أراد وقت الاغتسال؛ حتى لا يراه أحد.

أما مدة الاغتسال فهي خمس دقائق قد يزيدها بعض الحراس، لكن المدة القانونية هي خمس دقائق، يحدث أن بعض الحراس يشدد على السجين، وربما أغلق عليه الماء قبل الانتهاء من الاغتسال، والصابون على جسمه؛ لأن التحكم في الماء فتحاً وإغلاقاً من الخارج بيد الحراس وليس بيد السجين، بعض الحراس قد يفتح لك الماء دقيقة أو دقيقتين؛ ليكمل السجين الاغتسال.

وبعض الحراس لا يوافق على فتح الماء، يقول لك: القانون خمس دقائق، ولو لم تكمل اغتسالك، الحارس يقدم لك الصابون- قطعة صغيرة- والشامبو كمية قليلة وبعضهم يعطيك أحياناً العلبة تستعمل منها ما تشاء، يقدم لك الحارس شفرة الحلاقة كل أسبوع مرة؛ لإزالة ما تريده من الشعر، بعض السجناء يحلق لحيته وهم قلة جداً .

حدث أكثر من مرة أن تأخر تقديم الشفرة للسجناء، فنسأل عن السبب فنجد أن بعض السجناء استعمل الشفرة استعمالاً غير جيد، أراد أن يمثل على إدارة السجن أو أراد أن يخوفهم، يظهر أنه يريد أن ينتحر فيجرح يديه أو رجليه بهذه الشفرة، فيخرج الدم من جسمه، بعض السجناء حالته النفسية صعبة لا يدرك ما يفعل عندما يجرح نفسه، ربما يريد أن ينتحر فعلاً وبعضهم يريد طلبات معينة من إدارة السجن، وبعضهم الآخر عليه ضغوط معينة من إدارة السجن، أو من التحقيق، فيقوم بجرح نفسه؛ ليرفع هذه الضغوط عن نفسه؛ ليقابل هذه المشكلات والضغط الواقع عليه؛ ليهرب منها أو. . .

وإذا انتهى الحمام أغلق الحارس عليك الماء، ثم تجلس على أرض الحمام على ركبتيك للربط والتقييد، كما جلست في غرفتك عندما خرجت للمشي، أو كما جلست في مكان المشي تخرج من

الحمام؛ لكي ترجع إلى غرفتك، تصل الغرفة، تجلس على ركبتيك في الغرفة في آخرها مقابل الباب، قريباً من مكان (قضاء الحاجة) لفك القيود والسلاسل عن جسمك، ثم يخرج الحارسان كما ذكرت من قبل.

إن هذه العملية من الربط بالسلاسل، ثم فكها تحدث في كل مرة يخرج السجين فيها للاغتسال والمشي والرياضة، ثلاث مرات للربط والتقييد، وثلاث مرات للفك والحل لهذه السلاسل، مع أن الخروج للاغتسال والمشي مرتان في كل أسبوع.

انتهى الأسبوع الأول من وصولنا إلى كوبا، وبعد ثمانية أيام من وصولنا، جاء الحارس وقال لي: اجمع أغراضك ستنتقل، ثم سلمني كيساً بلاستيكياً وضعت فيه جميع أغراضي إلا المصحف وضعته داخل المنشفة لحمله بيدي، عملية النقل لا تتم إلا بالتقييد والسلاسل، تجلس في غرفتك على ركبتيك وتقيد بالسلاسل كما تقدم، حملت المصحف بيدي وسرت إلى العنبر الجديد مشياً على الأقدام، وحارس عن يميني يمسكني بيديه، إحدى يديه على منكبي والأخرى يمسك بها السلسلة الحديدية الملتفة على خاصرتي، والحارس الآخر على الجانب الآخر يفعل مثله، كان العنبر الذي انتقلت إليه قريباً، فوصلت إلى العنبر الجديد، إنه يختلف عن العنبر الذي كنت فيه، العنبر الجديد مستطيل الشكل، عبارة عن عنابر

بجانب بعضها (٤-٥) عنابر، كل عنبر يتكون من (٤٨) أو (٤٦) أو (٢٤) غرفة، نصف هذه الغرف في جانب ونصف الغرف الآخر، في الجانب الآخر مقابلها يفصل بينهما (بهو) كرادور، كل صف من هذه الغرف ملتصق ببعضه والكرادور من أول الغرف إلى آخرها يمشي فيه الحراس والجنود لمراقبة السجناء ولتقديم الخدمات لهم، يفصل بين العنبر والعنبر الآخر مسافة (٣-٥) أمتار.

ويوجد شبك بين كل عنبرين، يرتفع (٣) أمتار تقريباً مغطى بالقماش أو الشادر، وجدران الغرف من جميع الجهات الأربعة مشبكة بشبك صغير كل شبك (٣-٤) سم طول × عرض، إلا الجهة الخلفية، نصفها الأسفل مغلق وليس شبكاً لستر مكان قضاء الحاجة، أما سقف الغرفة فمغلق تماماً بسبب الشمس أو المطر، شبك الغرفة من الجهات الأربعة يسمح بالرؤية ودخول الشمس والهواء ومرور بعض الحاجات الصغيرة بين كل غرفتين ينقلها السجناء سراً بين بعضهم سواء أكانت طعاماً أو غيره.

باب الزنزانة من جهة الكرادور- بهو- مشبك أيضاً، وفيه نافذة صغيرة لتقديم الطعام أو الدواء أو... منها للسجين، كل غرفة فيها متطلبات واحتياجات السجين الضرورية، سرير مثبت بين جدران الغرفة، يرتفع عن الأرض قرابة المتر والربع، وفي الغرفة مكان لقضاء الحاجة ومغسلة صغيرة وحنفية ماء للشرب أو

الوضوء، وطبعاً جميع أغراضك التي كانت معك في العنبر السابق انتقلت معك إلى هذا العنبر، كان رقم غرفتي (٢٥) أي آخر غرفة من العنبر، يقابلني غرفة رقم (٢٤).

ومثل هذه الغرف، كذلك رقم (١) أو رقم (٤٨) لا يرغب فيها السجناء؛ لأنها منعزلة جانبية، ليست مثل الغرف الموجودة في وسط العنبر؛ لأنها غرف حولها غرف، وأمامها غرف، فيستطيع السجين أن يتكلم مع المسجونين عن يمينه أو يساره أو أمامه، لكن الغرفة التي سكنت فيها تشرف على مكان الرياضة والمشي وأماكن الاغتسال، وهي غرفة تقع طرف العنبر، تدخلها الشمس صباحاً؛ لأنها جهة المشرق، فكنت أرى البحر الذي يبعد مئات الأمتار عن العنبر، عندما دخلت هذا العنبر بدأ السجناء يرحبون بالقادم الجديد ويشجعونه ويسمعونه كلمات المدح والثناء والتثبيت، وهي كلمات تقال عندما يأتي سجين جديد على العنبر، أو كلما غادر سجين عنبره إلى عنبر آخر.

بعد يوم من وصولي إلى هذا العنبر، وبعد أن خرجت إلى المشي والاغتسال ورجعت إلى غرفتي، جاء الحراس لأخذي إلى التحقيق، لا بد من التقييد بالسلاسل والتفتيش، كلما خرجت من غرفتك، سواء للتحقيق أو الاغتسال والمشي، وقد ذكرنا قبل ذلك كيف تكون عملية التقييد والتفتيش، لا بد أيضاً من تفتيش غرفة السجين

وأغراضه كلما خرج السجين من غرفته، أماكن التحقيق عادة قريبة من غرف النوم، تذهب إليها ماشيًا، وبعض العنابر البعيدة يذهبون إلى مكان التحقيق بالسيارة الصغيرة.

دخلنا إلى غرفة التحقيق، والأسئلة بدأت عن السيرة الذاتية منذ ولادتك حتى تم إلقاء القبض عليك، وتطرق المحقق لبعض الأسئلة الأخرى فيما إذا كنت أعرف تنظيم القاعدة أو أحدًا من أعضائه، قلت له: أنا أعيش في باكستان، وهؤلاء الذين تسألني عنهم في أفغانستان، سألني عن بعض أسماء عائلتي وعملهم وسكنهم، قال: هل تريد أن تسأل شيئاً؟ قلت له: لماذا أنا هنا وكم سأبقى؟ قال: ستبقى مدة طويلة؛ لأن التحقيق يتطلب هذا، والقضية كبيرة ولا بد من التأكد والتثبت من كل معلومة يقولها المسجون، قال: جيرانك في العنبر من أين هم؟ قلت: حولي أشخاص من العجم وأمامي أشخاص عرب من اليمن والسعودية والعنبر فيه جنسيات مختلفة.

قال: عن أي شيء يتكلمون؟ قلت: أنا بعيد عنهم، أنا في آخر العنبر، إنهم يتكلمون كثيراً وفي موضوعات شتى، يتسامرون، يتلون القرآن، يصلون، يتكلمون عن عادات وحوادث في بلادهم، فماذا سوف يتكلمون؟! قال: هل تتكلم مع جارك؟ قلت: إنه أعجمي لا يعرف اللغة العربية، كيف سأكلمه؟ قال: إذا سمعتهم في العنبر يتكلمون عن أمور مهمة تضر بالسجين أو بإدارة السجن تخبرنا

عنه، قلت: حسناً، أقول: سمعت أنه يوجد فيهم من يخبركم بما يجري في العنابر، لا حاجة لكم بي، وسمعت أن العنابر يوجد بها أجهزة للتنصت على السجناء ولا أدري عن صحة هذا الخبر، انتهت الجلسة ورجعت إلى الغرفة.

أما الكلام في كل عنبر أو صوت الأذان، فكل عنبر فيه مؤذن يختاره السجناء يؤذن لكل وقت، أما الكلام، فمسموح به داخل العنبر الواحد بين السجناء، تكلم من تشاء في داخل العنبر الذي تسكن فيه، وبصوت مرتفع، أما الكلام من عنبر إلى آخر، فغير مسموح به، وربما يعرضك للعقاب غالباً، لكن بعض السجناء يتكلمون من عنبر لآخر ولا يلتفتون إلى العقاب، أما صلاة الجماعة، كما هي في المساجد، فغير ممكنة في داخل السجن؛ بسبب طبيعة بناء السجن؛ لأن كل سجين في غرفة منفصلة عن غيره، لكن كنا نصلي جماعة وكل سجين في غرفته يتوجه إلى القبلة والإمام يكون في مقدمة العنبر، متوجهاً إلى القبلة في غرفته، ويرفع صوته كما يشاء؛ حتى يسمع أكبر قدر من السجناء.

أول الأسرى وصولاً إلى كوبا

إن الكلام في السجن في بداية مدة السجن وكذلك الأذان، أو حتى الوقوف في داخل الزنزانة كان غير مسموح به، هذه الأمور كانت ممنوعة في بداية السجن الذي كانوا يسمونه إكستري(extray) وهو أول سجن بني في قاعدة جوانتنامو العسكرية في جزيرة كوبا لمن يطلقون عليهم اسم الإرهابيين من أسرى تنظيم القاعدة وطالبان، سمعت من بعض من دخل هذا السجن (إكستري) وهي أول مجموعة من الأسرى تصل إلى كوبا، قال: كانت رحلة شاقة مليئة بالعذاب، بعضهم جلس شهراً كاملاً، حيث تم نقلهم في سفينة، وبعضهم وصل في الطائرة، حيث تعرضوا للضرب عند وصولهم إلى جزيرة كوبا.

سمعت من بعضهم أن هذا السجن لم يكن مجهزاً بكل ما يلزم السجين، كان كل سجين في غرفة منفصلة، وفي داخل غرفته (سطل)

وعاء بلاستيكي فيه ماء للشرب أو الوضوء أو . . . ووعاء آخر (سطل) لقضاء الحاجة، وهم يسمونها «رقم (١) ورقم (٢)، كان لا يسمح لهم بالوقوف أبداً، كانوا طيلة الوقت جلوساً، الحارس يأمرهم بالجلوس وعدم الوقوف وعدم الكلام وعدم الأذان ما كان أحد منهم يجرؤ أن يصلي واقفاً إلا خلسة وبسرعة؛ حتى لا يراه الحارس، لكن بدأ السجناء يخالفون نظام السجن شيئاً قليلاً، دون أن يستجيبوا لأوامر الحرس، بدؤوا يقفون ويتحركون داخل الزنزانة، بدؤوا يصلون واقفين، بدؤوا يتكلمون مع بعضهم بعضا، وهكذا تغيرت الأحوال عندهم إلى الأحسن.

بعد أيام جاء الحراس، وقالوا لي: عندك تحقيق، قلت: جاهز تم التقييد بالسلاسل كما سبق، وصلت إلى غرفة التحقيق، وجدت فيها شخصاً واحداً، جلست على الكرسي بجانبي طاولة، عليها بعض الشوكلاتة الصغيرة والبسكويت والتمر والحلوى الصغيرة، قال: تفضل كُلْ، قلت له: شكراً، أخذت شيئاً قليلاً، هذه الحلوى لا توجد في السجن، نادراً جداً أن تراها، إنه يتكلم اللغة العربية بطلاقة إنه عربي، وليس غربيّاً، قال لي: أنا باحث اجتماعي زرت مصر وكثيراً من البلاد الإسلامية، أكتب عن الإرهاب والتطرف قلت له: جيد، قال: لو تسمح لي أن أسأل بعض الأسئلة، قلت له: تفضل، كان بجانبه حقيبة متوسطة وأمامه مصحف شريف كبير الحجم طبعة المدينة المنورة، سألني عن سيرتي الذاتية ودراستي والأماكن التي اشتغلت فيها مدرساً وسألني عن التطرف والإرهاب وهل يجبر الإسلام غير المسلمين على اعتناقه أو الدخول فيه.

قلت له: إن الإسلام ما جاء ليجبر الناس على الدخول فيه، ومن كان له رغبة في الإسلام دخل فيه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والإسلام يحبب الناس فيه بالدعوة الحسنة والكلمة الطيبة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). المسلم يعرض الإسلام على غير المسلم، إن أحب وأراد، ويناقشه بأحسن الأساليب وألينها وأسهلها، ولا يرفع عليه السيف ويهدده ويخبره إما أن تسلم وإما أن أقتلك، قال: هذه آية في القرآن؟ قلت له: نعم، قال: أين؟ قلت له: في سورة النحل في مكان كذا، فتح المصحف وسجل رقم الآية والسورة، إن الإرهاب أو التطرف أسماء وأوصاف ألصقها الناس بالإسلام، لكن الإسلام منها براء، إن أزهى عصور الإسلام هي التي كان يعيش فيها الكثير من غير المسلمين وكانت حقوقهم ودور عبادتهم محفوظة ومحترمة، لا يستطيع أحد أن يعتدي عليهم، كان هذا الباحث يكتب ويسجل كل ما يسمعه، أنهى الجلسة وشكرني وانصرف وجاء الحراس وأرجعوني إلى غرفتي.

بعد أيام جاء الحراس، وقالوا لي: عندك تحقيق، ربطوني بالسلاسل، وسرت معهم إلى غرفة التحقيق، في غرفة التحقيق

يفـك الحراس قيد اليدين، لكنهم يربطـون سلسلة القدمين بحلقة مثبتـة في أرضـ الغرفـة، هـذا دائمـاً في كل مرة ذهبـت فيها إلى غرفـة التحقيق، جـاء المحقق شخصـ واحد يلبسـ اللباس المدني لا يعـرف العربيـة، قلت له: لو تحضر مترجماً، قـال لي: هل تعرف الإنجليزية؟

قلـت: قليلاً، قال: هذا يكفي، أنا أفهـم عليك، قلت: لكن أنا لا أستطيـع أن أفهمك جيداً أو لا أستطيع أن أوصل إليك ما في نفسي؛ لأننـي لا أعرف الإنجليزية جيداً، فمعرفتـي بالإنجليزية قليلة منذ أيـام المدرسة، قال: هذا يكفي سـوف أفهم، بدأ يسألني عن حياتي وبعضـ أقربائي وعن دراستي، حتـى خرجت من فلسطين، وهل لي أصحـاب خارج فلسطين في أوروبـا وغيرها، سألني هل تعلم أسماء أغنياء خارج فلسطين يرسلون أموالاً إلى الناس في فلسطين؟

قلت له: أنا غادرت فلسطين منذ عشرين عاماً تقريباً، قبل أن تبـدأ الانتفاضة، وقبل أن تبـدأ التفجيرات والمصادمات بين العرب وإسرائيـل، يبدو أنه كان يريد أن يعرف هل لي صلة بما يجري الآن في فلسطـين؟ قال: هل يعيش أهلك في فلسطـين الآن؟ هو يعبر عن فلسطين بإسرائيل، يقول: داخل إسرائيل، يعني داخل فلسطين، قلت له: نعم يعيش أهلي في فلسطين الآن، قال هل ترسل لهم أموالاً؟ قلت لـه: أنا لست غنياً، أنا لا أستطيـع أن أرسل لهم أموالاً إلى الداخل، ثـم هم ليسوا بحاجـة إلى الأموال، كانت الجلسـة قصيرة، رجعت بعدها إلى غرفتي.

بعـد أيـام قليلة طلبوني للتحقيـق، ذهبت، لا أذكـر الأيام، ولا التواريـخ لهـذه الأيام؛ لأنـه لا يوجد داخل السجـن أي شيء تعرف به الأيـام والتواريخ والشهـور، الورقة و القلم ممنوعـان، أي كتابة يعـثرون عليهـا في غرفتك سـواء على ورقة أو على أرضـ الغرفة أو جدرانهـا أو علـى السريـر، يصورونها ويترجمونهـا ويحللونها، ثم تكـون أنت المسؤول عنها يستجوبونـك عنها وربما يفتحون لك عنها تحقيقاً، دخلت غرفة التحقيق، جلست، دخل المترجم وأظنه لبنانيًّا عرفته بلهجته يلبس اللباس العسكري.

أما المحقق فكان المحقق القديم، أعاد علي بعض أسئلة الجلسة السابقـة، وأسئلته كلها تدور حول فلسطـين، وما يجري فيها، أنا لا أدري إن كان هذا المحقق أمريكياً يهتم بالشؤون الفلسطينية، أم هو إسرائيلـي يحقق معي، بصفتي من مواليـد فلسطين وعشت نصف عمـري تقريبـاً في فلسطين، كل ذلـك جائز، سألنـي: هل يمكن أن يعيشـ العرب وإسرائيل في أرض واحدة متجاورين من دون قتال أو من دون مشكلات، كما تعيش الكثير من الديانات المختلفة في أرض واحـدة؟ قلت له: يمكن إذا ضمن كل طـرف حقوق الطرف الآخر، قال: لو زرتك في بيتك، هل يمكن أن تستقبلني؟

قلـت له: نعـم إن الإسلام لا يمنع ذلك، قـال: أنا أمريكي غير مسلـم، فأنا مسيحـي، ولي صديق مسلم، هل تصـدق أنني عندما أسافـر خارج أمريكا لا أجد أحـدًا أأتمنه على زوجتي وأولادي غير هــذا الصديق المسلم، إن لي أصدقاء وأقـارب كثيرين أرسلهم إلى بيـت هذا الصديق؛ ليحافـظ لي عليهم، في أثنـاء غيابي، قلت له: إن والـدي تاجر متوسط الحـال يشتري بضاعـة في بعض الأحوال مـن تجار يهـود إسرائيليين، مـن حيفا ومن تل أبيـب، ولقد اتصل بـي بالتلفون من عند هؤلاء التجـار أكثر من مرة، له أصحاب تجار كثـيرون يتاجر معهـم، يشتري منهـم ويبيع لهم، الحيـاة والمبادلة التجارية بينهم عادية، انتهت الجلسة ورجعت إلى زنزانتي.

اقترب موعـد شهر رمضان لعام ٢٠٠٢م قامـت إدارة السجن قبيـل شهر رمضــان بعملية نقل وتغيـير لأماكـن المسجونين، شمل النقل جميع المسجونـين وكان النقل من عنبر إلى آخر، بحيث إنهم كانوا يجمعون كل جنسية من الجنسيات الموجودة في السجن بجانب بعضها عرباً كانت هذه الجنسية أم عجماً، أما الجنسيات الموجودة في السجـن، فهي كثـيرة، سمعت مـن بعضهم أنها ثـلاث وأربعون (٤٣) جنسية من جنسيات العرب والعجم من دول عربية إسلامية وإسلاميــة غير عربيــة ومن دول غير عربية وغـير إسلامية. توجد جنسيــات من دول أوروبية،مـن أستراليا، وروسيــا، والصين وأكثر الجنسيــات وجوداً هي الجنسيــة السعودية واليمنيــة والباكستانية والأفغانيــة، هــذه الجنسيــات الأربعـة تشكل نصـف المسجونين في جزيرة كوبا.

استبشـر المساجين خيراً بهذا النقل وهذا التجميع، كل جنسية بجانـب بعضهــا؛ لأن بعض الناس نقـل أخباراً مفادهــا: إن إدارة السجـن ستجمـع كل جنسية مع بعضهــا بعضاً، ثم تقـوم بتصفية المعتقلـين الذين لا علاقة لهم بتنظيم القاعدة وطالبان، وبعد ذلك سيتـم الإفراج عن أكبر عدد مـن المسجونين في هذه الجزيرة، ولن يبقـى في هذه الجزيـرة إلا عدد قليـل من المعتقلـين (١٠٠-٢٠٠) شخـص تقريبــاً، والبقية سينقلـون إلى مكان آخر قريبــاً من هذه الجزيـرة - كوبا-، يجلسون فيــه مدة من الزمن قبـل أن ينقلوهم إلى بلادهم.

إن السجين ينتظر أي خبر يتعلق بالإفراج عنه، فإن كان الخبر صحيحاً حمد الله -عـز وجل-، وإن كان غير ذلك حاول أن يفسره التفسـير الذي يفرح به ويزرع الأمل في نفسه، لكن مرت الأيام دون أن يـروا تجسيـداً وتطبيقاً لما سمعوه، صحيـح أن أناساً خرجوا من السجن لكن بأعداد قليلة، ولما خرجت أنا من رهن الاعتقال والأسر، بعد ٢٦ شهراً، مع أحد عشر سجيناً فيهم العرب وفيهم العجم كنت أنا الرقم الحادي عشر أو الثاني عشر من العرب المفرج عنهم؛ لأن

العرب المفرج عنهم أقل بكثير من أعداد العجم. . .من الباكستان أو الأفغان... أو غيرهم، لقد كان أول المعتقلين المفرج عنهم من جزيرة كوبا، بعض الأفغان، ثم جاء بعدهم بعض العرب، لكن ليست أعدادهم كثيرة مثل غيرهم.

لقد سمعت من بعض المسجونين أن أحد المحققين قال له: إن الذين ثبتت عليهم تهمة الانتماء إلى تنظيم القاعدة وطالبان من كل العرب والعجم الموجودين في جزيرة كوبا، حتى الآن خمسة فقط، والله أعلم بما قال، ثم قال له: إن العرب ليسوا كغيرهم ولا يجرؤ أحد من المسؤولين الأمريكان أن يوقع على إخراجهم، وذلك لأن العرب هم أصل هذه القضية والحملة وأساسها، إنهم العمود الفقري في الأحداث التي وقعت، سواء التي وقعت في أفغانستان، أو التي وقعت في أمريكا أو في اليمن أو إفريقيا أو غيرها، حيث الاعتداء على السفارات والمصالح الأمريكية، إنهم يخشون أن يطلقوا سراح بعض هؤلاء الأسرى، فيعودون للقيام بعمليات عدائية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، إن قسماً كبيراً من السجناء العرب بريئون ولا علاقة لهم بتنظيم القاعدة وحركة طالبان، حتى الذين ألقي القبض عليهم في أفغانستان أو على الحدود في باكستان، كثير منهم سمعوا بالجهاد الأفغاني وبالإمارة الإسلامية في أفغانستان، فتحمسوا ليروا بأم أعينهم ما سمعوا، أو ليشاركوا في

هذه الإمارة دون أن يخطر ببالهم أسامة بن لادن أو تنظيم القاعدة الذي يرأسه، ما كان يخطر ببالهم أن يقوم أسامة بن لادن كما هو منتشر ومشاع بين الناس بضرب مبنى التجارة العالمي المكون من عمارتين في نيويورك، أو بضرب وزارة الدفاع في واشنطن، ما كان هؤلاء الشباب الذين وفدوا على أفغانستان يظنون ولو ظناً ١٪ أن تأتي أمريكا في يوم من الأيام لتضرب أفغانستان، وتطالب باستلام أسامة بن لادن، ثم تقوم هذه الحرب الضروس غير المتساوية وغير المتكافئة في كافة المجالات.

ثم يقع هؤلاء الشباب بيد قوات التحالف الأفغاني الشمالي، أو بيد الحكومة الباكستانية، ثم يقوم هؤلاء بتسليمهم أو بالأحرى والأصح ببيعهم للقوات الأمريكية، ثم يتهم هؤلاء الأسرى بأنهم أعداء الأمريكان ويريدون تدميرها وإحلال الإسلام مكانها، ما كانوا يظنون أن تقوم البلد- أفغانستان التي استقبلتهم وآوتهم، بل وسكب الكثير منهم، دمه على أرضها وسقطوا مجندلين شهداء لحمايتها وضمت أرضها قبور الكثيرين منهم ولا تزال قبورهم شاهدة وبارزة فيها.

ما كان يظن هؤلاء أن يقوم هذا الشعب بقتلهم ومطاردتهم والبحث عنهم وتسليمهم وبيعهم بثمن بخس ليصبحوا عبيداً يباعون في سوق النخاسة العالمية، وليصبحوا أسرى بيد أناس ما

كانوا يظنون أنهم يرونهم في يوم من الأيام بأم أعينهم، أو يلتقونهم في أي مكان في الأرض، ما كان يخطر ببال هؤلاء الشباب أن يصبحوا أسرى في يد القوات الأمريكية، ربما كان يخطر ببالهم أن يقعوا أسرى بيد القوات الأفغانية الحكومية الشيوعية، أو في أيدي القوات المسلحة الروسية، أو أن يسقطوا صرعى شهداء بيد هذه القوات، أما أن تقوم هذه الدول التي آوتهم ودافعوا عن أرضها وشعبها وأعراضها ودينها، مثل باكستان وأفغانستان بتسليمهم إلى القوات الأمريكية، فما كان هذا يخطر ببالهم أبداً، إن لسان حال هؤلاء الأسرى يقول:

وظلمُ ذوي القربَى أشدُّ مضاضةً ... علَى النفسِ منْ وقعِ الحسامِ المهنَّدِ

إن حال هؤلاء الذين يعيشون في أقفاص معتقل جوانتنامو وصناديقه في كوبا التي تبعد عن مكة المكرمة أكثر من ثلاثة عشر ألف كيلو متر، إن حالهم يقول:

ولَو كانَ سهماً واحِداً لاتقيتُهُ ... ولكنَّه سهمٌ وثانٍ وثالثُ

إنهم يعيشون في أرض الأعداء والبعداء، أرض الغرباء، لا يعرف أحد عنهم شيئاً، ولا يسمح لأي وسيلة إعلامية أن تنقل ما يجري في هذه الجزيرة النائية إلا ما يمر من تحت سمع الأمريكان وبصرهم.

قصص اعتقال الأسرى

سمعت من بعضهم كيف كانت عملية اعتقاله وأسره، لما قامت الحرب في أفغانستان فرَّ قسم من هؤلاء من أفغانستان إلى باكستان، فقد كانت الحدود الباكستانية مشحونة بالحراس والجنود الباكستانيين، وكنا نشاهد هذا على شاشات التلفزيون قبل اعتقالنا. لقد أسرتهم القوات الباكستانية وأودعتهم معتقلاتها، والذي نجا من الحراس والجنود أسرتهم القبائل الباكستانية الحدودية، لقد خدعتهم هذه القبائل، رحبت بهم في البداية وأكرمتهم بالمبيت والطعام وطمأنتهم بالأمن والحماية وأنهم سيقدمون لهم ما يستطيعونه لإيصالهم إلى بلادهم، سمعت أن بعض القبائل ذبحت لهم الذبائح، أدخلتهم إلى مضايفهم التي زينوها بصور المجاهدين وقاداتهم وصور الآليات والدبابات المدمرة.

لكـن بعد يومـين استيقـظ هـؤلاء الشبـاب فوجـدوا أنفسهم محاطـين بقوات باكستانيـة، قيدتهم وأودعتهـم السجن، ثم بدأت تأخذ استبيانات ومعلومات عنهم، وأخبرتهم أنهم سوف يسلمونهم إلى سفـارات بلادهـم في إسلام آبـاد، أحضرت لهـم بعض رجال الصليـب الأحمر الذي أخبرهم إن أرادو أن يكتبوا رسائل لأهاليهم يخبرونهـم فيها أنهم سوف يعودون إلى بلادهم قريباً، وأخذ منهم مختصرًا عن السيرة الذاتية لكل واحد من هؤلاء.

قسـم من الفارين مـن أفغانستـان إلى باكستـان استطاع أن يصـل إلى لاهـور وكراتشـي وغيرها مـن المـدن الباكستانية، لكن الشرطة الباكستانية لا تستطيع أن تجمع هؤلاء كلهم بهذه الطريقة السهلة والسريعة، إنما كانت هنالك إغراءات مادية لكل من يقبض على عربي ويسلمه إلى الشرطة الباكستانية، وهؤلاء سوف يسلمونه إلى الأمريكان، لقد طالت عملية اعتقال من كان في أفغانستان وفرَّ إلى باكستان، بالإضافة إلى عدد من العرب الذين كانوا يقيمون في باكستـان، بإقامات وجوازات صحيحة وعندهـم أعمال بمؤسسات إغاثية رسمية تعمل في باكستان لا علاقة لها أبداً من قريب أو بعيد بما جرى في نيويورك وواشنطن.

لقد كانـت الطائرة التـي حملتنا من بيشـاور إلى بجرام وهي طائـرة أمريكيـة طبعاً كان فيهـا مجموعة من العـرب تعرفنا على

بعضنا لمـا نزلنـا في بجرام (أفغانستان) قال بعضهـم: لقد كنا في كراتشـي، وقال بعضهم: كنا في لاهور، وقال بعضهم: كنا في إسلام آبـاد، فالطائرة حملـت مجموعة من كراتشي ثـم هبطت في لاهور وحملـت مجموعة منهـا، ثم أقلعت وهبطت في إسـلام آباد وحملت مجموعة منها ثم هبطت في بيشاور وحملتنا منها ثم أقلعت وهبطت في بجرام، لقد كانت حملة شعواء شديدة، ويل للعرب منها.

لقـد خضع هـؤلاء المعتقلون أو معظمهم لعمليـة تفتيش دقيقة مـن قبل الشرطة الباكستانية التي صادرت كل ما وجدته معهم من أمـوال أو ساعات يدويـة أو حاجات ثمينة، حتـى النظارات الطبية أُخـذت منهم، كما سمعت من بعضهـم، أما الذين داهمت الشرطة الباكستانيـة بيوتهم، فقد صـادرت منها أجهـزة كمبيوتر وأجهزة تلفـون وذهب وأمـوال، كل شيء ثمـين طالته أيديهـم صادروه ولم ترجـع الشرطة الباكستانية منـه شيئاً إلى أصحابـه وهذه حوادث سمعتها من أصحابها الذين حدثت معهم عندما داهمتهم الشرطة الباكستانية في بيوتهم في بيشاور وغيرها، والله المستعان وحده على ما جرى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سمعـت من بعضهم قصة اعتقاله، مجموعـة من العرب كانوا جرحـى في مستشفى كويتـه عاصمة إقليم بلوشستـان الباكستاني، المحـاذي لأفغانستـان وإيـران، أدخلوهم المستشفـى، احترموهم،

رحبوا بهم، أي طلب لهم ينفذونه ويقدمونه لهم، حتى إن أحد الجرحى قال: طلبنا مرة أكلة سمك، فقال: لم يمضِ إلا وقت قليل وإذا بجميع أنواع السمك أمامنا، المقلي والمطهو والمشوي، أخذ المستشفى منهم استبيانات، الاسم، الدولة، تاريخ الولادة، الحالة الاجتماعية، الأسرة عدد الأولاد... زارهم بعض الدبلوماسيين العرب العاملين في سفارات بلادهم في إسلام آباد، فطمأنوهم بأنهم سيرجعون إلى بلادهم، لكن بين يوم وليلة قلب القوم لهؤلاء الجرحى ظهر المجن، إذ استيقظوا في ليلة ظلماء وكما يقول المثل: [الليلة ليس فيها قمر] على قوات الأمن الباكستانية تحيط بهم، قيدتهم، مع أنهم جرحى لا يستطيعون الهرب، وبعضهم بقدم واحدة، قيدوا أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، ثم حملوهم إلى المطار، حملتهم الطائرة من مطار كويته الباكستاني، وهبطت بهم في مطار قندهار الأفغاني الذي يوجد فيه معتقل للقوات الأمريكية.

إن كل من اعتقل أو ألقي القبض عليه عربياً كان أو عجمياً من باكستان أو من أفغانستان وما حولهما كان يحمل وينقل في الطائرات، إما إلى قاعدة ومعتقل قندهار أو إلى معتقل بجرام وفي هاتين القاعدتين يتم الاستجواب والتحقيق مع المعتقلين ومن ثم يتم تصفية هؤلاء والتحقيق معهم والفصل في قضاياهم، فإما أن يكون العفو وإطلاق سراحهم وإما نقلهم إلى معتقل جوانتناموا- كوبا- لكن المفرج عنهم من بجرام أو من قندهار لم يكن فيهم عربي واحد، حتى لو كان هذا العربي يقرأ القرآن أو يصلي فقط وليس له علاقة بالتدريب ولا بالمعسكرات ولا بتنظيم القاعدة ولا بحركة طالبان.

إن كل عربي وصل إلى بجرام أو إلى قندهار نقل إلى (جوانتنامو) كوبا وحصل على شرف الاستضافة الأمريكية، ونال وسام الزيارة لتلك القاعدة المشؤومة والجزيرة المنكوبة المنحوسة، لقد كان بعض المعتقلين الذين نقلوا من أفغانستان إلى كوبا موجودين أصلاً عند حركة طالبان وفي سجونهم ومعتقلاتهم، كان الطالبان يتهمونهم بالتجسس عليهم، لم يكن الطالبان راضين عنهم، فكيف اعتقلهم الأمريكان؟

إن الأمريكان يعتقلون كل من له علاقة وتعاون مع الطالبان وهؤلاء كانوا على علاقة سيئة مع الطالبان، فيكف اعتقلتموهم ونسبتم التهم إليهم؟! سمعت من أحدهم قصة اعتقاله إنه عراقي يعيش في بريطانيا منذ سبعة عشر عاماً، لم تطأ قدماه أرض أفغانستان لم يرَ أفغانستان حتى في المنام والأحلام، كان يعمل في التجارة والأعمال الحرة، وقبل اعتقاله بأسبوع تقريباً قرر السفر في مهمة تجارية، مع مجموعة مكونة من أربعة أفراد إلى دولة في غرب إفريقيا، تسمى جامبيا، مشهورة بزراعة الفستق (الفول السوداني)

إنهـم ذهبـوا إلى هذه الدولـة لإقامة مصنع لهم لإنتـاج الزيت من الفول السوداني؛ بسبب رخص سعره هناك، وبسبب الأيدي العاملة الرخيصـة، إنها مهمة تجارية لا علاقـة لها بالحرب ولا بالإرهاب، لا علاقة لها بتنظيم القاعدة ولا بحركة طالبان، إنها بلد تبعد أكثر مـن عشرة آلاف كيلو متر عـن أفغانستان، إنها في قارة وأفغانستان في قارة أخرى.

يقـول هذا المعتقل: عندما قررنا السفر إلى جامبيا عبر مطار لندن قامت قوات الأمن البريطانية باعتقالنا نحن الأربعة، مباشرة كلفنـا محامياً بالدفـاع عن قضيتنا واستطعنـا الخروج من المعتقل بعـد بضعة أيام، ثم السفر مباشرة خلال أسبوع مرة ثانية، خرجنا من لنـدن وصلنا إلى جامبيا، لما نزلنا مـن الطائرة المدنية ودخلنا مبنـى المطار جاء رجال الشرطة وتسلمـوا جوازاتنا الأربعة، وقالوا لنـا: تمهلـوا نريدكم قليلاً، كان هـذا القليل احتجازنـا مدة أسبوع في مـكان جيد نحن الأربعة، بعد أسبـوع تم إطلاق سراح اثنين منا يحملان الجنسية البريطانيـة، وتم تجديد اعتقال اثنين آخرين أنا أحدهمـا لا يحملان الجنسية البريطانيـة وتم نقلنا إلى مكان آخر غير جيد مـدة عشرة أيام، ثم تم تسفيرنا في طائرة صغيرة وحدنا من جامبيا إلى أفغانستان.

لقد قيدونا على مقاعد الطائرة تقييداً محكماً لا نستطيع معه الحركـة، أما الأعين فمغطاة والأذن مغلقـة والفم والأنف مغطيان، وحتـى لا نحتاج إلى استعمال الحمام Tiolet قاموا بوضع حفاظات كبـيرة لنا كالأولاد الصغار؛ لاستعمالهـا للبول والغائط إذا احتجنا إليها، وكما يسمونها هم number one and nomber two، وصلنا إلى مكان، بعد رحلة طويلة عرفنا فيما بعد أنها كابل التي لم أزرها وأدخلهـا باختيـاري، فدخلتها ومشيت على أرضهـا بغير اختياري، ثـم أدخلونا إلى سراديب تحـت الأرض لا نرى شيئـاً، الدنيا ظلام طيلة اليوم والأربع والعشرين ساعة سواد دامس، غرفة لا ترى فيها شيئاً، ليس بها حمام لقضاء الحاجة Tiolet، لكن عندك في الغرفة وعاء (سطل) تستعمله لقضاء الحاجة، يعطونك بعض قوارير الماء البلاستيكية للشرب.

أمـا الطعـام فـكان مـرة واحـد كل (٢٤) ساعة، كميـة قليلة مـن الأرز والخبـز، يدخل عليك الحارس الملثم يحمـل بيده فانوساً صغيراً؛ ليرى موقع قدميه، يسلمك الطعام والشراب، ثم ينصرف، فالكلام معه أو مع غيره من السجناء ممنوع، أما الشاي أو الحليب والفاكهة فأشياء غير موجودة، أقاموا هناك ما يقارب ثلاثة أسابيع ثـم نقلوهم إلى جوانتنامو- كوبـا- بالطريقة التي يرحلون بها بقية المعتقلين، تم استجوابه في التحقيق كثيراً، أهله يقيمون في بريطانيا، يأمل أن يرجع إليهم قريباً.

قصـة معتقل آخر أصله مـن إفريقيا، نسيت اسـم هذا البلد، خـرج مـع أمـه إلى بريطانيـا، وهـو صغـير، كانـت حياتـه كحياة

الجاهليين الذين يعيشون في بريطانيا، لكن قبل اعتقاله بسنين قليلة رجع إلى الله وبدأ يستقيم في حياته، سمع بأفغانستان وإن بها إمارة إسلامية يحكمها الطالبان، فقرر أن يزور هذه الإمارة ويراها، وفي أثناء هذه الزيارة وقعت أحداث نيويورك وواشنطن وقامت الحرب في أفغانستان، فخرج ورجع إلى إفريقيا، وفي دولة إفريقية وهي مسقط رأسه تم اعتقاله، ثم تسفيره إلى كوبا، هو رجل رياضي يهتم بتقوية جسمه، يتدرب يومياً حتى في السجن لما كان خارج السجن قبل اعتقاله كان مدرباً يكتسب رزقه من تدريبه لبعض الناس، عنده إحساس شاعري، ينظم الشعر سمعت منه بعض الشعر باللغة الإنجليزية، يتكلم فيها عن السجن، وما يعانيه السجين، وما يقوم به السجانون، الأمريكان، ترجم لي هذا الشعر إلى العربية بلغة مفهومة، وإن كانت صعبة عليه.

يقول في هذا الشعر: إن أمريكا مرتاحة متنعمة، تقوم بالحرب، ترى الدماء والدمار والأشلاء، وغيرها فقير مظلوم بائس، ولأن هذا الشعر لا يعجب إدارة السجن؛ لأنه كان ينشد هذا الشعر على مسامع الجنود، الذين ينقلون ما يسمعونه في العنابر إلى إدارة السجن قامت إدارة السجن وصادرت هذا الشعر ولقد شهدته مرة ينشد هذا الشعر وكان في عنبري، بل جار لي، وقد تجمع الحراس في العنبر أمام غرفته ورأيتهم معجبين بشعره ينظر بعضهم إلى بعض، يضحكون ويتمايلون بسبب دقة وصفه وتشخيصه للسجن والسجان والسجين.

لقد كان أسود اللون، ولا اعتراض على خلق الله، وسبحان الله العظيم، حتى الجنود الأمريكان ذكورهم وإناثهم وهم نصارى على غير دينه، كان يرى منهم التعاطف والحنو عليه والكلام والنقاش معه، خاصة السود الذين يشاركونه البشرة. كانوا يقضون الوقت الطويل على شبك غرفته، يتجاذبون أطراف الحديث ليلاً ونهاراً وخاصة ليلاً، يتناقشون في شتى الأمور والمشكلات.

لقد كان لونه الأسود يجذبهم إليه، إنك ترى التوافق والانسجام بينهم لكن كنت تحس أن لسان حال الجنود يقول له: كلامك صحيح لكن نحن في جيش لا نستطيع أن نفعل شيئًا، إننا نطبق الأوامر فقط لقد كان مؤدباً لم أرَ منه طيلة وجوده في عنبري أي مخالفة لقوانين السجن والسجان، لكن أظن أن شعره هذا كان سبباً في تأخر الإفراج عنه؛ لأنه تم الإفراج عن أربعة بريطانيين وعن غيرهم، من العرب والعجم، ومنهم سجناء من دول أوروبية قبل أن أخرج من (جوانتنامو) لكن خرجت من كوبا، وهو لا يزال هناك.

قصة رجل آخر أهله هاجروا من إفريقيا إلى دولة في أمريكا الجنوبية (جامايكا) ثم رحلوا من جامايكا إلى بريطانيا، صاحب

القصة ولـد في مانشيستر إحـدى المدن البريطانيـة، أهله يدينون بغـير ديـن الإسلام، إنهـم نصارى، لكـن الله -عز وجـل- تفضل عليـه وهداه للإسلام، فهـو مسلم وزوجتـه وأولاده كذلك مسلمون دون بقيـة العائلـة الآخرين كما فهمـت من قصته، سمـع بالإمارة الإسلاميـة في أفغانستـان، فـأراد أن يعرف عن قـرب هذه الإمارة فذهـب إلى أفغانستـان، لكـن الطالبـان اعتقلوه وأودعـوه السجن واتهمـوه بأنـه جاسوس، وبقـي في السجن حتى قامـت الحرب في أفغانستـان وسقطت حكومـة الطالبان وجاء الأمريـكان، فاعتقلوه ورحلـوه إلى معتقـل (جوانتنامو) ومكث في هـذا المعتقل ما يقارب ثـلاث سنوات، إن هـذا المسكين ما كان له حظ مع حكومة الطالبان ومـا سلم من الاعتقال من حكومـة الأمريكان، سمعت أنه خرج من كوبا قبل خروجنا بشهر.

قصة سجين آخر اعتقلته باكستان، عمل في مؤسسة إغاثية ثم تركها وانتقل إلى تجارة العسل مدة سنين ثم تركها وعمل مع مؤسسة إغاثيـة يتاجر معها، يـترزق ويعيش من هذه التجـارة، يشتري لهم الطحـين والأرز والزيت ومواد غذائية، رجـل هـادئ معتدل صاحب خلق ودين، ليـس متطرفاً حسب المفهوم الغربـي، لما وقعت الحرب في أفغانستـان بعد أحداث (١١) سبتمـبر وحلَّ بالعرب ما حلَّ نوى الخـروج من باكستان لكـن قبل أن يغادر المطـار اعتقلته باكستان، أسكنـوه الفندق أيامـاً قليلة ثم سلموه للأمريـكان الذين نقلوه إلى قندهار، حيث عانـى هناك الكثير وبعد شهور نقلوه إلى كوبا، حيث لا يزال هناك إلى هذا الوقت.

قصة باكستاني رأيته في السجن وكان في العنبر الذي أسكنه، يقـول هذا المعتقل: لما وقعت الحـرب في أفغانستان كان أخي هناك قـد تأخـر ولم يرجـع، افتقدناه، فـأردت أن أذهب بنفسـي، أبحث عنـه فحصلت على تأشيرة دخول من السفـارة الأفغانية في إسلام آبـاد، لم يكن لي أي هـدف إلا أن أبحث عن أخـي وأرجعه إلى أبيه (والـدي)، مـا كان لي هدف آخـر، ما كان عندي نيـة أن أقاتل مع الطالبـان ضد الأمريـكان، لما وصلت إلى شمـال أفغانستان وبدأت أبحـث عن أخي اعتقلنـي تحالف الشمال، وظـن أنني من المقاتلين الباكستانيـين الذين كانوا يقاتلون مع حكومة الطالبان ضد تحالف الشمـال، أو قاتل مع الطالبان ضد تدخـل الأمريكان، قلت لهم: أنا جئـت أبحث عن أخي في الشمـال؛ لأن معظم الأسرى الباكستانيين كانـوا في الشمال الأفغاني، فظننت أن أخي هنا معهم وهذه تأشيرة دخـول رسمية من سفـارة أفغانستـان في إسلام آباد أنـا لم أدخل تهريباً وخفية أو من دون تصريح منكم، لكن لم يعيروه أي اهتمام، وأودعوه السجن في منطقة مزار شريف ولاية بلخ.

قصص من سجن التحالف

علـى الحدود الروسية، قال الشاهد أو الـراوي: أدخلونا داخل كونتينر- السيارة التي تحمل صندوقًا حديديًا كبيرًا محكمًا- وهذه المنطقة تخضع لسيطـرة تحالف الشمال، ومسؤول المنطقة يطلقون عليه الجنرال الحاج عبد الرشيد دوستم، وضعونا في هذا الصندوق بأعـداد كبيرة، كأنك ترتب صناديق ببيسي كـولا، أو كراتين حليب نيـدو، كنـا ملتصقين ببعضنـا، لا يستطيـع أحدنـا أن يتحرك من مكانه، امتـلأ الكونتينر بالبشر، فأغلقوه علينـا، وتحركت السيارة التـي تجر هذا الصنـدوق الحديدي المحكم، لكـن لا أحد يعلم إلى أين تتحرك.

مشـت ساعات طويلـة، تعالى صراخ الموجوديـن في هذه العلبة المحكمـة، بالتكبير والتهليـل، والدعاء إلى رب الأرض والسماء أن يفـرج عنهم هذا البـلاء، الأصوات التـي بدأت عالية بـدأت تخبو

وتضعف شيئاً فشيئاً، ضاق التنفس انقطع الصوت خمدت الأنفاس، الموت يقترب من بعضهم، كل واحد منهم لا يستطيع أن يقدم لنفسه، فضلاً عن أن يقدم لغيره أي مساعدة، يا إلهي! سنموت جميعاً في هذا المكان، ولعل هذا المكان يكون قبرنا، لعلهم يحفرون لهذا الكونتينر حفرة كبيرة ويضعونه فيها، فيكون هذا الكونتينر هو الكفن وهو القبر، بعد ساعات طويلة قدرها من في الكونتينر من (٨-١٠) ساعات توقف هذا القبر المتحرك -الكونتينر- فتحوا الباب الحديدي المحكم لهذا الصندوق- غرفة الموت فإذا بعض من فيه قد قضى نحبه وخرجت روحه إلى بارئها، غريباً بعيداً، بأرض ليس له فيها ولد ولا والد، والذين في هذا الصندوق الحديدي منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، أو أنه في حالة خطيرة، أو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وبعضهم خرج من غرفة الموت، وما زالت الروح فيه قوية؛ ليروي المأساة، ويحدث عن بشاعة ما جرى في هذا السجين الذي نجا فيه من الموت بقدر من الله -عز وجل- ويستمر في حديثه عن بقية المأساة، قال: من قدر الله -عز وجل- له النجاة، لقد أدخلونا إلى سجن في غرف ضيقة غير نظيفة، والغرفة التي تتسع لخمسة وضعوا فيها عشرين، أما الدواء والعلاج فغير موجود، مع العلم أن بعض من كان في الكونتينر مجروح قد تعفن جرحه، ولم يقدموا

له حتى المطهر. قالوا له: لا بد أن تقطع يدك، فقال لهم: اتركوها كما هي وليحدث لها ما يحدث وأنا أتحمله، وتركت يده كما هي دون علاج، وشاء الله -الذي على كل شيء قدير- أن يبرأ جرح يده العميق التي رفض قطعها، ويده الآن مثل يده الأخرى السليمة، أما الطعام في هذا السجن عند تحالف الشمال، فرديء جداً وقليل جداً، إذ إن كل أربع وعشرين ساعة يقدمون للسجين كمية من الأرز، أو قطعة من الخبز صغيرة وقديمة، أما الفاكهة فلم يروها حتى في المنام والأحلام، أما مياه الشرب فغير صالحة للشرب.

ومع أن كمية الأرز التي كانت تقدم للسجين في معتقل جوانتانامو أيضاً قليلة، فإن الذين كانوا في سجن تحالف الشمال لما رأوا كمية الأرز التي تقدم للفرد الواحد في جوانتانامو، قالوا: هذه الكمية التي نأكلها الآن في كوبا، كانت تقدم لأربعة سجناء في سجن التحالف الشمالي الأفغاني، ومع أن وجبات الطعام في معتقل جوانتانامو ليست رديئة، فإنها في الوقت نفسه أيضاً ليست جيدة وكافية لمعظم السجناء، ومع ذلك فإن الذين دخلوا سجن تحالف الشمال الأفغاني عندما رأوا الطعام في كوبا، قالوا: إن سجن كوبا يُعد فندقًا خمس نجوم بالنسبة للطعام الذي كنا نأكله في سجن التحالف الشمالي الأفغاني.

قال الراوي، وهو شاهد عيان على المأساة: لما كان الجوع والبرد همارفيقانا طيلة مدة وجودنا في سجن تحالف الشمال، فقد كنا

نخـرج إلى الشمس مرة كل أسبوع، وأحياناً مرتين، فكنا إذا خرجنا نأكل كل ما نجده على الأرض من عشب أخضر دون أن نعرف ماذا نـأكل من شدة الجوع، حتى إن ساحـة السجن التي كنا نخرج إليها وكانـت مليئة بالعشب الأخضر عادت بعد مدة نظيفة من أي عشب، لقد أكلنا كل ما كان عليها من العشب.

أمـا الحمام- الاغتسال- فـكان في كل شهر مرة لمن أراد، لكن بالماء البارد، مع أن درجة الحرارة منخفضة جداً والمنطقة معرضة لموجات من الـبرد الشديد، ومعرضة لنزول الثلـج عليها باستمرار طيلـة مـدة الشتاء، يقول الـراوي: لقد ظهر علينـا القمل واتسخت ملابسنا لدرجة كبيرة، لكن لا أحد يستطيع التكلم.

أمـا حمـام قضـاء الحاجة فحـدث عنه ولا حـرج، الحمام لا يوجد فيه مـاء ولا ورق حمام (فاين) ولا حجارة قلت له: كيف كنتم تتصرفـون عند قضـاء الحاجة؟ قال: كنـا إذا خرجنا إلى الشمس نأخذ معنا حجراً صغيراً ونخفيه في جيوبنا عن الحراس، ثم ننظف به مكان النجاسة عند قضاء الحاجة، ولا نلقيه بل نضعه في جيوبنا، ونبقـى نستعمله كلما دخلنا إلى الحمـام، وهكذا، حتى نجد حجراً آخـر مكانــه. . لقد كان وضـع السجن مأساوياً بـكل ما تحمله هذه الكلمة مـن معنى، لقد كان الحراس في السجـن يستغلون السجناء أبشع استغلال، يبتزون الأموال القليلة التي معهم، حتى إن الحراس

كانـوا يؤجرون جهاز راديو إلى المساجين؛ ليسمعوا الأخبار مدة ليلة مثلاً، بمبلغ كبير من المال.

ولقـد قـام الحراسـ والضبـاط في هـذا السجـن، وكلهم من الأفغـان- تحالف الشمال- بعمليات احتيـال كبيرة على المساجين، خاصة الأغنيـاء منهم، إذ إن الضباط طلبوا فدية من المال، مقابل إطلاق سراح السجـين الذي سيدفع هذه الفدية، وبما أن المساجين لا يملكـون مثـل هذه المبالغ، فقد قـام المساجين بكتابـة رسائل إلى أهاليهـم، يعرفونهم فيها بأنهم موجـودون في السجن عند تحالف الشمـال، وإن إطـلاق سراحهـم متوقـف علـى دفع مبلـغ من المال للمسؤولـين في السجن، ولقد سمعت أن أحدهم دفع عنه أهله مئتي ألـف روبيـة باكستانية؛ حتى يتـم الإفراج عنه، لكـن إدارة السجن أخـذت الأموال من أهل هذا السجين ولم تطلق سراحه، أما مصير هـؤلاء السجناء فقد قامت قوات التحالف الشمالي بتسليم، أو ببيع هؤلاء السجناء للقوات الأمريكية في أفغانستان، حيث تم نقلهم إلى معتقل جوانتنامو-كوبا-.

ولقـد حدثنا بعض المعتقلـين، بأنه سمـع من رأى بـأم عينه، جرافة (حفـارة) تقوم بحفر حفرة كبيرة، ثم يؤتـى بأناس مكبلين بالسلاسل يقودهم رجـال، ويلقونهم (يقذفونهم) في تلك الحفرة وتعـود الجرافـة مرة ثانيـة لتلقي عليهـم التراب وهـم أحياء، لقد

قامت قوات التحالف بخداع الكثير من المعتقلين العرب والعجم في الشمال الأفغاني، حيث تجمع الكثير منهم في مكان واحد، وطلبت منهم الاستسلام، لكن رفض الجميع هذا الطلب، إلا بشرط ضمان السلامة وإطلاق سراح الجميع، واستسلموا، لكن قوات التحالف لم تلتزم بتعهدها، لقد نقضت العهد معهم، وخدعتهم، فبعد استسلامهم تم الإفراج عن بعض الأفغان، أما بقية الجنسيات ومنهم العرب، فقد قيدوهم بالسلاسل وساقوهم إلى السجن، ثم بعد ذلك تم تسليمهم ببيعهم للأمريكان، الذين نقلوهم بعد ذلك إلى معتقل كوبا.

لقد قامت القبائل الباكستانية الموجودة على الحدود الباكستانية الأفغانية باستقبال الفارّين والهاربين من جحيم الحرب في أفغانستان، وكان هؤلاء الفارون من جنسيات مختلفة عرباً وعجماً، لكن نسبة العرب فيهم أكثر من النصف، هذه القبائل أظهرت لهؤلاء الفارّين الأمان والاطمئنان، لكن الأمان والاطمئنان كان لغير الله، بل كان لزيادة المكر والغدر ولزيادة التمكن من جمعهم واستدعاء قوات الأمن الباكستانية لاستلامهم وتقييدهم بالسلاسل، مقابل دراهم معدودة، لقد حملوا هذه المجموعة في سيارتين (حافلتين) كبيرتين، لكن شعر هؤلاء الشباب بأن العملية غدر وخيانة، وأنهم يسيرون نحو المجهول والنهاية المؤلمة، إنه السجن وما بعد السجن.

كانت الشرطة الباكستانية داخل السيارتين وخارجهما على السطح، فقرر هؤلاء الشباب أن يقوموا بعملية ومغامرة؛ لعلهم ينجحون في تحرير أنفسهم من هذا الرق والقيد الذي يعيشون فيه، فاستطاع بعضهم أن يفك قيد يديه وأن يهجموا على الشرطة الباكستانية، ويستولوا على البنادق التي يحملونها وأطلقوا النار عليهم وقامت داخل السيارتين معركة بين هؤلاء الشباب والشرطة الباكستانية، وسائق إحدى السيارتين وهو من الشرطة ركبه الذعر والخوف فترك القيادة للسيارة وفتح الباب وقفز، وترك السيارة تسير من دون سائق، مما أدى إلى انقلابها بمن فيها، كان هنا القتلى والجرحى من الطرفين نتيجة تبادل إطلاق النار بين الطرفين أولاً، ونتيجة انقلاب السيارة بمن فيها ثانياً.

هذا الحادث سمعنا به وشاهدناه قبل اعتقالنا بعدة شهور، وسمعنا أن الشرطة الباكستانية قامت بدفن القتلى من هؤلاء الشباب، بعض الناس الصالحين من سكان تلك المناطق قام وحفر عن هؤلاء الشباب قبورهم، وقام بإصلاح أكفانهم وتعطيرهم بالطيب، وعمل اللازم نحوهم من الصلاة عليهم، ودفنهم في أماكن أخرى، وبدأ سكان تلك المنطقة بزيارتهم والدعاء لهم والتبرك بقبورهم، أما بقية الأحياء والجرحى من السيارتين فاستمر الغدر والخيانة معهم، حيث أودعوهم أحد سجون المناطق

الحدوديـة بـين باكستان وأفغانستان وما هـي إلا أيام قليلة حتى تم بيعهـم وتسليمهم للأمريكان الذيـن لم تمضِ ساعات على تسلمهم حتى كانوا داخل الطائرة التي كانت تنتظرهم في أقرب مطار، وقد نقلتهم إلى معتقل أمريكي في قندهار أفغانستان، حيث أمضوا عدة شهـور في قندهار، ثم تم ترحيلهم إلى معتقل جوانتنامو، ومن صور معاملة الجنود للأسرى في قندهار:

١- جندي يضع القرآن الكريم في سطل (الخلاء) مكان قضاء الحاجة الذي يستعمله المساجين لفضلاتهم الآدمية.

٢- حبـس الأسـرى أحيانـاً في كونتيـنـر مغلق حديـدي، مع أن الفصل كان صيفاً، ودرجة الحرارة مرتفعة جداً.

٣- الجلوس مـدة طويلة ساعـة، ساعتين أحيانـاً على الركب والأيدي خلف الرأس، مع أن أرض المعتقل التي يكون فيها العقاب حصباء مدببة تجرح الركب وتدميها.

٤- عند الذهاب للتحقيق يطلـب من المعتقل أن ينبطح (ينام) على بطنه على الأرض والأيدي خلف الظهر، ثم يتم تقييده بالسلاسل بطريقة شديدة وعنيفة.

العـرب الذين كانـوا في البوسنة هؤلاء موجـودون في البوسنة منذ الحرب بين البوسنة والصرب.

هـؤلاء العـرب متزوجون من بنـات البلد، لهـم أولاد، يحملون جنسيـات تلـك البلـد، ألقـت الحكومة القبض عليهـم بتحريض خارجـي بتهمة الإرهـاب (المزعوم) لكـن حتى يكون هنالك مخرج وحيلة لتسليمهم للأمريكان تم الضغط على حكومة البوسنة لسحب جنسياتهـم، ثم تم تسليمهم للأمريـكان، الذين نقلوهم إلى معتقل جوانتانامـو، مع أن المحكمة في البوسنة حكمت لهم بالبراءة من أي تهمة أو علاقة بالقتل والإرهاب.

مضـت الأيام وجـاء الحراس لأخـذي إلى التحقيـق، خرجت معهم، وقادوني إلى غرفة التحقيـق، جلست وحولي الصور، صورة المسجد، صورة أسرى في لباسهم البرتقالي، صور لبعض المهاجرين الأفغـان، صور الجرحـى، أطفال وغير أطفال، صـور بيوت مهدمة صور إغاثية ومساعدات، صور مقاتلين ومجاهدين يحملون السلاح، صور مختلفة، وهي أمامك وأنت جالس لا تستطيع أن تترك مقعدك أو تغـير جلستك؛ لأنك مقيد بسلسلة في قدميـك، والسلسلة مقيدة بحلقة ثابتة في أرض الغرفة، وعن يمينك نافذة من الزجاج، وعن يسارك نافذة أخرى مثلهـا، هذه النوافذ زجاجها أسود، وفي داخل غرفة التحقيق شـيء أسود مستدير متصل بأنبوب، سمعت أن هذا الشيء الأسـود المستدير كاميرا للتصوير، تقـوم بتصويرك وتنقل جميع تحركاتك وإشاراتك إلى شاشة في غرفة مجاورة.

وسمعت أن هذا الزجاج الذي عن يمينك وعن يسارك ذا اللون الأسود زجاج يراك من خلاله أشخاص يوجدون في الغرفة التي عن يمينك أو عن يسارك، يرون مدى تأثرك بكل صورة تنظر إليها، تفرح لها وتنفرج أسارير وجهك لها تحزن أو تتضايق أو تعبس لها، هذا تحليل بعضهم لمن جلس في مثل هذه الغرف، ومما يؤكد ويؤيد هذا التحليل أنني كنت في إحدى غرف التحقيق ذات مرة، إذ انتهى التحقيق وخرج المحقق وقال لي أو وقالت لي (على الصحيح) لأنها كانت سيدة: بعد دقائق يأتي الحراس ويأخذونك إلى غرفتك، كنت مصاباً بالرشح وأصابني العطاس كثيراً؛ بسبب برودة المكيف فخرج المخاط من فمي وأنفي، وبما أنه لا يسمح للمعتقل أن يحمل في جيبه أي شيء من مناديل الفاين في جيبه، يفتش ويؤخذ منه كل شيء في جيبه، أقول: أصابني شيء من الحرج والارتباك بسبب هذا المخاط أو البصاق.

وبدأت ألتفت عن يميني وعن يساري، وبسرعة فتح الحراس الباب على، وقدموا لي الفاين، دهشت وذهلت، قلت في نفسي: ما الذي جعلهم يعرفون ويحسون بما حصل لي؟ قلت: لا بد أنهم يراقبون تصرفاتي وأنا جالس داخل غرفة التحقيق، نعود إلى غرفة التحقيق، جاء المحقق بلباسه العسكري ومعه مترجمة مثله بلباس عسكري تترجم إلى العربية ببطء، إنها ترجمة مكسرة، لكنها ترجمة مفهومة.

كانت الأسئلة عن حياتي في باكستان، أسماء المعاهد والمدارس والجامعات التي عملت فيها، أسماء المدرسين الذين كانوا معي في هذه المعاهد والمدارس، والكتب والمناهج التي كانت تدرس فيها، سألني عن المؤسسات والهيئات التي تشرف على هذه المدارس والجامعات، سألني عن الجهات الحكومية أو الدول التي تتبنى هذه المؤسسات أو الهيئات، وتنفق عليها التاريخ والوقت الذي عملت فيه في كل هذه الأماكن، والتاريخ الذي تركتها فيه، سألني عن مؤسسات إغاثية وإنسانية عربية وإسلامية في باكستان، وعن أشخاص عرب يعملون فيها وعن نشاط هذه المؤسسات في باكستان، وفي داخل أفغانستان، وعن مجالات عملها في المدارس، والأيتام، والإغاثة الغذائية والمساجد والمساعدات المالية.

هذا ما أذكره؛ لأنني أكتب بعد مرور سنتين تقريباً عن هذه الأحداث، وهذه الأحداث سمعتها كلها، وسألت عنها، وأجبت عنها، لكن ربما قدمت شيئاً أو أخرته عن وقته ومكانه، أو كان السؤال هذا مثلاً من محقق ما، ووضعته لمحقق آخر وذلك لطول العهد بينها وبين تدوينها، ولعدم وجود أوراق وأقلام معنا؛ لانعدام وجود أي وسيلة أخرى لتدوين هذه الأحداث.

انتهت الجلسة، وانصرفت راجعاً إلى غرفتي برفقة الحراس.

هــذا المحقق كان مؤدباً معــي لم يستفزني، لم يحاول أن يطرح علي أسئلة لا علاقة لها بعملي، وبمكان وجودي في باكستان، في نهاية الجلســة طلب مني أن أخـبره عما يجري في العنابـر، فقلت له: إن السجنــاء يتكلمون مع بعضهم بعضا في أحوال السجن وعن بلادهم وعن حياتهم، قصص وأحداث حصلـت لهم، يتسامرون ويتكلمون بهـا، إنهـم يصلون ويقرؤون القــرآن عن أي شـيء سيتكلمون؟ هل تخافــون منهم؟ إن كلامهــم عادي، قال: إذا سمعــت شيئاً يريدون فعلــه يخل أو يعارض القانون والنظــام والأمن ويؤدي إلى الفوضى، فلا تسكت وتخبرنا به.

هــذه الجلسة كانــت قبيل رمضان من عــام ٢٠٠٢ م وأذكر في هــذه الحقبــة أن الأخبــار تسربت من بعض الجهــات المسؤولة في السجن عــن وجود عاصفة أو رياح شديدة، تهب هذه العاصفة على أمــواج البحر الــذي يوجد على مقربــة من عنابر السجــن والأبنية الأخـرى الملحقة بالسجن، فتصل أمــواج البحر أو المد البحري إلى هذه العنابر والأبنية.

وربمــا تكــون هــذه العواصــف أو الريــاح الشديــدة مصحوبة بالأمطار الغزيرة، هكذا سمعنــا الأخبار والله أعلم بصحتها، لكن بعــد أيام من تسرب هذه الأخبار، بــدأت تظهر بعض الأعمال التي تؤيد وترجح صحة ما سمعناه من أخبار، بدأت السيارات والجرارات الطويلة، تحمل معدات وأغراضًا كثيرة كانت توجد على الأرض بين عنابر السجن، وتنقلها إلى أماكن أخرى، بدأت إدارة السجن تزيل الستائر والجدران القماشيــة التي تحيط بالعنابر والتي توجد على الجـدران والأسلاك المشبكـة الموجودة بين كل عنـبر وآخر، وذلك خوفاً من أن تمزقها أو تدمرها الرياح والعواصف الشديدة.

بدأ الحراس بإغلاق نوافذ السجن ذات الشبك بأغطية قماشية أو بلاستيكية؛ خوفاً من الرياح والعواصف أو خوفاً من الأمطار التي تكون مصاحبــة للعواصف، هذه احتياطات رأيناها قامت بها إدارة السجــن، لكن مرَّ الوقت وما رأينــا أو سمعنا شيئاً خطيراً أو مخيفاً والتوقعــات والنتائــج لهـذه العاصفة مــا كانت بقــدر الاستعدادات والمخاوف، جاءت الأمور أبسط وأيسر مما كنا نتوقع.

دخــل رمضــان ٢٠٠٢ م، وكان قد سبق شهــر رمضان إضراب عن الطعام، وإضراب عن الخروج للتحقيق أو للرياضة والاستحمام وإضــراب كذلــك عن أخــذ واستــلام أو طلــب الصابــون وفرشاة ومعجون الأسنان أو ورق الحمام. . . وحتى الكلام مع الحراس بأي شــكل من الأشكال وربما يسأل سائل: كيف يحصل هؤلاء المضربون على أغراضهم واحتياجاتهم الضرورية؟

فالجــواب: إن هــؤلاء المضربين يكونون قد تــزودوا بما يلزمهم مــن حاجاتهم الضروريــة من الحراس، فقد طلبــوا أغراضهم من

الحراس قبل بداية إضرابهم بأيام، وخزنوا هذه الأغراض في غرفهم، وعند بداية الإضراب تكون كافة متطلباتهم وحاجاتهم الضرورية متوافرة وموجودة عندهم، لكن هذا الأمر كان ثم تغير، حيث أصبح الخروج للتحقيق أو الرياضة والاستحمام إجباريًا وليس اختياريًا، وكل من يرفض الخروج من غرفته للتحقيق أو الرياضة- أو لأي أمر آخر كتفتيش الغرفة مثلاً، الذي يتم مرتين أسبوعيًا، كما هو دارج ومعمول به في نظام السجن، عدا التفتيش الفجائي الذي يتعرض له كل سجين إذا طلب منه الحراس ذلك، في أي وقت من ليل أو نهار، يخرج برغم أنفه، وذلك عن طريق قوات مكافحة الشغب.

قوات الشغب هذه دائماً على أتمّ الاستعداد، وهي مجهزة بكل ما يلزمها، ومحصنة ضد أي اعتداء يقع عليها من السجناء مثلاً، والتجهيز في جميع أجزاء الجسم من الرأس إلى القدمين، وقبل الدخول على السجين يأتي المسؤول تلو المسؤول لإقناع السجين بالخروج وتنفيذ الأوامر وتطبيق القانون.

فإذا رفض السجين ذلك جاء مسؤول كبير معه علبة الغاز المسيل للدموع أو غاز آخر لا أعرف اسمه وهذا الغاز مؤثر على الجسم خاصة العينين، يقوم المسؤول برش السجين على جسمه أو رأسه وعينيه مما يضطر السجين أن ينشغل بإبعاد الغاز عن نفسه أو ينشغل بألم عينيه، فيطلب المسؤول من السجين أن ينام

على الأرض، يستلقي على الأرض على بطنه ويضع يديه خلف ظهره، يقوم الحارس بفتح باب الزانزانة؛ لأن الفتح من الخارج، ويدخل عليه خمسة من قوات مكافحة الشغب ويقيدونه في رجليه، على أن يضع يديه خلف ظهره، ثم يحملونه ويخرجونه من غرفته إلى التحقيق أو إلى مكان المشي والرياضة، ثم يقوم حراس آخرون بتفتيش غرفته ومصادرة ما يريدونه وربما يضعون عليه عقوبة معينة حسب أنظمة السجن.

وقد شاءت الأقدار أن يجاورني أحد هؤلاء المضربين عن الطعام، لقد كان الحارس يضع له الطعام والفاكهة، والشاي والحليب والخبز على نافذة الغرفة ليأكلها، وبعد مرور ثلاثين دقيقة، يأتي الحارس لجمع الأطباق الفارغة أو بقايا الطعام، لكنه يجد الطعام كما هو، فيسأل الحارس السجين: لماذا لا تأكل؟ فلا يجيبه السجين بأي كلام؛ لأن بعض السجناء لا يأكل؛ لأنه مريض، أو غير جائع مثلا، أو أنه صائم، فيخبر الحارس عن سبب عدم تناوله للطعام، فلا يقوم الحارس بتسجيل رقم غرفته، أو إن كان الشخص مريضاً يريد الطبيب أو يوجد طعام خاص يصرفه الطبيب للمريض غير هذا الطعام؛ لأن الحارس يسجل كل شيء يفعله السجين، فإن تكرر عدم استلام السجين للطعام، فهذا يعني أنه مضرب عن الأكل، فيسجل الحارس رقم غرفته، ويبلغ المسؤول عن الأمر.

وربمـا لا يريد السجـين الأكل لكنه يأخذه ويعطيـه إلى سجين آخر، إما عن طريق الحارس ينقله بنفسه إلى سجين آخر، وإن رفض الحارس نقله ربمـا يعطيه السجين لجاره عـن طريق شبك الغرفة عن يمينه أو عن يسـاره، بعض السجناء والمجاورين قام وسأل هذا المضـرب عن الطعام عـن سبب هذا الإضراب مـا دواعيه؟ ما هي مطالب المضربين حتى يوقفوا إضرابهم؟

وبحكـم جواري لهـذا السجين كنت أسمع مـا يجيبهم به، قال هـذا السجين المضرب: نحن هنا سجنـاء، ويعدّنا الأمريكان أسرى حرب لتنظيـم القاعدة وتنظيم حركة طالبان، وأسرى الحرب لهم حقوق، لكن لم تقدم لنا إدارة السجن هذه الحقوق، نريد أن يطبقوا علينا بنـود ومحتويات معاهدة جنيف لأسـرى الحرب، إن معاهدة جنيـف وتسمح لأسرى الحرب أن يكون عندهم وسائل إعلام كثيرة ومختلفـة من مجـلات وجرائد ومذيـاع وتلفزيـون، تسمح معاهدة جنيـف أن يكـون لكل أسير محامٍ وألّا يتكلـم المعتقل في التحقيق إلا بحضور محاميه، كما تسمح بزيارة الأهل للأسير، والمعاهدة تنص على أن أسير الحرب بإمكانه ألّا يجيب عن أي سؤال من المحقق إلا عن اسمه ورتبته وفرقته إن كان في جيش نظامي.

كما أن المعاهـدة تنص على أنه لا يجوز أن يتعرض الأسير لأي شـكل من أشكال الضغـط أو التعذيب إذا رفض الـكلام أو الإجابة

عـن أي سؤال مـن الجهة التـي أسرتـه، كذلك المعاهـدة لا تسمح بالاعتقـال الطويل الأمد دون محاكمـة الأسير، إن الأسير له حقوق أخـرى ذكرتها المعاهدة ووافقت عليهـا أمريكا ووقعت عليها، لكنها الآن تخالف هذه القوانين.

لقـد بقي هذا السجين المضرب عن الطعام لا يأكل مدة طويلة، حتـى أصبح لا يقـوى على الصـلاة قائماً، وفي النهايـة سقط على الأرض، قـام السجناء بالصـراخ على الحراس، حضـر الحراس ومعهم الحمالة ونقلوه إلى العيادة.

العلاج

بدأ أصحاب الإضراب يتناقصون شيئاً فشيئاً، وثبتت مجموعة علـى الإضراب، نقلوها إلى المستشفى، ولأن المضربين لا يستطيعون القيـام أو الحركـة، عاشت هـذه المجموعة على الجلوكـوز في الفم والأنـف، ومن رفض منهم أخذ الجلوكـوز أو السائل الذي يغذيهم، وضعـوا له إبرة هذا السائل في أي مكان في جسمه، برغم أنفه؛ لأنه مقيـد على سريره لا يستطيع المقاومـة، وبعد مرور مدة من الزمن، ثلاثـة أشهر كما أظـن، أنهى هؤلاء المضربـون إضرابهم عندما لم تستجب إدارة السجن لمطالبهم، إن العلاج وتناول الدواء في المعتقل إجباري وليس اختيارياً، إنك لا تملك أن ترفض تناول الدواء، سواء أكان أقراصـاً أم شرابـاً أم إبـرة، حقيقـة إنـك إذا مرضت حضر الطبيـب إلى غرفتك وعالجك على السريـع، إن كان مرضك سهلاً وبسيطـاً، وإن دعـت الحاجـة حملـوك إلى العيـادة، وإن استدعى

الأمــر نقلــوك إلى مستشفى أكثر تطوراً خــارج المعتقل إلى المدينة، لكن داخل القاعــدة أو الجزيرة، ورأيت بعضهم نقلوا إلى واشنطن للعلاج حين استدعى الأمر ذلك.

لكــن هناك علاجًا تناوله إجباري، فبين حين وآخر يتم تطعيم جميع المعتقلين بهذا الــدواء، أقراص أو جرعات أو إبر، وإذا سألت لماذا هذا العلاج؟ كان الجواب: هناك مرض منتشر مثلاً أو للوقاية والخــوف من جرثومــة أو فيروس قــادم، أو هــو دواء وعلاج دوري تعطيه إدارة السجن للمعتقلين للحفاظ على صحتهم.

رمضان في كوبا

دخــل رمضان ٢٠٠٢ م، وهــو أول رمضان يمر علي في السجن، سواء كان في سجن الأمريكان أو غيرهم، لقد قلت للمحقق الأمريكي ولغــيره من الجنود والحراس، عندما كانوا يقيدونني بالسلاسل في يــديّ ورجليّ، ويقودونــي كالمجرم، يمسكون بــي كأنهم يخافون أن أهرب منهم: إن عمــري الآن، يقارب الخمسين سنة، وهي أول مرة في حياتــي توضع السلاسل على جسمي، بل هي أول مرة أدخل فيها السجن.

إن السجــن ليــس عيباً ولا عــاراً، إنــه شرف وفخر لنــا، إنكم تقودننــا إلى سجونكم زوراً وبهتانــاً وظلماً وعدواناً، إنكم لا تقودننا إلى سجونكم لأننا مجرمون، أو لسبب أخلاقي، أو غيره من الأسباب المشينــة، التــي تلحق العــار والشنــار بصاحبها، إننا لسنــا قتلة ولا معتديــن ولا مهربين للحشيشــ أو الهروين، إننــا لسنا محتالين ولا

نصابين إننا، لا نهاجم الشعوب ونقتلها ونعتقل خيرة رجالها وننهب ثرواتها، إننا لا نرفع شعارات براقة ليس لها في واقع الحياة شيء، فتجعل أفعالنا تخالف أقوالنا، نضحك في وجوه الناس لكننا نغمس الخنجر في ظهورهم، نقدم لهم باقة الورد بيد، ونخفي لهم السم في اليد الأخرى نعطيهم لقمة الخبز وجرعة الدواء في اليوم الأول، ونسقط آلاف القنابل والصواريخ على رؤوسهم في اليوم الثاني.

أين تمثال الحرية الذي وضعته أمريكا ونصبته في أكبر مدنها؟ وماذا يعني هذا التمثال بالنسبة لها، إنه هراء وعبث، وضحك على الشعوب، إنه تضييع وتضليل للبشر، إن أمريكا تعطي الحرية وتقدمها لنفسها فقط، أما الآخرون فلتنزل عليهم كل المصائب والويلات، ولتحصدهم كل الأمراض والنكبات.

دخل رمضان ٢٠٠٢ م، وكل إنسان يتمنى أن يكون في هذا الشهر بين أهله وذويه، يتمنى أن يصوم هذا الشهر الكريم في بلاد المسلمين، يؤدي صومه وصلاته مع الصائمين والمصلين، الذين تعمر بهم بيوت الله في هذا الشهر الكريم، كان السجناء يتوقعون أن يكون هنالك تغيير في السجن إذا دخل رمضان، إن بداية الصوم في السجن ودخول شهر رمضان لم يكن بخبر من إدارة السجن أو بفتوى من أي جهة إسلامية، لقد كان السجناء يرقبون الهلال في اليوم الأول من رمضان، ويمكن رؤية الهلال إن كانت السماء

صافية، ولقد يسر الله -عز وجل- في أول ليلة أن كانت السماء صافية خالية من السحب، فشاهد الكثير من السجناء الهلال، وبدؤوا يكبرون وينادون بأصواتهم العالية لبقية العنابر التي لم تشاهد الهلال، بأن غداً هو أول أيام شهر رمضان، وطلب السجناء مسؤولاً كبيراً في أول يوم من رمضان، وأخبروه أن غداً أول يوم من أيام رمضان ولا بد من توفير وجبة السحور لجميع السجناء.

وفعلاً عند وقت السحور وقبل دخول أذان الفجر بنصف ساعة تقريباً، وصل السحور إلى العنابر، وكان السحور وجبات جاهزة في أكياس بلاستيكية كل كيس يحتوي على وجبة، إما معكرونة بأشكال مختلفة، أو أرز بالفاصولياء السوداء، ثم كيس فيه قطعتا بسكويت، مع ظرف بلاستيكي صغير فيه معجون فول سوداني، ثم كيس عصير تفاح أو أناناس، ثم قطعة كيك صغيرة.

وهذه الوجبات وجبات خالية من اللحوم أو السمك أو الدواجن أو أي نوع من البروتين، أما الماء فمن الحنفية الموجودة في الزنزانة وهي حنفية للشرب والوضوء أو الاستنجاء والاغتسال، وورق الحمام يوزعونه عادة ثلاث مرات يومياً، ووجبة الغداء لا يحضرونها إلا لمن لم يستلم السحور إن كان مريضاً، أو نحو ذلك، فيقدم له الفطور والغداء، أما العشاء فيأكله مع السجناء في وقت العشاء، وهو الفطور في رمضان، وقد تأخر في الأيام العشرة الأولى من رمضان

مـا بين ساعتين إلى ثلاث ساعـات كل يوم، حسب وقت وزمن نظام السجـن في تقديم الوجبات؛ لأن تقديم الوجبات في السجن لا يتقيد بساعة معينة، سـواء تقدمت الصلاة أو تأخرت، وسواء كان الوقت رمضان، أو غير رمضان.

كان وقـت تقديم وجبـة العشاء قبل دخول رمضـان بعد صلاة العشاء، ففي الثلث الأول من رمضان تأثر السجناء وتعبوا (جاعوا) بسبب هذا التأخـر وشق عليهم ذلك لطول مدة الصيام التي كانت ثماني عشرة ساعة تقريباً، ومن المعلوم أن السجناء لا يوجد عندهم أي طعـام أو شراب يمكن أن يأكلوه فيما لو تأخر طعامهم، اللهم إلا المـاء فقط، لكن بعـد رفع الشـكاوى إلى إدارة السجن أصبح طعام العشاء (الإفطـار) بعـد الثلـث الأول من رمضان يقـدم بعد صلاة المغرب مباشرة.

أما كمية الطعـام ونوعها فهي كما يأتي خمس حبات من التمر الصغـير، مـع ملعقة عسل صغيرة، عفـواً إنه ليس عسـلاً إنه سكر محـروق في علبة صغيرة جداً، وثمرة فاكهة واحدة، وكمية من الأرز وكمية خضراوات قليلة مع قطع سمك صغيرة مع قطعتين صغيرتين مـن الخبز، هذه الكميـة قليلة جداً بالنسبة لرجـل سجين وصائم، وقـد قمـت مرة بتقديـر كميـة الأرز والسمـك والخضـراوات التي تصرف للسجين، فوضعتها كلها في كأس بلاستيكي صغير فوسعتها دون زيادة.

وقـد عانى الكثير من السجناء من الجوع لقلة الطعام، ويدلك على هذا حالة السجناء الجسمية، حيث هناك ضعف جسمي ونحول وشحـوب للوجـه واليدين عند معظـم المعتقلـين، وأي زائر للسجن يلاحظ البنية الجسمية النحيلة والضعيفة لكثير من السجناء، إنني أكاد أحصـر الوجبات التي كانت تشبـع السجين، وأقوم بعدها عداً طيلـة بقائي في السجن، فإذا هي مرات قليلة بالنسبة لأيام السجن الطويلة، ويمكـن أن أضع نسبة تقريبية لهذه الوجبات المشبعة، فلا أبالـغ إن قلـت: إنهـا ٥٪ أي من كل مئة وجبة خمس وجبات، ومتى تكون هذه الوجبات المشبعة؟

إنهـا تكون عندما يأتي حارس إلى العنبر الذي نسكنه، ويقدم الطعـام للسجناء، وتكون عنـده وجبات زائدة عن عـدد السجناء، ولديه إنسانية أو في قلبه شيء من الشفقة لهؤلاء المعتقلين، والوجبات الزائدة تكون بسبب خلو بعض الغرف من أصحابها، فنطلب منه أن يوزع على المساجين ما زاد عنده من الطعام لمن يريد، أفضل من أن يلقـي الطعام الزائـد في سلة المهملات -الزبالـة- أو أفضل من أن يرجعهـا إلى المطبخ الذي سيتخلص منها بـأي طريقة؛ لأن المطبخ لن يعيدها مرة ثانية ويقدمها للمعتقلين.

هـذا إن كان الحارس كما قلنا: عنده شيء مـن الإنسانية كما يسمونهـا هم، بالإضافة إلى أن هذا الحارس يقوم بهذا الأمر، وهو

توزيع الطعام الزائد مع مخالفة القانون؛ لأن الحارس يقول: إن القانون يقول: إنه لا يسمح للمعتقل إلا بأخذ وجبة واحدة فقط وبعض الحراس يمكن أن يعطيك وجبة زائدة ثانية، لكن بعد استئذان مسؤول العنبر، حتى لا يكتب عنه المسؤول تقريراً إلى إدارة السجن أنه يصرف طعاماً زائداً للمعتقلين، وأنه يخالف قانون السجن، أو قانون الجيش، فيضعون عليه عقوبة شديدة، وقد سمعت أن في قاعدة جوانتانامو -كوبا- سجنًا خاصًا للجيش، يسجن فيه من يستحق العقوبة منهم.

بعض الحراس لا يتعب نفسه بسؤال المسؤول، ولا بتقديم وجبة طعام زائدة للمعتقل، يقول لك: القانون لا يسمح بصرف الطعام الزائد ويستريح منك، ثم يمضي لحاله، وللحق إن قسماً منهم وهم قليل يعطيك وجبة زائدة، لكن خفية عن المسؤول، مع علمه أن هذا العمل يخالف القانون، وعندما تتكلم مع هذا الصنف من الحراس يقتنع بما تقوله له بأن كمية الطعام التي يقدمها السجن لكل معتقل لا تكفي، فيعطيك إن كان معه طعام زائد.

وهنالك حالة أخرى يمكن أن يحصل فيها السجين على وجبة زائدة، وهي فيما إذا كان أحد جيرانك في العنبر، عن يمينك أو عن يسارك صائماً أو لا يريد أكل الطعام كله أو بعضه بسبب صيام أو غيره، فهؤلاء يأخذون وجباتهم من الحراس ويهربونها لجيرانهم

عن طريق الشبك بينهم، ملعقة ملعقة والخبز والفاكهة يقطعونها قطعاً صغيرة، ويدخلونها من خلال الشبك.

أما السوائل كالشاي والحليب فيصنعون خرطوماً أو أنبوبًا من الورق أو من البلاستيك من أكواب الشاي والحليب البلاستيكية، وينقلون هذه السوائل بواسطتها من خلال الشبك، ولكن دون أن يراهم الحراس؛ لأن القانون يقول: يمنع تقديم أو تهريب الطعام للآخرين، حتى ولو لم ترد هذا الطعام عليك أن ترجع الوجبة للحارس ليلقيها في الزبالة ولا يسمح له أن يعطيها لغيره.

وبعض الصائمين لا يريد أن يتعب نفسه بتصريف الطعام وإدخاله في الشبك لغيره ولا يريد أن يقع تحت المسؤولية والعقاب، لأنه يخشى أن يراه الحراس في أثناء عملية التهريب للجيران، هذا إن كان صيام هؤلاء المعتقلين دون إخبار إدارة السجن بصيامهم، فهؤلاء تقدم لهم الوجبات على ظن أنهم مفطرون، فيأخذون الطعام ويعطونه لغيرهم، أما إن كان صيامهم عن طريق إدارة السجن، ففي هذه الحالة لا تقدم لهم إدارة السجن إلا وجبة السحور ووجبة الإفطار (العشاء) ولا تقدم لهم وجبة الغداء.

في كل يوم من أيام الجمعة يأتي الحارس ومعه قائمة يسجل فيها (أرقام غرف) من يريد الصيام، وترفع هذه القوائم لإدارة السجن، وتنزل أسماؤهم في الكمبيوتر للأسبوع القادم؛ لأن كل عنبر

فيه كمبيوتر فيه أرقام السجناء، وأرقام غرفهم وفيه كل الملاحظات الإيجابية أو السلبية لكل سجين، وفي ليلة الإثنين وليلة الخميس يأتي الحارس ويقدم لكل صائم، وجبة السحور، وجبة جاهزة تقدم الكلام عليها يسمونها وجبة عسكرية مدة ثلاثين دقيقة.

ويوم الإثنين والخميس لا يقدم لك وجبة فطور ولا غداء، لكن يقدم لك وجبة عشاء كبقية السجناء، بعض الصائمين ربما يطلب وجبة فطور أو غداء من الحارس مع أنه صائم لكن لا ليأكلها بل ليعطيها لجيرانه المفطرين أو يحتفظوا بها إلى وقت العشاء، لكن كثيراً ما يرفض الحارس ذلك لأن معه قائمة فيها (أرقام) الصائمين، والتسجيل للصيام ليس ليوم الإثنين والخميس من كل أسبوع فقط، بل لكل مناسبة فيها صيام عند المسلمين مثل العشر الأوائل من ذي الحجة أو صوم يوم عاشوراء وهكذا.

في بداية رمضان ٢٠٠٢م طلبوني للتحقيق وذهبت كالعادة مقيدًا بالسلاسل، دخلت الغرفة، بعد دقائق جاء المحقق، لكنه محقق جديد، عرفني باسمه ولا أدري إن كان هذا الاسم هو اسمه الصحيح أو اسمًا مستعاراً والرأي الثاني أرجح؛ لأنك تجد أكثر من محقق لهم الاسم نفسه، وهذا في أغلب الأحيان، لكن ربما يكون الاسم صحيحاً، بدأ هذا المحقق معي عن سيرتي الذاتية باختصار، وفتح معي أسئلة وموضوعات سبقه بها محقق آخر قبله، كان المحقق الأول قد سألني عنها دون توسع.

لكن المحقق الجديد، بحثها معي بتوسع، كان بيني وبينه مترجم، سألني عن أشخاص في بيشاور، بعضهم ترك باكستان وبعضهم لا يزال فيها يعمل في مؤسسات إغاثية وإنسانية، سألني عن أسمائهم ومكان عملهم ونوع العمل، وهل يدخلون إلى أفغانستان أم أن عملهم في باكستان بين المهاجرين وهل تعتقد أن المال الذي بيد هذه المؤسسات كافٍ أو يزيد عن حاجتها وإن زاد عن حاجتها فهل يمكن أن يقدموه للجهاد، أو المقاتلين في أفغانستان، ومن هي هذه الجهة التي يقدم لها المال وأين مكانها، وكم في تقديرك هذا المال المتوافر، وهل هو دوري أو سنوي، أو نادراً، سألني عن أسماء أولاد هؤلاء العاملين في المؤسسات، الذكور والإناث، إن كانوا صغاراً فأين يدرسون وإن كانوا كباراً فأين يعملون، كيف تعرفت على هؤلاء الأشخاص وأين التقيتهم، سألني عن زوجات هؤلاء من أين هذه الزوجة، وما اسمها، وهل هي متعلمة وتعمل أم لا؟

سألني عن رواتب هؤلاء العاملين وهل هي كافية لهم أم غير كافية؟ هل يوفرون منها أم لا؟ وإن كانت غير كافية فهل لهم طرق أخرى يسدون بها نقص حاجياتهم؟ وإن كانت كافية يوفرون منها فهل تعتقد أنهم يقدمونها أو يتبرعون بها إلى جهات، وما اسم هذه الجهات؟ وأين هي؟ هؤلاء العاملون في باكستان الآن سألني عن طولهم وعرضهم ولونهم، علامات فارقة لكل واحد منهم

إن وجـدت، هل اللحيـة طويلة أم قصيرة، بيضـاء أم سوداء؟ شعر الرأسـ، لونـه وطوله، يلبس علـى رأسه شيئـاً أم لا يلبس؟ وإن كان يلبسـ فهل يلبس طاقية أم غترة أم شيئاً آخر، ومن خرج من هؤلاء الأشخاص من باكستان؟ متى خرج؟ وكيف خرج؟ ولماذا خرج؟ ومن ساعـده في الخـروج إن كان فقيراً؟ وأين ذهب بعـد خروجه؟ وهل كان هـؤلاء يقيمون في باكستـان بطريقة شرعيـة ورسمية أم كانوا مخالفين لقوانين البلد؟

كنت صادقـاً في إجابتي له عن هذه الأسئلـة وكان هادئاً وهذا الهدوء يتناسب مع عمره لأني شاهدت الشيب في رأسه، فقدرت أنه في العقـد السادس مـن عمره، لكنه أحرجنـي في سؤاله عن أسماء زوجات هـؤلاء الناس أو صلة القرابة بـين الرجل وزوجته، قلت له: عندنا في الإسلام أو عند الملتزمين من المسلمين، يرون أنه من العيب أن يعرف الناس اسم زوجته أو بناته، مع أن هذا الأمر غير حرام في الدين، وأسماء زوجات الرسول ﷺ، وأسماء بناته، وأسماء زوجات كثير مـن الصحابة وبناتهـم -رضي الله عنهـم أجمعين- معروفة ومشهـورة في كتـب التفسـير والفقـه والحديث والتاريـخ وغيرها، وكذلك أسماء زوجات التابعين وتابعيهم ومن بعدهم حتى الآن، ولما كنت أعتذر له عن عدم معرفة أسماء النساء، كان يتقبل هذا الأمر بهدوء ويبتسم.

أمـا عن طريقة معرفتي بهؤلاء العرب الذين كانو في باكستان، سواء الذين كانوا يقيمون فيها في أثناء وجودي هناك، وقبل اعتقالي في ٢٠٠٢/٥/٢٥م، أو الذيـن خرجوا منها فقلت له: إن مكان سكني في حيـاة أباد بيشاور منعزل عن العـرب، وبعيد عن تجمعاتهم، ولا يوجـد حولي أي أخ عربي، ولا يصلـي في مسجد الحي الذي أسكنه أي عربـي غيري وغير أولادي، وأنا طبيعتي وعادتي أنني لا أحب أن أذهب إلى تجمعات العـرب أو مهرجاناتهم أو محاضراتهم، وأحب أن أعيشـ منعزلاً ومنفرداً عن الناسـ، وزياراتي للعرب في بيشاور تـكاد تكـون معدومة، إلا من زيـارة بعض الأرحـام والأقارب، حتى الذين يشتركون معـي في العمل لا أذكر أني زرت بعضهم أبداً طيلة مدة العمل التي استمرت سنوات.

وبعضهم ما زرته إلا في مناسبة العيد أو مناسبة عقيقة أو مولود أو نحو ذلك، وأماكن معرفتي بهؤلاء الناس كان في يوم الجمعة، بعد صـلاة الجمعة أو في أيـام العيد بعد صلاة العيد أو في أثناء زيارات العيـد البيتيـة، وبعضهم الآخر نلتقي بهم في الأفـراح والأعراس أو المـآتم عند موت أحد العرب، أو ربمـا عرفت بعضهم بحكم وجودي في معهد الأنصار العلمـي، يأتي بعضهم وهم أولياء أمور طلاب في المدرسة، للسؤال والاستفسار عن أحوال أولادهم الدراسية أو لدفع أقسـاط أولادهم الشهرية، أو لأي مناسبة أخـرى تقيمها المدرسة،

لكنــه قــال في نهاية الجلســة: أشكرك على هذه الإجابـات، إن كان لديــك أي سؤال أو طلب فتفضل بــه؟ قلت: لا يوجد عندي أي سؤال ولا أي طلب.

قال: إن كنت تريد أن تقرأ من هذه المجلات والجرائد الموجودة علــى الطاولة فــلا مانع ؟ قلــت: لا أستطيــع أن أقــرأ إلا بنظارتي، وقــد نسيتها في الغرفــة، سأحضرها في المــرة القادمة؛ لأتمكن من القراءة، لكن سأحاول أن أقرأ من دون نظارة قدر ما أستطيع، قال: اقــرأ حتى يأتي الحراس لإرجاعك إلى غرفتك، ثم انصرف، كانت هناك عشر دقائق قرأت فيها، لكن المجلات والجرائد كانت قديمة وأخبارها لا تهمني من قريب ولا من بعيد وأكثرها يصدر من خارج العالم العربي.

حضر الحراس وأرجعوني إلى الزنزانة، مضى أسبوعان تقريباً، وجــاء الحراس وقالوا تحقيق، قلت: حاضــر، تم التقييد بالسلاسل الأيدي والأرجل والوسط، وأحب أن أذكر هنا أن إدارة السجن بدأت بتغيــير طريقة تقييد السجين وقامت بفتــح نافذة صغيرة أخرى في أسفل باب الزنزانة؛ ليتم تقييد؛ الرجلين من هذه النافذة والسجين واقــف، وقد سمعــت من بعضهم أن هذا الأمــر الجديد حفاظ على الحراس؛ حتى لا يقوم أحد المعتقلين بضرب الحارس مثلاً في أثناء تقييده، لأن طريقة التقييــد القديمة يمكن للسجين في أثناء تقييده

أو فكــه أن يضــرب الحارس، هذا من جهة، ومــن جهة أخرى حتى تكون طريقة التقييد الجديدة أكثر أماناً وضبطاً للسجين.

لقــد سبق الــكلام عن طريقة التقييد القديمــة، وذلك عندما تكلمنــا عن السجــن الانفــرادي في الأسبوع الأول مــن وصولنا إلى كوبا، وعندما تكلمنا عن الخــروج للمشي والحمام في تلك الحقبة، أما الطريقة الجديــدة وإن كانت إدارة السجن قد غيرتها للجوانب الإيجابية والأمنية التي تعود عليها وعلى الحراس، فإنها أكثر راحة وأقل تعباً من الطريقة القديمة، كما أنها أحسن وأفضل من الناحية النفسيــة للسجــين؛ لأنه ليس فيها جلوس علــى الركب على الأرض، وليــس فيها وضع اليدين خلف الرأس، كلما أرادوا أن يخرجوك من الزنزانة لأي سبب من الأسباب أو يرجعوك إليها.

الآن وقــف الحارســان بباب الزنزانــة ينتظرانــك للاستعداد لتقييــدك، ثــم إلى التحقيــق وبيــان ذلــك كالآتي: تقــف على باب الزنزانة من الداخــل ملتصقاً بالباب ووجهك نحو الحارسين، تمد يديــك من نافذة الباب للحارســين، يقيدان يديك ثم تستدير لهما، وظهرك ملتصق بالباب من الداخل، أحدهما يمسك السلسلة التي يربط فيها لأنها كلها قطعة واحدة متصلة ببعضها بعضا والحارس الآخــر يقوم بربط وسطــك بالسلسلة وقفــل السلسلة بقفل حديدي مــن جهــة ظهرك، أنــت الآن مقيــد اليدين ويــداك مشدودتان من

الأمــام على خاصرتــك لا تستطيــع رفعهما أو خفضهمــا إلا قليلاً، يقــوم الحارس الذي قيد يديــك وخصرك بإنزال طــرف السلسلة إلى الأسفل نحو قدميك، ويفتــح النافذة السفلى، يمد يديه ويربط قدميك من الكعبين ويغلق النافذة.

أمــا الحارســ الآخر فــلا يزال يمســك بالسلســة التي تحيط بخصــرك لا يفلتها من يده، يقوم الحارس بفتح باب الزنزانة حتى تخــرج، يمسك بــك الحارســان الأول والثاني أحدهمــا عن يمينك والآخــر عن يســارك، الآن عملية التفتيش تفتيــش جسماني دقيق، وهز وتحريــك لملابسك؛ حتى لا يكون فيهــا أي شيء عالق، تفتيش الشعــر والرأس واللحية، تفتيش الحــذاء -الشبشب- الذي تلبسه، طي الحذاء والتدقيق فيه.

وهذا التفتيش إما أن يكون داخل الزنزانة ووجهك نحو جدارها، وإمــا أن يكون على باب الزنزانة من الخارج، في الكرادور- البهو- الــذي يوجد على طول العنــبر بين غرف العنــبر، كل حارس يفتش الجهــة التــي يوجد فيهــا، تمشي بينهمــا، وكل حارســ إحدى يديه علــى كتفك واليــد الثانية يمســك بالسلسلة التي تحيــط بوسطك، وصلنــا إلى باب غرفة التحقيق، أحد الحارسين مسؤول عن الآخر، والمسؤول عادة هو الذي يحمل جهاز الاتصال.

قبــل دخول غرفة التحقيق، يتصل الحارســ المسؤول بالمحقق، لقــد وصل السجــين إلى باب غرفــة التحقيق، نحــن نسمع الكلام، يكــون الجواب كما هو ظاهر من الكلام، إما أن تدخل مباشرة وإما أن تنتظــر قليــلاً على الباب، وهذا الاتصال يقــوم به هذا الحارس عندمــا يأخذك مــن الغرفة، وعندما تعود إليهــا، وهذا يكون في كل مرة أذهب فيها إلى التحقيق، أو يذهب إليها كل سجين.

تدخــل غرفة التحقيق، حيث يقوم أحــد الحارسين بفك يديك يــداً بعد أخرى، اليــد الأولى يفكها ثم يضعها علــى رأسك ويمسك بــك الحارس الآخــر بإحدى يديه علــى منكبك والثانيــة على يدك التي توجد على رأسك، يفك لك الحارس اليد الثانية ويضعها على رأسك فوق يدك الأولى، لكن يمنع رفعها عن رأسك، يقوم الحارس بربط السلسلة التي تصل بين قدميك بحلقة مثبتة في الأرض، يبتعد الآن الحارسان عنــك قليلاً، الآن بإمكانك إنزال يديك عن رأسك؛ لأن الحارسين الآن في أمان.

أنــت الآن لا تستطيع أن تقوم بعيداً عن كرسيك بسبب تقييدك بالحلقــة المثبتــة في الأرض، دقائق ويأتي المحقــق، وبعض المحققين تجــده ينتظــرك، لكن بعضــ المحققين ربمــا يتعب السجــين نفسياً وعصبياً، قد يتركه ينتظر على الكرسي في غرفة التحقيق، ساعات طويلــة دون أن يحضر إلى غرفــة التحقيق، وربما يفتح عليه المكيف

البارد ساعات طويلة، ثم يتصل هذا المحقق بالحراس؛ ليرجعوا السجين إلى غرفته، قد يكرر هذا مرات.

دخلت إلى غرفة التحقيق، بعد (٥-١٠) دقائق حضر المحقق، فإذا هو صاحب الجلسة الماضية لكن المترجم جديد، بدأ يعيد على أسئلة الجلسة الماضية؛ ليرى هل عندي شيء جديد أضيفه زيادة على ما قلته بالأمس، غلب علي ظني أنه يريد أن يتأكد اليوم مما قلته في الجلسة الماضية وأن ما سمعه مني صحيح، وأني ثابت على أقوالي، لكنه اليوم أضاف أسئلة جديدة، منها بوصفك قريبًا للشيخ عبدالله عزام فمن قتل الشيخ عبد الله عزام؟

الجواب: لا أدري، هل هناك جهة متهمة بالتآمر على قتله؟ فقلت أيضاً لا أدري، هل له أعداء يمكن أن يكونوا وراء قتله؟ فقلت: أيضا لا أدري، ثم قلت له: أنتم مخابرات قوية مترامية الأطراف وفي كل الأرض، يمكنكم أن تعرفوا وإن لم تعرفوا وأردتم أن تعرفوا، فيمكنكم أن تعرفوا وتخبروا أهله بالمتورطين في قتله، ثم طرح سؤالاً آخر عن مكتب الخدمات، وهل لا يزال موجودًا؟ أله نشاط ودور يمكن أن توجه إليه أصابع الاتهام في المشاركة في الأحداث الأخيرة في واشنطن ونيويورك؟ قلت له: لقد انتهى مكتب الخدمات وأغلق أبوابه منذ سبع سنين تقريباً وقامت الحكومة الباكستانية باعتقال رئيسه ثم تسفيره إلى خارج باكستان قال في ظنك أين ذهب ؟ قلت: سمعت أنه ذهب إلى السعودية.

ولما انتهى المكتب من باكستان وسافر إلى السعودية لم يعد له أي وجود أو نشاط لا في باكستان ولا في غير باكستان. أظن أنه اقتنع بما سمع، لأن الباكستانيين يعرفون عن مكتب الخدمات وعن المؤسسات الإغاثية في باكستان كل شيء، وأظن أنهم أخبروا الأمريكان بهذه المعلومات إن طلبوا منهم ذلك، لأن هذه المؤسسات مسجلة لدى الحكومة الباكستانية، أما العاملون في هذه المؤسسات فإنهم يحملون إقامات رسمية من الحكومة الباكستانية أيضاً.

قال: هل تعرف عبد الله أنس؟ قلت: نعم إنه صهر الشيخ عبدالله عزام -رحمه الله- قال أين هو؟ قلت: هو في بريطانيا- لندن، قال: ماذا يفعل هناك؟ قلت: إن علاقته بالحكومة الجزائرية غير جيدة، وهرب من باكستان منذ عشر سنين إلى لندن، قال: تقول الأخبار أو سمعت أنه قتل في لندن، قلت له: رحمه الله، ماذا سأفعل له، قال: هل ذهبت إلى معسكرات التدريب.

قلت :لا، قال: سمعت أنك ذهبت إلى معسكر صدى.

قلت له: ذهبت له في مخيم صيفي مدة أسبوع مع الطلاب الذين كنت أدرس لهم، وليس للتدريب، لقد كان معسكرًا رياضيًا تربويًا مع طلاب وأساتذة المعهد الذي كنت أعمل فيه، كان فيه تدريبات رياضية، تسلق للجبال محاضرات ثقافية، ليس في هذا

المخيم تدريب على أي نوع من أنواع السلاح أو المتفجرات، وطلاب المعهد الذي كنت أعمل فيه في أفغانستان، لو أرادوا التدريب فيوجد عندهم أحزابهم وتنظيماتهم الجهادية، عندهم جبهات للقتال والجهاد في أفغانستان، عندهم مدنهم وقراهم فيها ما يريدونه من التدريب والسلاح. قال المحقق: اليوم يكفي وإذا احتجناك فسوف نستدعيك فيما بعد.

نظرت إلى طاولة عن يميني، فإذا عليها مجلات وجرائد قلت له: أتسمح أن أقرأ، قال: لا بأس، إن أردت، بدأت أقرأ، لكنها قديمة وموضوعاتها لا تهمني ولا تتكلم عن المشكلة التي نحن فيها، لكن لأن السجن لا توجد فيه أي وسيلة إعلامية، ويعيش السجين في جزيرة مغلقة، فإن أي خبر أو موضوع جديد يثير انتباهه، تصفحت منها ما استطعت قبل حضور الحراس لإرجاعي إلى الزنزانة، جاء الحراس ورجعت.

مرت مدة طويلة دون أن يطلبني أحد للتحقيق، لكنه بعد ثلاثة أشهر ونصف تقريباً جاء الحراس، وقالوا: أنت مطلوب للتحقيق، قلت: جاهز، بدأت أعمال التقييد بالسلاسل والتفتيش الجسماني، ثم سرت مع الحراس إلى غرفة التحقيق، وجدت المحقق جالسًا وهذا المحقق نفسه يجلس معي الآن الجلسة الثالثة على التوالي، أما المترجم فهو جديد، قال لي المحقق هل تعرف فلانًا؟ ذكر لي اسمه لكنني نسيت اسمه.

قلت: لا أعرفه، قال: هذا شخص من تنظيم القاعدة ألقينا القبض عليه قبل مدة قصيرة، إنه شخص كبير وخطير. قلت: يمكن كما تقول، لكني لا أعرفه ولا أسمع به، بدأ يسألني عن العراق وعن صدام حسين وكانت هنالك أخبار يتناقلها السجناء لا أعلم مدى صحتها تقول: إن النظام العراقي بقيادة صدام حسين قد سقط بيد الأمريكان وإن القوات الأمريكية دخلت العراق، قال: ما رأيك في صدام حسين؟

قلت: إنه رجل طاغية، ظلم شعبه وأنزل بهم أشد أنواع العذاب والتنكيل، كمَّم الأفواه، صادر الحريات، جعل العراق له ولعائلته، هكذا يقول أهل العراق عنه، أباد بأسلحته الكيماوية قسماً من شعبه لا ذنب لهم، غزا بجيشه الجرار دولة مجاورة صغيرة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها، وجيشه أوقع بهذه الجارة خسائر كبيرة، سمعنا أنه نهب خيراتها في أثناء الغزو، أحرق قسماً من بترولها، وأشعل حرباً مع جيرانه على الجانب الآخر (الشرقي) من العراق عشر سنين سقطت في هذه الحرب الآلاف بل عشرات الآلاف، من القتلى والجرحى من الطرفين، والتكاليف عشرات المليارات من الجانبين.

وأخيراً انتهت الحرب بينهما دون تحقيق أي مكسب لأي أحد منهما، إذ الخسائر البشرية والمادية بينهما باهظة جداً، هذا هو

صدام حسين، فلو ذهب من سيأسف عليه، لكنّ هناك سؤالاً مهمًّا هو: من هو الذي سيخلف صدام حسين؟ نخشى أن يكون أظلم منه عندها سيقول الناس: الله يرحم صدام. ثم انتقل إلى سؤال آخر وسألني عن الإخوان المسلمين؟ وقد كان يظن أنني منهم وأنا لا أدري ما الذي جعله يظن أنني من الإخوان المسلمين؟

قلت: إنك تظن أنني من الإخوان المسلمين، أنا لست منهم، قال: هم الآن دخلوا في برلمان بعض الدول العربية وحكوماتها، قلت: سمعت أنهم دخلوا في البرلمان المصري والأردني، قال: هم الآن يعملون في الأعمال السياسية، قلت: نعم لهم أنشطة تربوية في المدارس والجامعات والمعاهد والمساجد ودور القرآن الكريم، بالإضافة إلى العمل السياسي والبرلماني، قال: هل لهم في الأردن مكتب أو مركز؟ قلت: أذكر منذ عشرين سنة أنه كان لهم مكتب في عمان، بل سمعت أن لهم في كل مدينة مكتبًا أو مركزًا وهم الآن حزب سياسي مرخص من قبل الحكومة الأردنية، وعلاقتهم مع الحكومة الأردنية طيبة.

قال: لو أنني جئت إلى الأردن وزرتك هل تستقبلني في بيتك ؟ قلت له: نعم، قال: سؤال أخير عن المدرسة التي كنت تعمل فيها: هل خلفها مؤسسة أو جهة تدعمها مالياً؟ قلت له: إن هذه المدرسة تتبع المعاهد الموجودة في الجمهورية العربية اليمنية وتشرف عليها

مباشرة السفارة اليمنية في إسلام آباد، توقع الأوراق والشهادات الصادرة عنها، وأي تعليمات أو توصيات تصل إلينا من اليمن، تكون من خلال السفارة اليمنية في إسلام آباد، لكن اليمن، أو سفارة اليمن، في إسلام آباد لا تقدم لنا أي دعم مالي، لا يصل إلينا من اليمن إلا الكتب المدرسية فقط.

أما تمويل المدرسة المالي، فمن المحسنين والمتبرعين ومن الأقساط الشهرية الطلابية. انتهت الجلسة وانصرفت راجعاً إلى غرفتي مع الحراس، بعد هذه الجلسة مكثت نحو عشرة أشهر لا أذهب فيها إلى التحقيق، فقرابة ثلاث مئة يوم، سنة تقريباً، كنت خلال هذه الحقبة أتنقل بين العنابر، وهذا الانتقال كان بسبب ترميمات وتصليحات تقوم بها إدارة السجن للعنابر، ترميم الألوان - الدهان- إجراء تغييرات في غرف السجن تقتضيها الظروف، وكانت الإضاءة وسط العنبر في الكرادور- البهو- قد أصبحت بعد الترميم في داخل الغرف.

والسرير كان مرتفعًا أكثر من متر عن الأرض، فأصبح الآن يرتفع من (٣٠-٤٠) سم تقريباً، وينزل منه لوح حديدي إلى الأرض يغلق الفراغ الموجود تحته، كان لون العنبر من الداخل كله أخضر، الجدران من الداخل والخارج والممر بين الغرف داخل العنبر كله أخضر، وهذا كان يؤذي العينين ويؤثر على النظر فيما لو نظرت من

خـلال الشبوك عن يمينك أو عن يســارك أمامك أو خلفك، أصبح اللون الجديد أكثر راحة للعينين.

مـن الداخل مـن جميع الجهات مـن الأرض حتـى ارتفاع متر ونصـف أخضر، ثم مـن ارتفاع متر ونصف وحتـى مترين ونصف باللـون الأسود، ومـن مسافة متريـن ونصف وحتى سقـف الغرفة باللـون الأخضـر، أمـا السرير فقد نزل مـن الارتفـاع القديم إلى هـذا الارتفاع الجديـد؛ لأن السرير في حالة الارتفـاع كان يستعمله المسجونون للضرب والإزعاج الشديد، فيحدث أصواتاً مرتفعة جداً خاصة إذا كان الضرب بشكل جماعي.

وهــذا يفعلـه المسجونون عندمـا كانوا يطالبـون إدارة السجن بأمـور ومتطلبـات ترفضهـا إدارة السجـن، أو كان عنـد المساجين مشكلـة يريدون أن يحضـر المسؤول عندهم، فيرفض الحضور أو يتأخر، فيضربـون على الأسِرّة فتحدث أصواتـاً عالية مما يضطر الإدارة إلى تلبيـة مطالبهم، أو التفاهـم مع السجناء، لكن الضرب على الأسِرّة كثيراً ما يؤدي إلى فرض عقوبات على المساجين، وذلك بسحب بعض حاجاتهـم وأغراضهم، أو بنقلهم مـن عنبرهم إلى عنبر آخر.

المعسكر الرابع

في المدة التـي انقطع عني فيها التحقيق، أقامت إدارة السجن سجناً جديداً يسمى المعسكر الرابع(Camp 4) هذا المعسكر يختلف عـن العنابر التي يعيش فيهـا بقية السجناء، فهـو يبتعد قليلاً عن السجن القديم ومعزول عنه، مكـون من (٤-٥) تجمعات متقاربة، كل مجموعة فيها (٣-٤) غرف كبيرة، ولها ساحة كبيرة أمام هذه الغرف، يحيـط بهذه الساحة جدار حديـدي مشبك وكل غرفة من الغـرف تتسع إلى (١٠-١٢) سجينًا، الغرفـة كبيرة وأسِرّتها مثبتة بجدران الغرفة، الأسِرّة في أطراف الغرفة.

أمـا وسط الغرفـة ففارغ لا يوجـد فيه شـيء، الغرفة مراقبة بكاميرات وشاشـات تلفزيونية، إن هذا يعني أن أي حركة في داخل الغرفـة تظهر على شاشات التلفزيون أمـام المراقب، وفي داخل كل غرفة حمام لقضاء الحاجة، وخارج الغرفة بل وخارج التجمع الذي

يضم (٣-٤) غرف، يوجد حمامات اغتسال كثيرة لجميع السجناء، هـذا المعسكر الجديد الذي اسمه المعسكـر الرابـع (Camp 4) له نظام خاص يختلف عن النظام في السجن القديم دلتا:

أولا : اللباس في هـذا المعسكـر يختلـف عن اللبـاس الموجود في السجن القديم، اللباس هنـا أبيض، البنطلون والقميص، أمـا الحذاء فيوجد مع كل واحد حـذاء خفيف - شبشب - بالإضافة إلى حذاء رياضي- بوت -.

ثانيا: الحزام هنا لا يوجد به سلاسل حديدية مثل السجن القديم دلتا، هنا حزام قماشي على الوسط، بالإضافة إلى حلقتين لليديـن متصلتين مع الحزام، مـن الأمام جهة البطن، ولا يوجد تقييد للرجلين.

ثالثاً: الطعـام: كمية الطعـام التي تعطى هنـا للسجين أكثر من كمية الطعام التي تعطى للسجين في السجن دلتا.

بالإضافـة إلى بعض الأنـواع الأخـرى، مثـل قطعـة كيك أسبوعيـاً لكل سجـين، كمية الطعام هنـا تعطى لكل غرفة في صناديـق وأوعية، وكل غرفة لها أمير يتسلم الطعام من الحراس، ويقوم السجناء بتوزيعه على أنفسهم دون تدخل من الحراسـ، بخلاف العنابر القديمة فـإن الحراس هم الذيـن يوزعون الطعام على السجناء، أيضاً في هذا العنبر يمكـن للسجنـاء أن يأكلـوا مجتمعـين إذا أرادوا، بخلاف السجن القديم لا يمكنهم ذلك.

رابعاً: الحراس هنا قلما يدخلون إلى غرف هذا السجن، فدخولهم نـادر وعند التفتيش، أو عند تسلـم أو تسليـم الملابس أو الطعام.

يوجـد حارس واحد علـى باب السجـن، فالسجين هنـا يشعر بنـوع من الحرية ورفع القيود عنه، بخـلاف السجن القديم، يمكن للسجنـاء هنـا أن يصلوا جماعة كجماعة المسجـد، صفاً أو صفوفاً متصلـة، فذلك يستحيل في السجن القـديم، في هذا السجن يخرج السجنـاء خـارج غرفهـم ثلاث مـرات للطعـام [الفطـور والغداء والعشاء] كل مرة نصف ساعة وقد تزيد قليلاً، ويخرجون للرياضة أو الحمام والاغتسال يومياً إذا أرادوا ويمكن أن يلتقي سجناء غرف كل مجموعة ثلاث أو أربع غرف في ساحة مجموعتهم، فيجتمع مثلاً (٢٠-٣٠) سجينًا في الساحة يومياً.

قالـت إدارة السجن: إن من يذهب إلى هـذا المعسكر فسيقيم فيـه قليلاً، ثم يسافر إلى بلده، وبالفعل طبـق هذا النظام قليلاً في البداية، لكن تبين فيما بعد أنه ليس كل من يذهب إلى هذا المعسكر قد انتهى تحقيقه وسيسافـر إلى بلده؛ لأن إدارة السجن والمحققين

بدؤوا يرجعون كثيراً من السجناء من المعسكر الجديد إلى العنابر القديمة، إما بطلب من السجناء أنفسهم، أو بسبب التحقيق، لأن السجناء مثلاً رفضوا الكلام في التحقيق، أو أعطوا معلومات غير صحيحة، وسمعت أن بعضهم أرجعوه من دون أي سبب.

وبعض الذين رجعوا من هذا المعسكر قالوا، محللين: إن هذا المعسكر الجديد أصبح مصيدة أو وسيلة ضغط على السجناء، إما أن تقدم لنا ما نريد أو نرجعك من هذا المعسكر الذي توجد فيه مميزات وخصائص لا توجد في السجن القديم، هذا الشرط لم يتكلم به أو يشترطه أحد من المحققين على السجناء، لكن هذا كان لسان الحال، وليس لسان المقال، فكل ما كان يجري في هذا السجن يدل على هذا الشرط، يقولون: قدم لنا كذا، نعطك كذا، هذا الشرط لم يكن لجميع السجناء، بل لبعضهم.

المعسكر الجديد ليس فيه جنسية واحدة، بل فيه من جميع الجنسيات من العرب والعجم.

لقد ظنت إدارة السجن، أن السجين إذا تعود على نمط وشكل من الحياة في المعسكر الجديد، من حيث الأكل أو حرية الخروج خارج الغرفة أو الرياضة والاستحمام اليومي أو ... إن تعود على هذه الامتيازات، والتوسع في الحياة الجديدة، فربما لا يستطيع أن يترك هذه الحياة فيما لو طلبوا منه ذلك، وسيقدم تنازلات ويضعف أمام الضغط الجديد من أجل أن يبقى في هذه الحياة الجديدة.

وهذا الضغط أو المساومة لم تكن لكل السجناء في المعسكر الجديد بل لبعضهم، ولقد سمعت أن بعض السجناء الذين رجعوا من المعسكر الجديد إلى المعسكر القديم، تأثرت نفسياتهم وظهر عليهم الحزن وعلامة عدم الرضا لما حصل لهم، وبعضهم كان الأمر عليه طبيعياً، وقال: ما دام أنه كله سجن، فلا نأسف إن أرجعونا من المعسكر الجديد إلى المعسكر القديم، لكن بعض السجناء كان عنده إيثار لإخوانه السجناء ورفض أن يعيش في المعسكر الجديد (الرابع) صاحب الامتيازات، دون إخوانه الآخرين وقال: أعيش كما يعيش بقية إخواني السجناء، ولا أتميَّز عليهم بطعام أو لباس أو....

وهذا الإيثار ورفض التميز عن الآخرين، شاهدناه في حالات كثيرة، منها: إن إدارة السجن قدمت في مرتين طعاماً متميزاً، لحماً مشوياً وعصيراً ... وهذا طعام غير الطعام المعتاد الذي يقدم لكافة السجناء، فرفض الكثير من السجناء أكل هذا الطعام وقالوا: لا نأكله وحدنا دون كافة إخواننا السجناء، خاصة أن هذا النوع من الطعام قدموه لعنبر أو عنبرين، وكانت أجهزة التصوير والكاميرات تصور هذا المشهد، على غير المعتاد من وجبات الطعام الأخرى، فكأن هذا المشهد فيلم تريد إدارة السجن تسويقه ونشره في الخارج، بأن هذا هو الطعام الذي يقدم للسجناء في معسكر جوانتانامو، إنه طعام من أجل الإعلام، وليس في الحقيقة الطعام الذي يقدم دائماً.

شاهدنا هذا الإيثار عندما تكون هناك عقوبات لبعض السجناء، وتسحب منهم بعض الأغراض، فإن بعض السجناء غير المعاقبين كانوا يصرون ويؤكدون أن يكونوا متساوين مع المعاقبين، ولذا كانوا يرجعون إلى الحراس ما لديهم من الأغراض التي يتميزون بها عن إخوانهم المعاقبين، وقالوا: نعيش بأغراض مثل أغراض إخواننا المعاقبين، ولا نتميز عنهم بأي شيء، والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

وفي هذا السجن- الرابع- أصبحت هناك عملية فرز في داخل هذا السجن، لمن يريد أن يخرج من السجن ويرجع إلى أهله، وذلك بتخصيص غرفة لمن أنهى كل ما يريده المحققون منه، وظهرت براءته، وأنه يستحق السفر إلى أهله، وهذه الغرفة توجد في كل مجموعة من المجموعات الخمسة في هذا المعسكر، وتسمى (غرفة المسافرين) من يدخل هذه الغرفة يلبس اللباس الكاكي، وهذا اللباس يعني أن صاحبه على أهبة السفر، والخروج من كوبا إلى وطنه.

درجات السجن

عندما وصلنا إلى قاعدة جوانتنامو في جزيرة كوبا مع بداية الشهر الثامن لعام ٢٠٠٢ م لم يكن هناك درجات في عنابر السجن، واستمرت هذه الحالة مدة (٥-٦) أشهر، لكن يبدو أن إدارة السجن -كما سمعنا- أرادت أن تصنف السجناء في العنابر حسب التزامهم بقوانين السجن، وبحسب مشكلاتهم مع الحراس دون النظر إلى ملفاتهم أو التهم الموجهة إليهم، فالدرجة التي يكون فيها السجين لا علاقة لها بالتحقيق ولا بنظافة ملفه من التهم والمشكلات الموجهة إليه.

قسمت إدارة السجن العنابر التي يوجد فيها السجناء إلى أربع درجات:

الدرجة الأولى، الدرجة الثانية، الدرجة الثالثة، الدرجة الرابعة، وجعلت عنابر الدرجتين الأولى والثانية في جهة واحدة

ومجمع واحد بجانب بعضهما، وعنابر الدرجتين الثالثة والرابعة في مجمع آخر بجانب بعضهما.

الدرجة الأولى: يكون في هذه الدرجة السجين الذي لا يعمل أي مشكلات، سواء مع السجناء أو مع الحراس، أو مع الضيوف والزائرين، ولا يقوم بالاعتداء والتخريب لممتلكات السجن، سواء الأغراض التي تقدمها له إدارة السجن أو الأغراض التي توجد في الغرفة، وإن كانت الغرفة كلها حديدًا، لا يجوز للسجين أن يقوم بتخريب أو تكسير ما في الغرفة، وهذه الدرجة يتسلم صاحبها فرشة نوم كبيرة، وقطعة إسفنج يصلي وينام عليها، أو يجلس عليها عند الأكل، أو غير الأكل، وبطانيتين كبيرتين، وقطعة صابون كبيرة، وفرشاة ومعجون أسنان، وفانيلة حمراء ناعمة، بالإضافة إلى الفانيلة الحمراء التي توجد معه، وزجاجة عطر صغيرة أو زجاجتين صغيرتين، ومسبحة وطاقية صغيرة للرأس، ومجموعة من الكتب الإسلامية وغير الإسلامية حسب الرغبة.

لكن سحبت الكتب جميعها بعد مدة، ويوجد معه كوب من البلاستيك يشرب به ويستعمله في الحمام، وإن أراد قارورة ماء يملؤها ويشرب بها مع غطائها الذي سيكون له شأن فيما بعد، فهو سداد إسفنجي للأذنين، ومن حقه أن يأخذ ورقة وقلمًا من الحارس مدة ساعات ويرجعه، وإن أراد يطلبه مرة أخرى يكتب أو يرسم ما

يريد، ومن حقه أن يخرج كل يوم إلى مكان المشي والرياضة والمشي نصف ساعة، ويغتسل يوماً بعد يوم، ويحتفظ بالطعام المغلف غير المكشوف (٢٤) ساعة، ويصرف له شيء من الطعام الزائد أكثر من نصيبه المفروض، ويكون معه منشفتان وسط ومنشفة صغيرة، كما أنه عندما يخرج للمشي والرياضة أو الحمام يقيد بالحزام في وسطه مع يديه من جهة الأمام دون تقييد قدميه؛ تخفيفاً عليه، أي لا يقيد بالسلاسل.

الدرجة الثانية: يرجع السجين من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية إذا قام بمخالفة بسيطة أو خفيفة لقوانين السجن، أو أتلف شيئاً من ممتلكات السجن التي توجد معه، أو قام بتخزين طعام مفتوح غير مغلف مثلاً، عندها يرجع السجين إلى الدرجة الثانية، لكن يبقى في العنبر نفسه الذي يسكن فيه (عنبر الدرجة الأولى) وتسحب منه إدارة السجن بعض الأغراض التي معه مدة ثلاثة أيام، وتسحب منه الفرشة الكبيرة والبطانية والمنشفة الوسطى والمنشفة الصغيرة، وكانوا في بداية الأمر يسحبون المنشفتين من المعاقب، لكن تغير النظام، وأصبحوا يأخذون منه منشفة واحدة ويبقون له واحدة، وتُسحب منه قارورة الماء وكوبا الماء والمعجون وفرشاة الأسنان، وتُسحب منه المسبحة والطاقية والعطر والفاين والفانيلة الحمراء الناعمة وسداد الأذن.

وتُسحب منه الكتب كاملة، ويمنع عنه الورق والقلم، وبعد ثلاثة أيام تعود للسجين كافة أغراضه التي سُحبت منه، وربما يسأل سائل: لماذا ينتقل السجين من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية لمجرد خطأ بسيط، أو مخالفة قليلة ويفقد معظم أغراضه مدة ثلاثة أيام؟

فالجواب: لأن السجين كان في الدرجة الأولى يتمتع بمميزات كثيرة، فلكي يحافظ على هذه المميزات وحتى لا تسول له نفسه أن يقدم على عمل أي خطأ وإن كان قليلاً أو بسيطاً يفقد مقابل هذا الخطأ، ما معه من أغراض، كأنهم يريدون أن يقولوا له: كنت تظن أن هذه الأغراض التي سحبت منك لا قيمة لها، لكن شعرت بقيمتها عندما سحبت منك، إن العقاب أكبر بكثير من الخطأ، كل هذا من أجل الضبط والحزم والالتزام بالقوانين.

الدرجة الثالثة: وهي درجة أفضل من الدرجة الثانية التي قبلها، وهذا من أعجب العجب، لكن بشرط أن تكون الدرجة الثالثة من دون عقوبة، وهذه الدرجة لا يأتي إليها السجين من الدرجة التي قبلها وهي الدرجة الثانية، لكنه يكون في الدرجة الرابعة التي هي أكثر الدرجات شدة وعقوبة، فإذا انتقل من الدرجة الرابعة إلى الدرجة الثالثة وترجع إليه كل أغراض الدرجة الأولى كاملة إلا غطاء قارورة الماء فإنه لا يعود إليه ويمكث السجين في هذه الدرجة

وقتاً قليلاً، يوماً أو يومين، ينقل بعد هذه المدة القليلة إلى عنابر الدرجتين الأولى أو الثانية التي لا عقوبة فيها، وهي عنابر منفصلة عن عنابر الدرجة الثالثة والرابعة.

الدرجة الرابعة: وهي أشد الدرجات عقوبة، وهذه الدرجة لا يأتي إليها السجين من الدرجة الثالثة، بل يأتي إليها من الدرجة الأولى والثانية، وذلك إذا قام السجين بعمل مخالفة كبيرة، مثل رش الحراس بالماء أو البول والغائط أو رش الحراس بالشاي والحليب، أو قام بالبصق على الحارس أو شتم الحراس أو تكلم معهم بكلام بذيء أو كسر شيئاً في زنزانته، أو أخفى ملعقة الطعام، أو رفض الخروج مع الحراس إلى غرف التحقيق، أو رفض الخروج من الزنزانة لتفتيشها، أو نحو ذلك من المخالفات الكبيرة، وهناك حالات ينقل فيها السجين إلى الدرجة الرابعة دون أن يعمل أي مخالفة، وذلك إذا امتنع عن الكلام في التحقيق أو كانت له مشكلات أخرى مع المحققين، فعندها ينقل إلى الدرجة الرابعة بأمر من المحقق. هذه الدرجة عادة يسبقها الدخول إلى السجن الانفرادي المغلق مدة أسبوع أو أسبوعين، وربما شهر أو شهور حسب المخالفة التي عملها السجين، لكن من كانت عليه عقوبة شهور في السجن الانفرادي، فإنه لا يقضيها كلها متتابعة في هذا السجن، بل يخرج في نهاية كل شهر من السجن الانفرادي إلى العنابر العادية

غير المغلقة مدة أيام، ثم يرجع إلى السجن الانفرادي المغلق، وهكذا حتى تنتهي مدة عقوبته في السجن الانفرادي، أما التقييد لأصحاب الدرجتين الثالثة والرابعة عند الخروج للتحقيق أو المشي والاغتسال، أو... فإنه يكون بالسلاسل، وليس بالحزام مثل الدرجتين الأولى والثانية.

والدرجة الرابعة يؤخذ من السجين فيها جميع أغراضه التي توجد مع السجناء في الدرجة الأولى، ولا يبقى معه إلا قطعة الإسفنج التي يصلي أو يجلس أو ينام عليها، وبطانية واحدة ومنشفة واحدة، أما ما عدا ذلك من الأغراض فيسحب منه وهذا في الحقيقة أمر صعب على السجين، وتسمى هذه الدرجة درجة رابعة معاقب ويبقى السجين في هذه الحالة مدة شهر كامل تحت النظر والمراقبة لا يعمل السجين في هذا الشهر أي مخالفة كبيرة أو خطيرة، وبعد مرور هذا الشهر يعاد له كوب ماء وصابونة صغيرة ومعجون وفرشاة أسنان، تبقى معه مدة شهر آخر يكون تحت النظر والمراقبة من الحراس.

وتسمى هذه درجة رابعة غير معاقب، فإذا مضى عليه شهران دون أي مخالفة انتقل إلى الدرجة الثالثة التي يمكث فيها يوماً أو يومين ينقل بعدها مباشرة إلى عنابر الدرجتين الأولى والثانية، فإذا عمل أي مخالفة ولو صغيرة خلال هذين الشهرين، سحبت منه فرشاة الأسنان والمعجون والصابونة الصغيرة وكوب الماء وعاد

إلى الدرجة الرابعة معاقب، وهكذا كلما ارتكب مخالفة في الدرجة الرابعة سحبت منه أغراض الدرجة الرابعة غير المعاقب، وعاد إلى الدرجة الرابعة معاقب، وتضاعفت عليه المدة التي سيقضيها في الدرجة الرابعة؛ حتى يثبت هذا السجين التزامه بالقوانين لينقل منها إلى الدرجة التي قبلها وهكذا.

عقوبات بلا سبب

ربمـا يبقى السجين في الدرجة الرابعة (معاقب) شهورًا كثيرة دون عمل أي مخالفة، وهذا يكون:

أولاً: إمـا بسبب التحقيق، أي بسبب مشكلات في سير التحقيق وإعطاء المعلومات المغلوطة، وإما بسبب الامتناع عن الكلام أو...

ثانيـا: وإما بسبب المخالفـات والمشكلات التي يعملها السجين، ولقد رأيت من هذا النوع الكثير، لقد وضعت في الدرجة الأولى منذ أن ظهرت الدرجات، وبقيت في هذه الدرجة مدة طويلة، سنة تقريباً كنـت خلالها أعاقـب عقوبات بسيطة بسبب أو مـن دون سبب، أما العقوبـات التي مـن دون سبب فإن كثيراً مـن الحراس ربما يسجل عليـك العقوبة دون عمل أي مخالفة، كمـا يحلو له وكما يريد يكتب عليـك، وهذا يحدث كثيراً وإذا حاولت أن تبرئ نفسك وتثبت عدم

قيامك بعمل أي مخالفة سواء للحارس أو للمسؤول، فإنه لا ينظر إلى هذه الشكوى ويقول لك: لقد سجلت العقوبة عليك ونزلت (ظهرت) على اسمك في الكمبيوتر، ولا بد لك أن تطبق وتنفذ هذه العقوبة لا فائدة في المناقشة الآن، ولا في إثبات براءتك.

ثم إن الأمر أو القانون المسموح به، الآن ويعمله السجين ويمارسه بحرية مرارًا، ربما يأتي حارس آخر ويعاقبك على هذا الأمر المسموح به الذي فعلته مراراً دون أن تسجل عليك عقوبة، فالقانون في عنابر السجن يفسره ويطبقه ويحلله الحارس كما يريد، مثلاً سجلت علي ثلاث عقوبات خفيفة، وأنا في الدرجة الأولى تسحب مني خلال هذه العقوبات وهي ثلاثة أيام في كل مرة معظم الأغراض التي بحوزتي وأبقى مكاني في عنبر الدرجة الأولى.

المرة الأولى: علقت -نشرت- الفانيلة على جدران الزنزانة؛ لكي يجف من الماء، فقال الحارس: أنزل الفانيلة من على الجدار، وضعها على الشباك، قلت له: حسن، لكن هذا الشباك هو الشباك الوحيد في الغرفة الذي يدخل منه الهواء أو النور، والجو حار والمعتقل بحاجة ماسة إلى هذا الشباك، والقانون قبل مدة كان يمنع تعليق أي ملابس على الشباك ويسمح لك بوضع الملابس على جدران الغرفة من الداخل.

أما المرتان الأخريان اللتان عوقبت فيهما، فإن في مغسلة الزنزانة الموجودة في الغرفة ثقوب ينزل منها الماء، ويمر على السجين أوقات ينقطع فيها الماء عن السجناء، فمن أجل ألا نطلب الماء من الحراس، يقوم الحراس بإخبارنا بأن الماء سينقطع اليوم، مدة خمس ساعات أو أكثر أو أقل فاملؤوا المغاسل بالماء، فنقوم بإغلاق المغسلة بشيء ونملؤها بالماء الذي نستعمله عند الحاجة، فكان السجناء يقطعون أسفل كوب الماء البلاستيكي ويغلقون به ثقوب المغسلة، فتحتفظ المغسلة بالماء وقتًا طويلاً.

هذا الكوب يقدم للسجناء فيه شاي أو حليب، وسيلقى بعد استعماله في سلة المهملات، إنه لا يستعمل إلا مرة واحدة فقط، جاء الحارس ودخل غرفتي لتفتيشها بعد خروجي إلى المشي والحمام، فوجد حوض الماء مليئاً بالماء بسبب أسفل هذا الكوب البلاستيكي، فسجل علي عقوبة في مثل هذه المناسبة مرتين، فقلت للحارس: أنتم تقولون لنا: احفظوا الماء داخل المغسلة؛ لأن الماء سينقطع اليوم، ثم تقومون بتسجيل عقوبة علينا كيف يحدث هذا؟

لكن اعتراضي هذا لا فائدة فيه، حدث هذا مرتين معي في عنبرين مختلفين، فيسحبون منك الأغراض التي توجد معك في الدرجة الأولى كاملة تقريباً، مدة ثلاثة أيام يبقون معك قطعة الإسفنج التي تنام وتصلي عليها ومنشفة واحدة وبطانية واحدة.

قبـل خروجي من كوبـا بثلاثة أشهر تقريباً وبعـد مرور عشرة أشهـر علـي دون أي تحقيق معي، جاء الحراسـ بعد صلاة الفجر، وقالـوا: عليك تحقيق، قلت لهم: جاهز، وصلت إلى غرفة التحقيق، وجلسـت وتم فك اليدين ثم ربطوا القدمين بحلقة في أرض الغرفة، وجـدت الصور موجـودة على جهـات الغرفة الثلاثـة، أمامي وعن يميني وعن يساري، صورة مسجـد وصورة أطفال وصور مهاجرين أفغـان وبيوت مهدمـة وصور للجيشـ الأفغاني وصـور نساء وصور أفغـان بعمائـم ولحى وعن يمينـي شباك زجاجي أسـود ومثله عن يساري، لا يرى أحد من خلالهما شيئًا،وفي زاوية الغرفة يظهر شيء مثـل المصباح (كاميرا) ينزل مـن سقف الغرفة يمكن أن يكون هذا المصباح (كاميرا).

هكـذا كان الأمر يبـدو لي، بعد عشر دقائـق حضر رجل يلبس اللباس العسكري ومعه مترجـم يظهر من لونه ولهجته أنه سوداني وفي زاويـة الغرفـة تجلس سيـدة تكتب كل ما تسمعه مـن المحقق أو المترجـم، كانت هذه المقابلة هي آخر مقابلة ذات قيمة جلست فيها للتحقيق وكأن المحقق يريد أن يراجع معي جميع أو أكثر ما سبق من أسئلـة واستفسارات وقعت لي مع المحققين السابقين، لم يسألني في هذه الجلسة عن سيرتي الذاتية أو عن نوع العمل ومكانه أو الدراسة، لم يسألني عن عائلتي ولا عن أشخاص آخرين.

لقد كانت هذه الجلسة كما شعرت آخر جلسة، فهي بمنزلة جس نبضـ واختبار لي، إن كنت قد غيرت في معلوماتي وإفادتي السابقة أو هـي لمعرفـة ما إذا كنـت قد تأثـرت بأناس أو مـن أناس آخرين في السجـن طيلة عشـرة الشهـور الماضية التي لم أذهـب فيها إلى التحقيق، وبعد انتهـاء الجلسة قال المحقق لي: لقد أنهيت ما عليك وأجبت عن جميع الأسئلة التي وجهت إليك، ولم يبقَ عليك شيء إلا اختبار جهـاز كشف الكذب وتسجيل صوتك، وبعدها سوف نرسلك إلى المعسكـر الرابع (Camp 4) وهو المعسكر الذي يوجد فيه كثير من الامتيازات والتسهيلات التي لا توجد في بقية العنابر.

ثـم قال: أتحب هذا المعسكر الجديد؟ قلت: إن أرسلتني أذهب وإلا مكثـت في مـكاني، وهذا الجواب مني بهـذا الشكل؛ لأن رغبتي ومحبتي في الذهاب لهـذا المعسكر أو عدم رغبتي لن يقدم أو يؤخر شيئاً في قراره، فالمحقق هو الذي يقرر أن يرسلك أو لا يرسلك وليس رغبتـك هي التـي تقرر، ثم أخرج جهاز تسجيـل صغيرًا جداً بطول إصبع اليد وقال لي: تكلم، قلت: فيم أتكلم؟

قـال: بـأي شيء تريده، تكلمـت عن سيرتي الذاتيـة قليلاً، ثم قـرأت سورة من القرآن وتوقفت، فلمـا رأى حيرتي أخرج كتاباً من حقيبتـه يتعلق بالمذهب المالكـي وأعطاني الكتاب وبـدأت أقرأ منه مـدة عشر دقائـق، ثم قال لي: قـف كفى، انتهـت الجلسة قال لي:

شكراً على إجاباتك وسوف نطلبك عندما نحتاج إليك، وانصرف مع المترجم، وعدت إلى غرفتي.

بعد أسبوع جاء الحراس وقالوا لي: تحقيق، قلت: جاهز، كان الوقت بعد صلاة الفجر مباشرة لم تكن الشمس قد طلعت بعد، تم التقييد بالسلاسل ثم التفتيش، سرنا وصلنا إلى غرفة التحقيق، مرت دقائق جاء المحقق الذي كان في الجلسة الماضية ومعه شخص آخر عسكري ومترجم جديد، قال: هذه الجلسة للتعرف عليك من هذا الشخص أي العسكري الجديد، وسوف يتعاون هذا الشخص معي في العمل في ملفك والانتهاء مما تبقى فيه من أمور، كيف رسائلك هل تصل إليك بانتظام، كيف عنبر السجن وكيف غرفه، هل تطلب منا شيئًا هل لك شكاوى؟

قلت: أصابني شيء من الروماتيزم وأجد ألماً في رجليّ، لو تعطيني (جرابات) تحميني من البرد، قال: نظام السجن لا يسمح بصرف الجرابات للسجين، لكن سنعطيك بطانية إضافية، مضى نحو عشرة أيام دون أن يرسل إلي أي شيء، بعد أيام قليلة زارني هذا المحقق في غرفتي، وقال: كيف صحتك؟ قلت: البرد، قال: سيصلك هذه الليلة بطانية. بعد العشاء جاء الحراس بالبطانية، لكنها كانت ممزقة من الداخل قلت للحارس: انظر إليها لا أستطيع استعمالها، أعطني غيرها ذهب وأحضر واحدة غيرها، لكن البطانية تستطيع

أن تتغطى بها عند النوم أو الجلوس، لكن عند المشي أو الصلاة أو الوقوف تحتاج إلى الجرابات، لكن لا حياة لمن تنادي، ممنوع صرف الجرابات للسجين.

كانت هذه الجلسات ما بين عيد الفطر وعيد الأضحى، أواخر عام ٢٠٠٣م وقبيل عيد الأضحى بعشرة أيام، تم نقلي إلى العنبر الانفرادي عقوبة لي، هذه العقوبة ليس لي فيها ناقة ولا جمل، لكن الذي حدث أن أحد الحراس كان يتناقش مع جاري الموجود في السجن عن محمد علي كلاي، الملاكم الأمريكي الذي قيل: إنه أسلم ثم، انتقل الحديث بينهما إلى النبي محمد ﷺ ورسالته للناس أجمعين وأن المسلم لا بد أن يكون قوياً مثل محمد علي كلاي.

فالحارس أراد أن يكون الناس مثل محمد علي كلاي أقوياء كما قال أحد الحراس الذين سمعوا المناقشة، والحارس أراد أن يعبر عن القوة فما استطاع، فقال له: إن محمدًا كان مصارعاً (ملاكماً) أراد (بمحمد) (محمد علي كلاي) وليس (محمد) النبي (محمد) ﷺ، فالأخ السجين رأى كلام هذا الحارس عن (محمد) بأنه مصارع إهانة واستهزاً ولا بد أن يعاقب هذا الحارس ويرد عليه؛ لأنه اعتدى على مقام النبي ﷺ، فكان هذا النقاش في مكان المشي خارج غرفة النوم، لما رجع هذا الأخ إلى غرفته -وكان جاري الملاصق- قام هذا الأخ واتفق مع بعض جيرانه الآخرين، أن يقوموا بعدم تناول وجبة الطعام (العشاء)

وأن يقوموا برش هذا الحارس بالماء والبول والحليب والبصق عليه، لكن أنا جاره أعيش بجانبه لا أعلم بما يخطط له.

ولما علمت بما يريد القيام به قلت له: يا أيها الأخ، هذا الحارس غير مسلم نصراني لا يعرف معنى ما قاله، وكثير من الناس وحتى المسلمين ربما يريد أن يعبر لك عن قوة الرسول ﷺ فيقول لك مثل هذا الكلام وعندها نحن لا نقوم بشتم أو سب أو معاقبة هؤلاء المسلمين، إنما نقوم بتعليمهم وتوضيح المسألة لهم، فكيف بهذا الجندي، إنك لو استدعيت هذا الجندي ووضحت له المسألة وناقشته، لتراجع واعترف أنه ما قصد الذي فهمته أنت منه، لأن أحد الحراس الذي كان يسمع ما يتناقشون فيه قال لنا: أنتم فعلتم خطأ، إن هذا الحارس ما قصد إهانة نبيكم، وما قصد بقوله: «محمد مصارع» -أنه يقصد النبي- إنما قصد محمد علي كلاي.

أقول: لكن قدر الله وما شاء فعل، بعد انتهاء وجبة العشاء بدأ هذا الحارس مع الحراس الآخرين يجمع أطباق الطعام الفارغة، فلما وصل الحارس (صاحب المشكلة) إلى القرب من جاري قام هذا الجار وألقى الماء والبول المخلوط بالحليب، وبدأ السجناء الآخرون يلقون الماء وغيره مع البصاق على هذا الحارس، ومن معه من على جانبي العنبر، ليس كل السجناء إنما بعضهم شارك بالبصق ورش الماء وغيره...

العنبر الانفرادي

بعد ساعة نُقل بعض السجناء إلى العنابر الانفرادية عقوبة لهم، وفي اليوم الثاني نُقل جميع من تبقى من سكان العنبر إلى عنابر أخرى انفرادية وغير انفرادية، وجاءت نوبتي بعد العصر، وقال لي الحارس: أنت ستنقل، قلت له: أين؟ قال: إلى عنبر نوفمبر الانفرادي، قلت له: أنا ما فعلت شيئاً، قال: لقد نزلت عليك العقوبة، لا بد من تنفيذها حتى لو كنت بريئاً، وهكذا كان حال الكثيرين نزلت عليهم العقوبة دون أن يشاركوا في أي عمل ضد الحراس، لكن الجنود عندما يسجلون أرقام الغرف التي قامت بعمل مشكلات، يقومون بتسجيل الأرقام التي يريدونها دون أن يتحققوا أو يتأكدوا فيما إن كان أصحاب هذه الغرفة اشتركوا في مثل هذه الأعمال أم لم يشتركوا، وصلت إلى عنبر نوفمبر الانفرادي.

وقد تقدم الكلام عن هذا العنبر وأنه مغلق، الغرفة مغلقة من كل الجهات، إلا فتحة صغيرة على باب الزنزانة، لإدخال الطعام أو

الـدواء أو لتقييد وفك سلاسل السجين من هذه النافذة، من يرسل إلى مثـل هذه العنابر يكون هـذا الإرسال عقوبة له، سحبوا مني كل الأغراض، وتركوا معي قطعة الإسفنج ننام ونصلي ونجلس عليها، وبطانية واحدة ومنشفة واحدة، ما عدا ذلك لا شيء معك، الخروج من هذا العنبر مرتين فقط في الأسبوع، بينما كان الخروج في عنبر الدرجة الأولى يومياً، هذا العنبر لا ترى فيه أحدًا، لاعن يمينك ولا عـن يسارك إلا مـن الفتحة الموجودة في البـاب، عليها شبك حديد ومغطـاة بالزجاج إن أردت الكلام ترفـع صوتك كثيراً وتقترب من الباب؛ حتى تستطيع أن تسمع الآخرين.

لكـن سكان هذا العنبر مع كل هذه القيود والتضييقات يصلـ الصلوات الخمس جماعة ويتناقلون الأحاديث والأخبار بينهم كبقـ العنابر، كانت عنابر الدرجة الأولى فيها امتيازات وتسهيلات، وهذ العنبر وما شابهه فيه عقوبات.

بقيت في هذا العنبر خمسة أيام، ثم نُقلت إلى عنبر آخر مفتوح وغـير مغلق، لكـن الناس فيه تسمـع منهم ويسمعون منـك، الأمور هنـا أفضل بكثير من العنابر المغلقة، بقيـت في هذا العنبر شهرين تقريبـاً، لكـنّ هذا العنـبر لم يكن مستقراً، بل كانـت فيه مشكلات وعقوبـات كثيرة على السجناء، بعد وصولي لهـذا العنبر بعدة أيام حدثت بين بعض السجناء والحراس مشكلات وقاموا برش الحارس بالمـاء وبعضهـم بصق عليه، على أن بعض جـيراني قام وشارك في هذا العمل ضد الحارس.

ذهـب الحارس وسجـل أرقـام الغرف التـي خرج منهـا الماء والبصـاق، لكنه سجل أيضاً أرقـام غرف لم ترش الماء أو البصاق، ومنها رقـم غرفتي، قلت للحارس: إن غرفتـي لم يخرج منها شيء لكنــه لم يلتفـت لكلامــي، لقد سجـل علـي العقوبة، هـذه العقوبة الجديـدة تعني أنني سأجلس شهراً آخر زيادة علـى الشهر الأول، الـذي كان سببه العقوبة التي نقلتني مـن عنابر الدرجة الأولى إلى السجن الانفرادي، ثم إلى هذا العنبر.

انتظرت حتى الليل مرَّ ضابط على عنبرنا، فأخبرته أن الحارس سجـل علي عقوبة دون عمل أي مخالفة، وشرحت له ما حدث، ومن ثـم قام الضابط وسجل مـا قلته له وقال: سأبحـث الأمر، ظهر لي أنـه بحث الأمر وساعدني وألغـى العقوبة، بقيت في هذا العنبر لكن ازدادت مشكلاتـه، وذلـك احتجاجـاً على معاملـة الحراس للعنبر المجـاور لنا، العنبر المجاور لنا سكانـه (السجناء) فيه يعيشون من دون سراويل طويلة، من دون (بناطيل).

عنبر اللباس الرياضي

إن سكان العنبر المجاور لنا يعيشون طيلة الوقت باللباس الرياضي يأكلـون، ويشربـون يجلسـون وينامـون، حتـى إنهم يصلـون بهذا اللباس، يذهبـون للتحقيق، يخرجون للاغتسـال والمشي والرياضة بهذا اللباس، كل سجين في هذا العنبر- عنبر اللباس الرياضي- لا يملك في غرفته إلا هـذا اللباس وفانيلة حمراء نصف كم وشبشبًا، بالإضافـة إلى قطعة الإسفنج التي يصلي ويجلس وينام عليها، هذا الـذي يملكه كل واحد منهم، إنهم أقل الدرجات حتى الآن في جميع السجـن، لا يوجد أقل منهم منزلة في جميع أهل هذا المعتقل الكبير (معتقل جوانتنامو) لا يوجد معهم منشفة ولا بطانية.

إن البطانيـة يسلمهـا الحراسـ لهـم السـاعـة العاشـرة ليلاً، وتسحـب منهـم قبل صـلاة الفجر، أمـا المنشفة فتعطـى لهم عند الخروج للحمـام، وبعد انتهاء الحمام تؤخذ منهم، أما الغرف التي

يعيشـون فيهـا فجدرانها مغلقة، والشباك الوحيـد والخلفي للغرفة يفتـح عليهم في النهار فقط، أما في الليل فيغلقونه، وجدران الغرفة عن اليمـين والشمال شبك وفوق الشبك لوح مـن أعلى الجدار إلى أسفله يمنع الرؤية بين الغرف، ويمنع الهواء ويمنع توصيل أي غرض بين السجناء.

أمـا مـن الأمام، حيث واجهـة الغرفة التـي يمر مـن أمامها الحراس في العنبر فهي لوح زجاج فوق الشبك، هذا اللوح الزجاجي يمنـع السجين من رش المـاء أو البصاق أو... علـى الحراس، لكنه يمكِّن الحراس من رؤية ما بداخل الغرفة، هذه الحالة التي يعيشها سجنـاء هـذا العنبر (عنـبر اللباسـ الرياضي) جعلـت كثيراً من العنابـر تتضامن معهم وتقوم بعمل إضرابـات عن الطعام أو تقوم برشـ المـاء والشـاي والحليـب أو البصـق عليهم، وعـدم الخروج للتحقيـق أو للمشي والاغتسال وحتى الخروج للعيادة والطبيب، كان بعضهم لا يذهب إليها.

هذه الأعمـال والاحتجاجات كانت بسبب الحالـة التي يعيشها أهل عنبر اللباس الرياضي، زيادة على هذه الاحتجاجات أضافت بعض العنابـر احتجاجاً آخـر وهو تقطيع أطباق الطعـام وكاسات الشاي والحليـب وتقطيـع بقايا الفواكـه بعد كل وجبة مـن وجبات الطعام الثلاثـة، الصبح والظهر والمغرب، وتقطيع هذه الأطباق كان يحدث

أحيانـاً مرتين بعـد كل وجبة مـن الوجبات الثلاثـة، وذلك لإتعاب الحراسـ ومضايقتهم بهـذا التقطيع؛ حتى يرفعـوا ما يلاقونه من مشكلات في هذه العنابر إلى المسؤولين عنهم؛ لعل المسؤولين يغيرون أو يبدلـون في نظام وحياة عنبر اللباس الرياضي، بحيث يرجع إلى حالته الأصلية.

كان السجنـاء يتسلمون الطعام والشراب في أطبـاق وكاسات وبعد الانتهاء مـن الأكل يقومون بتقطيع نصف هـذه الأطباق والكاسات قطعـاً صغيرة جـداً وإلقائها في أرض العنبر متناثـرة هنا وهناك، فيقوم الحراس بتنظيف أرض العنبر بالمكانس ثم بالماء؛ ظناً منهم أن السجناء ألقوا كل الأطباق والكاسات ولم يبقَ عندهم منها شيء ليقطعوه.

وفي نهايـة وقت هذه المجموعة المناوبـة وقبل خمس دقائق من نهايـة وقتها يقوم السجنـاء بتقطيع النصف الثـاني المتبقي معهم مـن الأطباق قطعاً صغيرة، وحتى بقايـا الفواكه أو قشور البرتقال يقطعونها قطعاً صغيرة جداً ويلقونها على أرض العنبر متناثرة من أولـه إلى آخـره، مما يجعـل الحراس أكثر غضبـاً وغيظاً من المرة الأولى؛ لأن هذا يعني أن يبقى الحراس وقتاً أطول من وقتهم الأصلي من أجل تنظيف العنبر ولا يستطيعون ترك العنبر دون تنظيف؛ لأنه يجب علـى الوردية والمجموعـة أن يتركوا العنبر عنـد نهاية الوقت

نظيفاً كما تسلموه نظيفاً.

هذه المخالفات التي يقوم بها السجناء تجعل العقوبات تتجدد عليهم عند عمل كل مخالفة وتضاف العقوبة الجديدة إلى المدة الأصلية التي سيقضيها السجين في هذا العنبر، وهذا يعني زيادة الشهور والأيام التي يقضونها في هذا العنبر[1].

ازدادت المشكلات في هذا العنبر، الذي أسكن فيه وفي غيره من العنابر؛ احتجاجاً على ما يجري لإخوانهم في عنبر اللباس الرياضي، بدأ السجناء باحتجاج آخر وبعصيان آخر، وهو من أخطر أنواع الإضراب والعصيان في السجن، هذا الإضراب والعصيان هو رفض الخروج إلى التحقيق، أو إلى المشي والرياضة والاغتسال، وحتى رفض الخروج من الغرفة من أجل تفتيشها من قبل الحراس، هذا الإضراب والاحتجاج مهم وخطير لماذا؟؛ لأنه يعني أن الهدف الذي من أجله جمعت الولايات المتحدة هؤلاء السجناء قد توقف، وهو التحقيق وجمع المعلومات منهم، المعلومات عن تنظيم القاعدة وحركة طالبان، وعن التدريب والمعسكرات، والمعلومات عن أمور كثيرة.

لكن هذا لا يمكن أن تتساهل فيه إدارة السجن، أو الجهة التي أنشأت هذا المعتقل الكبير وأنيطت بها مسؤولية كل كبيرة وصغيرة فيه، إذاً لا بد من إخراج هؤلاء المضربين من غرفهم إلى

غرف التحقيق بالقوة، كان الحراس يأتون إلى السجين الذي عليه التحقيق، فيقولون له: عندك الآن تحقيق، فيجيبهم السجين: لَنْ أخرج إلى التحقيق، فيأتي مسؤول أكبر من الحارس الأول لإقناع السجين أن يخرج إلى التحقيق وأن هذا الخروج إلى التحقيق هو الطريق الأسرع والأنجح لخروجك من السجن، ورفض خروجك للتحقيق يعني أنك ستمكث وقتاً أطول في السجن، لا بد لك من الإجابة عن أسئلة المحقق، لا بد لك من إنهاء كافة المشكلات والأمور الموجودة في ملفك أو قضيتك.

فرقة مكافحة الشغب

إن السجـين الآن إمـا أن يقتنـع بالخـروج أو يصـر على عدم الخروج، فـإن أصر على موقفـه، وهو عدم الخـروج إلى التحقيق، جـاءه ضابط ليقنعـه بالخـروج، وإذا رفض الخـروج، يخبره هذا الضابـط بأنـه سيضطر إلى أن يرشه بالغاز المسيـل للدموع أو غاز آخر لتدويخـه، وسوف تحضر قوات مكافحـة الشغب، وتدخل على هـذا السجين عنـوة، يحضر الضابط المسؤول عـن رش هذا الغاز، ومعه مجموعة طبية (٣-٤) أشخاص، طبيب ومساعد و... ليشرفوا على عملية رش الغاز، فهـي ليست قاتلة، وإنما هي لتدويخ السجين وإجباره على الخروج، ولمساعـدة قوات مكافحة الشغب في الدخول عليـه وتقييده؛ حتى لا تحـدث من السجين مقاومـة أو مضاربة مع قوات مكافحة الشغب.

يقوم الضابط برش الغاز على السجين، ويطلب منه النوم على بطنـه على الأرض، ووضع يديه خلـف ظهره، يفتـح الحارس باب

الزنزانــة وتدخل عليه قوات مكافحة الشغب، يطلب من السجين ألا يقوم بأي حركة أو مقاومة؛ حتى لا يتعرض لأذى من قوات مكافحة الشغب في أثناء اقتحام الغرفة أو في أثناء تقييده.

شاهدت هذا الاقتحام مرة، بل عشرات المرات، تدخل جماعة مــن قوات مكافحة الشغــب إلى الغرفة المكونة من خمسة أشخاص، جميع بدن الشخص منهم محصن من رأسه إلى قدمه، مجهز ضد أي اعتــداء خارجــي يتعرض له، يدخلون بسرعــة على السجين بعد رشه بالغاز، ويقيدونــه في يديه ورجليه، ثم يحملونه على أكتافهم، إما يحملونه بالنقالة كنقالة الجرحى، والمرضى، وإما يحملونه على أكتافهــم دون أي شــيء، وتكــون السيارة، خــارج العنبر تنتظرهم، يطلبــون من المعتقل أن يمشي على قدميــه إلى غرفة التحقيق، فإن أبــى حملته السيارة وإذا جلس علــى الكرسي أمام المحقق في غرفة التحقيق، وطلب منه المحقق أن يتكلم ويجيب عن الأسئلة امتنع عن الكلام، حتى لو سأله عن اسمه واسم بلده وعمره لا يتكلم.

عــدم الكلام مع المحقــق، وكما سمعت من كثير مــن السجناء أنــه محق في عدم الـكلام والإجابة عن أي سؤال مــن المحقق؛ لأنه أجاب عن مثل هذه الأسئلة مرة، بل مرات، فلماذا إذًا هذا التكرار، إنــه يقول للمحقق حينما يسأله عن سؤال تكرر:إن الإجابة عن هذا الســؤال قد سبق أن أجبتك عنها، فلماذا تعيد علي هذا السؤال لقد

سمعت أن بعض المعتقلين لم يتكلم في التحقيق منذ شهور، وبعضهم منــذ سنة، إنهم يأخذونه إلى التحقيق، ثم يرجع إلى غرفته دون أن يتكلم أي كلمة لكن بعد أن يتركه المحقق يجلس على كرسي التحقيق ساعــات طوال ربما تمتد إلى عشر ساعــات أحياناً؛ ليكون نوعًا من العقوبة له.

إن العقــاب بدأ يتغــير ويتشدد علــى هؤلاء المعتقلــين، لقد بدأ العقــاب يمس جوانب الدين ويتحدى مشاعــر المعتقلين الإسلامية، ولمــا رأت إدارة السجــن أن العقوبات التي تنزلهــا بالمعتقلين لا تؤثر فيهــم بــدأت تزيد في هذه العقوبــات؛ لعلها تخيفهــم وتوقفهم عند حدهم من أجل أن يلتزموا بقوانين السجن ويطبقوا أوامر المحققين ومتطلباتهم، إن خروج المعتقل من غرفته برغم أنفه عن طريق رشه بالغاز، ثم دخول فرق الشغب عليه وإخراجه عنوة من غرفته مقيداً ومحمولاً على ظهور رجال فرقة مكافحة الشغب قد ظهر أنه لا يكفي عقاباً للمعتقل.

ومن ثم بدأت إدارة السجن بزيادة عقاب آخر على هذا العقاب وهو حلق لحيــة المعتقل وشاربه ورأســه دون إرادته، بل برغم أنفه، فبعــد إخراجه من غرفته بواسطة فرقــة مكافحة الشغب إلى مكان الرياضة والمشي يتقدم إليه الحلاق ويحلق له لحيته وشاربه ورأسه، ثم يرجعونه إلى غرفته وقد تغير شكله وتبدل حاله وهذا مما يضايق

الكثيريـن ويزعجهم، بل يضايق الجميع؛ لأن اللحية في الإسلام لها معنـى خاص، ولها حكم الوجوب من حيـث الحل والحرمة، كما أن لها معنى كمال الرجولة، وعدم التشبه بالنساء أو الكفار، حتى عند المسلمـين غير الملتزمين وإن لحى الكثيرين مـن المعتقلين لم يمسها موسى الحلاقـة ولا شفرة الحلاق منذ عشرات السنين، بل منذ أن نبتت لحيته في وجهه لم يحلقها حتى ولو مرة واحدة.

لكـن كان عـزاء الكثيرين منهـم أنهـا حلقت برغـم أنوفهم، وحلقت في سبيل نصـرة إخوانه، ومن أجل الوقوف بجانب معتقلين يعدونهم مظلومين من قبـل إدارة السجن، وهناك نوع من العقوبة، وهـو أن يفتـح المحقق جهاز التكييـف بقوة على المعتقـل طوال هذه المـدة، وهناك عقوبة أخرى لمن يرفض الكلام مع المحقق، وهي أن يؤخذ السجين إلى غرفة التحقيق يومياً، أو يوماً بعد يوم أو بين حين وآخـر ويترك في غرفـة التحقيق على الكرسي ساعـات طوالاً، دون أن يحضـر المحقق إلى غرفة التحقيق، وبعد مرور الساعات الطوال يقوم الحراس بإرجاع المعتقل إلى زنزانته.

غرفة الحب

إن حمل السجين من غرفته إلى غرفة التحقيق عنوة، عملية لم تستفد منها إدارة السجن؛ لأنها كانت تبغي إخراج السجين من غرفته إلى غرفة التحقيق من أجل أن يتكلم ويجيب عن أسئلة المحقق، فما دام إذاً لم يتكلـم، فهذه الطريقة لم تعـد ذات فائدة، وعليه فلا بد مـن الضغط أكثر على السجين؛ حتى يتكلم، كما أنه يجب استعمال طـرق أخرى، لا بد مـن كسر هذا الصمت أو لا بـد من إفشال هذا الإضـراب، بدأت تحدث في غرف التحقيق حوادث غريبة، كما نقل ذلك بعض السجناء، مثلاً بعض السجناء رفض الكلام مع المحقق، فتقدمت نحوه فتاة شبه عارية لتثير غرائزه الجنسية، رفض الكلام معهـا، أو حتى النظر إليها، تقدمت نحـوه أكثر حتى كادت شفتاها تمسـ شفتيه، إنها تريد تقبيله لزيادة إثارته، إنه لا يستطيع الهرب منها؛ لأنه لا يستطيع دفعها عنه بيديه؛ لأنه مقيد اليدين والرجلين، ورجلاه مقيدتان بحلقة مثبتة في الأرض.

يبدو أن الكاميرا تصور ما يحدث، حتى تخرج له الصورة، أو حتى تخرج لأصحابه، ويقولون لهم: انظروا ماذا يفعل صاحبكم، لم يجد هذا المعتقل المقيد طريقة ليصرفها عنه، فماذا يفعل، فما كان منه إلا أن قام وتنخم وبصق عليها، عندئذ انصرفت عنه وخرج المعتقل ناجحاً في الاختبار.

نشرت جريدة الواشنطن بوست تقريراً من وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون- وهذا الخبر نشرته وسائل الإعلام، بأن مجندات في الجيش الأمريكي يستخدمن جنسياً؛ لانتزاع الاعترافات والأقوال من المسجونين المسلمين في معتقل جوانتنامو- كوبا- وكل من في المعتقل المذكور هم من المسلمين الذين اعتقلتهم أمريكا أو أحد أصدقائها (كما تسمهم) بتهمة أو بحجة محاربة الإرهاب.

وقد قام محامون غربيون موكلون بالدفاع عن بعض المعتقلين من بلاد عربية (في جوانتنامو) بالمرافعة في هذا والاعتراض على هذه الممارسات التي تقوم بها المجندات بتوجيه وأمر من وزارة الدفاع، وأن هذا يتنافى مع مبادئ الدين الإسلامي، وأن هذه الممارسات التي تستخدم وسيلة ضغط على المعتقلين لانتزاع الاعترافات منهم، تتنافى مع الحرية التي يجب أن تُمنح للسجين للإدلاء بأقواله، وتتعارض مع الطريقة التي يجب أن يكون عليها سير التحقيق مع هؤلاء المعتقلين، وغرف التحقيق التي تجري فيها مثل هذه التحرشات تعرف بين المعتقلين باسم غرفة الحب.

لقد قامت إحدى المحققات بعمل مشين، طلبت من المعتقل أن يتكلم، لكن السجين ليس عنده ما يقوله، لا جديد لديه، فقامت هذه المحققة وأخذت شيئاً من دم حيضها على إصبعها وهو ينظر ما عساها أن تفعله، لكنها أخذت دم الحيض من عورتها ووضعته على رقبته، ولما جاء سجين آخر قالت له: أتتكلم أم أضع عليك الدم كما وضعته على صاحبك؟ سجين آخر دخل على المحقق وأمام المحقق مسجل كبير وأشرطة كثيرة، قال المحقق: أتحب الغناء والموسيقى، هيا وفتح له أغنية عربية وليست عربية فقط بل أغنية من بلده، السجين لا يريد ذلك، وما عساه أن يفعله إلا أن ينكر هذا الفعل بقلبه ولسانه.

وسمعت أن أحد المعتقلين لما اقتربت منه الفتاة وحاولت أن يمس وجهها وجهه وهو مقيد بالأرض، ضربها برأسه؛ لأنه لم يجد إلا الضرب وسيلة لدفعها عنه، وحدث مرة ما هو أكثر من ذلك وتناقله السجناء من عنبر لآخر وحدثت له ردود فعل في كافة أرجاء المعتقل؛ احتجاجاً على ما حدث، وهو ما يأتي:

إن أحد السجناء رفض الكلام مع المحقق، وحاول المحقق أن يكسر صمت السجين بكل محاولة، فلم يستطع مما أغاظ المحقق وأغضبه بدرجة كبيرة، عندها قال المحقق للسجين: إن هذا القرآن هو أقدس شيء عندكم، إذا لم تتكلم فسوف أضعه تحت قدمي

وأدوس عليه الآن أمام عينيك لم يهتم السجين المقيد اليدين والرجلين بالأرض لهذا التهديد، فلم يتكلم، أراد المحقق أن ينفذ ما هدّد به، فحمل المحقق المصحف الشريف ووضعه على الأرض، وداس عليه بقدمه، حصلت مشادة كلامية ومشاتمة بين السجين والمحقق على هذه الفعلة الشنيعة.

إن حكم الشريعة الإسلامية على من فعل هذا الفعل هو: الكفر والخروج من دين الله، لكن المحقق أصلاً ليس مسلماً ولا يحتاج أن تطلق عليه هذا الحكم ولا ينتظر أن تحكم عليه بهذا الحكم ولا يهمه من قريب أو بعيد أن تسمعه هذا الحكم، ولم يكتفِ المحقق بما فعل وأغاظه موقف السجين الصلب الذي ربما لم يعهده من قبل على سجين، فما كان من المحقق إلا أن قام وأحضر العلم الإسرائيلي، وقام بلف جسم هذا السجين وتغطيته من جميع الجهات بالعلم الإسرائيلي، طبعاً السجين لا يستطيع منع المحقق مما فعل؛ لأنه مقيد الجسم، والجسم مقيد في الأرض، هذا الفعل الذي فعله المحقق كانت له ردود في كافة أنحاء السجن.

من هذه الردود إضرابات عن الطعام بين السجناء مددًا متفاوتة، استمر بعضها شهوراً، وسباب وشتائم بين السجناء والحراس، ورش الحراس بالماء والشاي والحليب وربما بالبول والغائط، والبصق على الحراس، والإضراب عن الخروج إلى التحقيق والاغتسال

والمشي والرياضة، شعرت إدارة السجن بهذه الردود والاحتجاجات وأوقعتها في حرج، خاصة أنها تريد أن تظهر بأنها تحافظ على احترام معتقدات السجناء ومشاعرهم، وأن التحقيق يجري بطريقة ديمقراطية وأن السجين حرٌّ في كلامه في التحقيق.

الآن إدارة السجن لا بد أن تنهي هذا الحدث وردود الفعل عليه فأرسلت مسؤولاً كبيراً للتفاوض مع المضربين، قال لهم: إن هذا المحقق قام بهذا العمل- إهانة المصحف- ولف العلم الإسرائيلي على جسم السجين دون قصد، وكان في حالة عصبية شديدة وأنه فعل هذا الفعل من نفسه دون أن يأمره أحد، إنه هو المسؤول عن هذا الفعل وهذا الفعل ليس مخططاً له من قبل إدارة السجن، وسوف تقوم إدارة السجن بالتحقيق مع هذا المحقق وإعفائه من التحقيق.

هناك سجين آخر رفض الكلام في التحقيق، فأحضر له المحقق جهاز تسجيل كبيرًا مرتفع الصوت، يخرج أصواتاً شديدة مزعجة حيناً، ويسكت حيناً آخر، وبعد الهدوء والسكون يفاجئك على حين غرة بصوت صاخب، ومحقق آخر أحضر لسجين لا يتكلم جهازًا يحدث إضاءات شديدة وبرقًا يخطف الأبصار.

محقق آخر يعرف أن هذا السجين لا يحب الموسيقى، فيفتح له المسجل على الموسيقى أو الأغاني العربية أو غير العربية، ومحقق

آخر يقول لأحد السجناء الذي امتنع عن الكلام: لو كان الأمر بيدي لأطعمت كل سجين منكم كل يوم ساندويتش لحم خنزير.

لقد سمعت أن إدارة السجن قد استعانت بالسحرة والمشعوذين في غرف التحقيق ضد بعض المعتقلين، قال: لما جلس المعتقل على الكرسي أمام المحقق في غرفة التحقيق بدأ هذا الشخص يتمتم بكلام ويحرك شفتيه وعينيه نحو المعتقل المقيد ويشير بحركات بيديه يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل ويعمل بيده دوائر في الهواء، ويقوم بعملية نفخ ونفث نحو هذا المعتقل المقيد الجالس، فأدرك المعتقل ما يريده هذا الساحر، فبدأ يقرأ آيات من القرآن الكريم وأدعية من كلام الرسول ﷺ ويستعيذ بالله العظيم من كيد هذا الساحر وشعوذته.

وهناك محققون من نوع آخر، يقومون بإحضار ساندويتشات بيتزا وأنواع كثيرة من الأطعمة والعصيرات؛ حتى تكون هذه المائدة فاتحة للشهية، ومشهية للكلام مع السجين، أو حتى تكون طريقاً لدخول المحقق لقلب السجين ونفسه من جهة الطعام، فيحضر له ما يطلبه من المطاعم والمشارب.

وسمعت من بعض السجناء أنه كان يشترط على المحقق أنه لن يتكلم في التحقيق؛ حتى يحضر له أنواعاً معينة من الطعام

والشراب، وفعلاً يقوم المحقق بإحضار ما يطلبه السجين، وبعد أن يأكل السجين الطعام الذي طلبه ربما يتكلم، وربما لا يتكلم.

ويعود السجين إلى غرفته بسلام.

إن الكلام عن السجن ومشكلاته متشعب، وكلما حاولت حصر الكلام في اتجاه واحد وزاوية واحدة، خرجت عليك الأفكار والقصص والحوادث من هنا وهناك، فنضطر أن نسجلها قبل أن تفلت من أذهاننا.

مضت الأيام ومشكلات هذا العنبر تزداد يوماً بعد يوم، وأنا شخصياً لا أحب عمل المشكلات مع الحراس ومع المحققين، أنا لا يوجد عندي ذنب أو تهمة أخاف منها، لقد اعتقلوني ظلماً وزوراً، تركت خلفي عائلة مكونة من تسعة أفراد ليس لهم بعدي عائل إلا الله، ليس لي علاقة لا مع تنظيم القاعدة ولا مع حركة طالبان ولا حتى مع الأمريكان، وحتى الذين لهم علاقة مع القاعدة أو مع طالبان، ليست هذه هي الطريقة الصحيحة التي تفتح لهم أبواب السجن أو تعيدهم إلى أهاليهم وبيوتهم، كنت لا أرى ما يفعله الكثير من السجناء صحيحاً، ولا يخدم قضيتهم وينهي مشكلتهم، وينظف ملفاتهم في التحقيق.

كنت حريصاً على الخروج من هذا العنبر؛ لأن العقوبات تزداد يوماً بعد يوم عليك، وتنزل على اسمك، سواء شاركت في المخالفات

أم لم تشارك، صحيح أن بعض احتجاجات السجناء، وردود أفعالهم على ما يجري لهم صحيحة، لكن لهم أيضاً احتجاجات أخرى غير صحيحة، ولا تسير في طريقها الصحيح، أو أن أسلوبها ليس بالأسلوب المناسب لهم، إذ إنهم سجناء لا يملكون من أدوات التغيير شيئاً، إنهم سجناء أولاً وإنهم سجناء عند قوم يقولون عنهم: إنهم أعداء لهم لا يحبونهم، إن كثيراً من طرق العلاج التي كان يسلكها السجناء لتصحيح أوضاعهم أو تخفيف العقوبات عنهم أو الاستعجال في إنهاء محنتهم في السجن، لم تكن صحيحة، بدليل أن كثيراً ممن كان يقوم بهذه الاحتجاجات وردود الأفعال أدرك أنها احتجاجات تسير في مسار غير صحيح.

ولم يكتفِ هذا الشخص بأن يترك هو هذه الاحتجاجات أو بالسكوت عمن يفعلها، بل بدأ ينكر على من يفعلها؛ لأن كل سجين يحلم أو ينظر إلى اليوم الذي تفتح له أبواب السجن ويعود إلى أهله، لا يوجد أحد من السجناء يريد أو يحب أن يبقى يوماً واحداً في السجن، لذلك أدرك الكثير من السجناء أن سير التحقيق عنده قد توقف وأن كثيراً من القضايا التي لا بد أن ينهيها أو يجيب عنها في التحقيق ما زالت عالقة وباقية، أدرك أنه لا بد أن يتجاوب مع المحققين، خاصة وأن قضاياه التي سيجيب عن أسئلتها ليست ذات أهمية.

الحاجة أم الاختراع

إن المعاقبين في عنابر الدرجتين الثالثة والرابعة، لا يحق لهم أن يستلموا معجوناً وفرشاة للأسنان والصابون، ولا يسمح لهم باستعمال كأس أو كوب الماء، لكن يوجد عادة في العنبر أناس في الدرجتين الثالثة والرابعة غير معاقبين، إنهم في مراحل تؤهلهم للخروج من حالة العقاب التي يعيشون فيها، وهؤلاء عادة يمكنهم أن يزودوا بقية السجناء بما يحتاجونه من المعجون وفرشاة الأسنان والصابون؛ لأنهم غير معاقبين، لكن كيف سيوصلون هذه الأغراض إلى غيرهم من المعاقبين، إن الحارس لا يوافق على حملها وإرسالها إليهم؛ لذلك لا بد من استعمال طريقة أخرى لتوصيلها، إنهم يوصلونها بطريق الخيط، ما هذا الخيط ومن أين يحصلون عليه؟ يحصلون عليه من المنشفة التي توجد مع كل واحد منهم، إنها عبارة عن نسيج خيوط كثيفة مع بعضها بعضاً، فيقومون بأخذ

خيط طويل منها، فإذا كانت الغرف التي يريدون الإرسال إليها في الجهة نفسها التي توجد فيها هذه المواد فهذا سهل، فيكون الإرسال والتوصيل عبر الشبك من سجين لآخر، حتى تصل إلى الغرفة المطلوبة، وإذا كانت الغرفة المطلوبة في الطرف الآخر، الذي يفصل بينهم وبينها الممر، الذي عرضه متران تقريبًا، فلا بد من استعمال الخيط، حيث يربطون المواد التي يريدون إرسالها إلى الغرف المعاقبة بطرف الخيط الموجود معهم من داخل الغرفة، وطرف الخيط الآخر يجمعونه حتى يكون شكله مثل حبة الحمص، ثم يحاولون قذفه عبر شبك غرفتهم، قد يرتطم ويصطدم بشبك غرفتهم أول مرة أو التي بعدها فيسحبونه، ثم يحاولون قذفه من جديد المرة، تلو المرة حتى يخرج من شبك غرفتهم، بقي الآن أن ينفذ من شبك الغرفة المقابلة، قد يصطدم الخيط (الكرة) بشبك هذه الغرفة بعد أن يقذف من الغرفة التي فيها المواد.

يحاول الشخص قذفه عدة مرات حتى يمر الخيط من شبك غرفته، ومن شبك الغرفة المقابلة التي نريد إرسال المواد إليها، إذا وصل الخيط (الكرة) إلى الغرفة المقابلة ودخل إليها قام الشخص الموجود في الغرفة وسحب الخيط (الكرة) الذي طرفه بيده وطرفه الآخر في الغرفة المقابلة التي يوجد فيها المواد، يبدأ بسحب الخيط إليه مع المواد المربوطة بطرفه- فرشاة أسنان أو معجون أسنان

وصابون - تصل إليه المواد، فيفكها ويأخذها، وهكذا يفعل المعتقل كلما أراد إرسال مواد عبر شبك الغرف بهذا الخيط هو أو غيره؛ لأن الخيط متوافر مع كل واحد.

تمر الأيام وأنا موجود في هذا العنبر، وهو أكثر عنبر سكنت فيه وحفل بعقوبات ومشكلات مع الحراس، وفي صبيحة يوم من الأيام جاء الحراس وقالوا لي: [عليك تحقيق، لكن بعد ساعتين هذا اليوم] عادة الحراس لا يخبرون أحداً بموعد تحقيقه، إنما يأتون إليه فجأة ويطلبون منه أن يذهب معهم إلى التحقيق فوراً، لكن حالة العنبر التي كان يرفض فيها السجناء الذهاب للتحقيق، ثم الدخول على الغرف بواسطة فرق مكافحة الشغب، جعلتهم يخبرون الأشخاص الذين عليهم تحقيق قبل موعد تحقيقهم بساعتين، حتى إذا رفض السجين الذهاب إلى التحقيق يرتبون ويحضرون له فرقة قوات مكافحة الشغب؛ حتى تقتحم عليه غرفته، جاء الحراس وخرجت معهم إلى التحقيق، ودخلت إلى غرفة التحقيق فإذا بها جهاز كمبيوتر، وجهاز آخر لا أعرفه، ولم أره من قبل.

جهاز كشف الكذب

علاوة على جهاز الكمبيوتر والجهاز الذي لا أعرفه هناك مجموعة أسلاك، وقد ظهر لي أن شكل هذه الغرفة ليس شبيهاً لشكل غرف التحقيق التي عهدناها من قبل، جلست أو أجلسني الحراس على الكرسي، جاء المترجم قبل المحقق على غير العادة، وقال: سوف نعرضك على جهاز كشف الكذب في هذه الجلسة، بدأ يشرح لي المترجم طريقة عمل هذا الجهاز، وأخبرني بالأسئلة التي سيسألني عنها حتى أحضر لها الأجوبة، وقال: إن هذا الجهاز يعمل بنبضات القلب وعلى الحالة النفسية والعصبية للمسجون، ويجب عليك ألاّ تحرك أي جزء من أجزاء جسدك في أثناء الاختبار، وطرح الأسئلة التي سوف تجيب عنها إنما تكون الإجابة عنها مختصرة، بكلمة واحدة نعم أو لا، تكون الإجابة عنها ليس بشرح مطول أو بتفصيل أو تعليل، هذا كان كلام المترجم لي، ويبدو من لهجته أنه

من بلاد المغرب العربي. بعد قليل جاء شخص آخر وجلس مقابلي، وقريب مني، وبدأ يشرح طريقة عمل هذا الجهاز، وأنه أدخل إلى المحاكم وبدأ العمل به للكشف عن المجرمين وعن الحالات الغامضة التي لا يعترف أصحابها بجرائمهم، ويعمل به الآن في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل رسمي، وأنا متخصص في هذا الجهاز، ولا يستطيع أحد أن يعمل عليه، وجئت من أمريكا من أجل العمل عليه هنا في معتقل (جوانتنامو) وأنا قد قرأت ملفك وسير التحقيق معك، وعرفت أنك إنسان متعلم ومثقف؛ لذلك سوف نستريح معك وبدأ يشرح لي عمل هذا الجهاز وأنه يعمل على النبض ودقات القلب والحالة النفسية والعصبية والمزاجية لمن يجري عليه الاختبار، وبدأ يذكر لي الأسئلة التي سوف يسألني عنها، وأجرى لي تمرينًا وتدريبًا على هذه الأسئلة- قبل أن يصل أسلاك الجهاز بجسمي.

وبعد أن أعطاني تدريبًا على الأسئلة، قام وأوصل اليد اليمين، ثبت الأسلاك في إصبعين الإصبع الأول السبابة (إصبع التشهد في الصلاة) والإصبع الثاني الخنصر، الإصبع الذي يلي الوسطى، واليد اليسرى ثبت الأسلاك في الإصبعين نفسيهما كما ثبت أسلاكاً أخرى في عضدي- عضدي الأيسر وثبتها أيضاً في مكان ثالث على الصدر فوق القلب وقال: اجلس جيداً واتكئ على الكرسي وارفع رأسك وانظر إلى نقطة معينة على الجدار أمامك، ولا تنظر إلى

غيرها ولا تتحرك أي حركة. إن عمل أي حركة تفشل الاختبار وتغير في النتيجة الصحيحة التي نريد أن نصل إليها، وقال: هل أنت جاهز؟ وبدأ يسأل الأسئلة الآتية:

١- هل عملت عملاً مشيناً يسبب العار لك أو لأهلك؟

٢- هل تطيع أوامر القرآن الكريم إن أمرك بأي أمر من الأمور؟

٣- هل سبق وشاركت في عمل ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، أو ضد حلفائها؟

٤- هل تنوي القيام بعمل ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، أو ضد حلفائها بعد خروجك من السجن؟

٥- هل سبق أن خالفت أمراً من أوامر القرآن الكريم؟

٦- هل ستقوم بتحريض وعداء لمصالح أمريكا، أو مصالح حلفائها في أفغانستان؟

٧- هل أنت جالس على الكرسي؟

٨- هل الكهرباء مضاءة؟

٩- هل أنت عضو في الجماعات الإرهابية الآتية: تنظيم القاعدة، حركة طالبان، الحزب الإسلامي الأفغاني، الجماعة الإسلامية،

جماعـة الجهاد، جماعـة الزرقاوي، وذكـر لي أسماء أكثر من عشـر جماعات، نسيتها، فيما إذا كنت عضواً فيها أو في أحدها والأسئلـة التي سألني عنها أكثر من هذه، لكنني نسيت ما تبقى من أسئلة، أجرى الاختبار وكرره وأعاده علي ثلاث مرات.

بعد الانتهاء من الاختبار قلت للمسؤول عن هذا الجهاز (والذي أجـرى لي الاختبار): ما هي النتيجة لو سمحت؟ قال: أنا لا أعرف، الاختبـار هذا سيرسـل إلى واشنطن وهم الذيـن يقررون ويعرفون النتيجـة، أنا لم أكـترث كثيراً بكلامه؛ لأنهم قـد يخبرون بالنتيجة بعـد الانتهـاء من الاختبار، كمـا سمعت من بعض السجناء وقد لا يخبرون، كما حدث معي ومع غيري.

والأسئلـة التي طلب مني الإجابة عنها، ليست هي الأسئلة التي يسألها لكل سجين، الأسئلة التي توجه لكل سجين تختلف عن الأسئلة التـي توجه لسجين آخر، الأسئلة تكون حسب الثقافة، وحسب العمل والمهنة وحسب سير التحقيق مـع الشخص، وحسب المشكلات التي كانـت تحصل في غرف التحقيق بـين السجين والمحقق حسب التهم الموجهة لكل شخص تنسجم مع عمره وتطلعاته وأهدافه، تتوافق مع التزامـه وسلوكه مع شخصيته وسيرة حياته، ونظافة معاملته، ومع أمـور كثيرة أخرى قـد لا نعلمها نحن، هكذا يبدو ويظهر من مجمل الأسئلـة التي وجهوها وسألوها إلى كثـير من السجناء ممن جربوا هـذا الجهـاز، وممن سمعتهم يتكلمـون عن هذا الجهـاز وأسئلته.

إن الأسئلـة التـي أجبت عنها مبشرة من حيـث نوعيتها، ومن حيث نتيجتهـا، حقيقة أنا استبشرت خـيراً بالأسئلة والأجوبة، لقد كانت أعصابـي كأنهـا في ثلاجة، كنت مطمئناً إلى قـدر الله -عز وجل- واثقاً أن فرج الله قريب.

سمعـت مـن الكثيرين مـن السجنـاء أنهـم رفضـوا الجلوس والاختبار على هذا الجهاز، وقالوا: إنه جهاز غير معمول به قانونياً في محاكم الولايات المتحدة الأمريكية، لقد عملت به الحكومة مدة، ثـم ثبت لديهـا أنه جهاز يتهم البريء ويـبرئ المتهم؛ لأن كثيراً من النـاس لهم قـدرة كبيرة وناجحة علـى ضبط انفعالاتهـم النفسية ويستطيعون أن يتجاوبوا بهدوء تام مع الأسئلة التي توجه إليهم.

لكـن بعض السجناء بـل أكثرهـم جلسـوا على هـذا الجهاز وخرجت نتائج اختباراتهم إيجابية، لقد نجحوا في الاختبار كما قال لهم المسؤول عن الجهاز، وبعض السجنـاء يدركون أنه جهاز لا يقدم ولا يؤخـر في سير التحقيق، ولا يفيدهم شيئاً في التعجيل بخروجهم مـن السجـن، لكن يقبلون الجلوس عليه؛ لأن رفض الجلوس على هـذا الجهاز يعني أن لديهـم تهمًا أو قضايا لا يريـدون أن يكشفها الجهاز، ولـو كانت قضاياهم ظاهرة وتهمهـم بسيطة لوافقوا على الجلوس على هذا الجهاز، هذا هو التفسير الذي سيوجه إليهم من قبل المسؤولين.

لكـن هذا الجهــاز ليس هو الفيصل في قضيــة كل سجين، هذا الجهاز ليس هو الحاكم الأخير على كل متهم، هذا الجهاز لا يملك أن يقول لــك: إنك بريء ويقول للسجان: افتح الباب لهذا السجين، وأطلــق سراحه إنه بــريء، لقد سمعت عن الكثيريــن من السجناء قبــل خروجنا بشهــور كثيرة، أنهــم وافقوا على الجلوس على هذا الجهــاز، ووجهت لهم الأسئلة العادية غــير الخطيرة التي لا علاقة لها بالجهاد ولا بالإرهاب، (كما يسمونه) لا علاقة لها بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، ولا علاقة لها بأي أحداث عنف وقتل وقتال سابقة وقعــت ضد الولايات المتحدة الأمريكيــة وخرجت نتائج جهاز كشف الكذب عنهم إيجابية.

وقــال لهم المسؤول عن هذا الجهاز: لقــد تم اختباركم بنجاح، لم يبــقَ لكــم أي شــيء، لقد انتهــت ملفاتكــم وسوف يفــرج عنكم قريبــاً، وسترجعــون إلى بلادكم، هــذا الذي سمعته عــن الكثيرين مــن السجناء، لكــن مازالوا داخــل السجن، ولم يفــرج عنهم حتى الآن، إن الجلوســ علــى هذا الجهاز صحيح، إنه هــو آخر فصل في التحقيــق، وهو آخــر فقرة في تهمة وملف كل سجــين، لكنه ليس هو آخــر فصل، وآخر فقــرة في بقاء هذا السجين في السجن، وإنه على أعتاب الخروج من أبواب هذا المعتقل.

إن الجلوســ على هــذا الجهاز يعني أن التحقيــق مع المتهم قد أوشــك علــى الانتهــاء أو انتهــى، لكنه إلى أيــن انتهى؟ إمــا انتهاء إلى الــبراءة والخــروج من السجن وإما انتهــاء إلى انتظار المحكمة وصــدور الحكم، والحكم يكــون إما بالبراءة والخــروج من السجن وإمــا بالبقاء في السجن وانقضاء مدة الحكم الذي تقدره المحكمة، لكــن متى ستشكل هذه المحكمة ومتى ستنعقد حتى تصدر أحكامها على هؤلاء النــاس؟ الله أعلم.

إن السجــن بلاء وامتحــان بلا شك، والإنسان مــا كان يتصور أو يظــن أنه سيتحمل السجن، يتحمل حــره وبرده، عذابه الجسمي والعصبي والنفســي، الانفراد والوحدة، البعــد عن الأهل والخلان والأصحاب والجيران، ما كان يظن أنه يتحمل البعد عن شهواته.

درس من السجن

ما كان الإنسان يظـن أنه يتحمل السجن في هذه الحياة الدنيا التي تعود عليها رخيَّةً هنيَّةً، خاصة إن كان هذا الإنسان من أصحاب الشهـادات والمناصب العليا أو كان مـن أهل الثراء والمال. إن الدنيا كانـت قد فتحت له ذراعيها وتمرغ في أحضانها ظهراً لبطن، ثم ما يفتح عينيه إلا وهو في زنزانة انفرادية لا يرى فيها الشمس، لا يكلم أحـداً ولا يكلمـه أحد، تمضي عليه الأيام، بـل الأسابيع، بل الشهور وهو في هذه الحالة، فجأة وفي لحظة واحدة، نزل عليه البلاء وضاق عليه الفضاء وتنكر له الأخلاء.

مَا بينَ طرفةِ عينٍ وانتباهتِها   يغيّـرُ اللهُ مِـنْ حـالٍ إلـى حـالِ

إن الدنيا لا تدوم على حال ومن المحال دوام الحال، والدنيا دول، وكما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

هِـيَ الأيـامُ كما شاهدتُها دولٌ   مَـنْ سـرَّه زمـنٌ ساءتْه أزمـانُ

إن السجـن صبر، صبر واحتساب على ما يصيب الإنسان، وما لم يكن عند الإنسان صبر، فسيواجه متاعب كثيرة جداً، وكل من لم يخض معركة الصبر في الحياة الدنيا ولم يذق مرارة التحمل ولأواء البعد والحرمان، فسوف يصطدم بأبسط عقبات السجن، وإذا لم يتحمـل أقل هذه العقبـات، فسيسقط في أول مراحـل هذه الرحلة، وسيتحطم عند أول مشكلة تواجهه في أول عتبة يتخطاها عند دخوله لهـذا القبر الكبير، ولقد أوصى بعض مـن كان معنا وصية لإخوانه أن يكـثروا مـن قـول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، دعاء سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام في بطـن الحـوت، فقال له صاحبـه وهو يحاوره: هـل نحن في بطن الحوت؟ فأجابه: وهل هذه الزنازين إلا كبطون الحيتان.

إن التقلـب في نعيـم الدنيا والتوسـع في مباحاتها الحلال، من أكبر الأمـور الضاغطة على الإنسان في السجن، ومن القضايا التي تكون عائقاً له على الثبات في هذه المحنة، ومن الجوانب التي تجذبه وتشده وتحببه للرجوع إليها والغرق في بحرها، ولو كان على حساب مبدئـه ودينـه، وما لم يكـن معـك زاد الطريق من القـرآن الكريم والذكـر من سنة سيد المرسلـين ﷺ والاقتداء بالسلف الصالحين، والاحتساب أولاً وآخرًا لله رب العالمين فسيصيبك الوهن وستضعف عزيمتـك، وستـدركك السآمة والملـل، وتنتابك الأوهـام، وتغزوك

الأسقـام وتعشعش في فـؤادك الوساوس وتلبسـك الآلام، ويكسوك اليأس والقنوط من رحمة رب العالمين.

إن السجـن قدر الله -عـز وجل- على عبده المؤمن بلا شك ولا مرية، والإنسان الذي لديـه قوة وقدرة وعنده صبر وتحمل، لم يكن ليكتشف هذه القوة وما كان ليعرف هذا التحمل والصبر من دون أن يدخل في فرن الابتلاء، ومن دون أن يلج محك الامتحان والاختبار، لقـد كان قدر الله علينـا في هذا السجن سهلاً وبسيطًا بالنسبة إلى الابتلاءات التي أصابت غيرنا.

صحيـح أن الـذي أصابنـا سجن، وبعـد حسي، وبعـد معنوي، ونفسي، بعد عن الأهل والوطن، لكن لما كنا نقارن أنفسنا بالآخرين كان الأمـر يهـون علينا، كنا نقـرأ عن سيدنا يوسـف عليه الصلاة والسـلام، وكيف أنه لبـث في السجن بضع سنـين، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ما هو ذنب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، وما هي الخطيئـة التي ارتكبها حتى يدخل السجن، ذنبه أنـه طاهـر، ذنبه أنه نظيـف، هذا حكـم أهل الدنيا علـى الطاهر والنظيف، لقد أصبح الطهر وأصبحت النظافة المعنوية جريمة يزج بصاحبها في السجن، هذا منطق أهل الدنيا تجاه كل طاهر وعفيف ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢).

أي منطق هـذا إن هذا المنطق يقول: إذا لم يتلطخ يوسف عليه الصلاة والسلام بهذه الفعلة الشنيعة، ويوافق هذه المرأة في هواها فمصيره السجن، لماذا؟ لأنه عفيف وطاهر، فما دام أنه عفيف وطاهر، فلا بد أن يكون مصيره السجن، وصدق الله العظيم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦).

إن لوطاً ومن معه من المؤمنين لا بد أن يطردوا ويخرجوا من بلدكم؛ لأنهم في عرفهم ومعتقدهم أناس مذنبون ومخطئون هل تعرفون ما ذنبهم؟ إنهم يتحرجون من فعل ما تفعلونه، إنهم يتنزهون ويتطهرون عن أفعالكم وعن إقراركم على صنيعكم -اللواط- فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء وروي مثله عن ابن عباس.

ياليت الظلمة وأعوانهم اليوم يطردون الدعاة ويخرجونهم من بلادهم، بدلاً من زجهم في غياهب السجون والمعتقلات! لقد كان قوم لوط أحسن حالاً منهم، لو أن شخصاً أو مؤسسة اليوم قامت بعمل مسح للسجون في العالم الثالث، فإنها سوف تخرج نتيجة أكيدة، مضمونها: إن هذه السجون لا يوجد فيها إلا المتطهرون، لا يوجد فيها إلا الدعاة الصالحون، لا يوجد فيها إلا من يقول للناس:

أيها الناس، هذه طريقكم الصحيحة هذه هي الطريقة التي فيها حل مشكلاتكم وخروجكم من جميع هذه المشكلات، الطريقة التي فيها العزة والغلبة في الدنيا والفوز العظيم في الآخرة.

كنا نستصغر أنفسنا إذا اشتكى أحدنا، أو تذمر أو تضايق أو تضجر من غرفته أو من طعامه ولباسه أو... كم كان يمسح على جراحنا ويخفف عن آلامنا ما لاقاه كبار الدعاة إلى الله -عز وجل- ، منذ آدم عليه السلام، وحتى آخرهم محمد ﷺ، فقد لاقوا أذى وشتماً وعذابًا من أجل الله -عز وجل-، فها هو سيدنا رسول الله ﷺ حاصره المشركون في شعب أبي طالب ثلاث سنين.

إنه سجن كبير وإن لم يكن فيه غرف وزنازين صغيرة، قاطعوهم فلم يبيعوهم ولم يشتروا منهم ولم يزوجوهم ولم يتزوجوا منهم، لم يجد الصحابة في هذا السجن طعاماً يأكلونه، لقد صوَّر سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله ومن العشرة المبشرين بالجنة الجوع الذي نزل بهم، فقال: خرجت ذات ليلة أبول، فإذا بصوت تحت بولي فإذا هو جلدة فأخذتها وغسلتها وأكلت ما استطعت منها، والله أعلم جلدة أي حيوان تكون هذه الجلدة!

لقد كان بعض السجناء -جزاهم الله خيراً- يخففون عنا ضيق السجن، وبعد الأهل، ووحشة الأيام، بكلمات تقع كأنها الماء الزلال الذي ينهل منه العطشان، كلمات عن دعاة في كل بقاع الأرض، قام

الظلمـة وأعوانهم بزجهم في غياهب السجـون سنين طويلة، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، منهم من قضى نحبه في سجنه، ومنهم من ينتظر فرج الله.

لقد كنـا نسمع عن زينب الغزالي، امـرأة سجنت سنين طويلة بلا ذنـب، فما كان لها من ذنب إلا أن قالت: ربي الله، اقرأ قصتها في كتـاب «أيام من حياتـي»، وستعرف من هي زينـب الغزالي، أما الرجـال الذين سجنوا في هذه المحنة نفسهـا، فقصصهم لا تخفى على أحد، وحياتهم في السجن نشرت ويعرفها القاصي والداني.

إن السجـن أداة مـن الأدوات التي يلجأ إليهـا العجزة عندما يجبنون عن مواجهة الحق، إنه الوسيلة التي يسلكها الجبناء عندما يفقدون الحجـة الواضحة، والدليل البين في إدانـه خصومهم، إنه الطريق الـذي يسير فيه الجـلاد عندما تعتريه الكبريـاء، ويلبسه الغرور ويعشعش في قلبه الظلم والبطش، ها هو فرعون قائد الظلمة والجبارين، وكبير العتاة والمجرمين في كل زمان ومكان، لا يجد أداة لتهديـد سيدنا موسـى عليه الصلاة والسـلام إلا السجن ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩).

إنـه منطق الضعفاء والمهزومين، الذين غابت حجتهم وضعفت إرادتهـم، ووهن منطقهم عن مواجهـة الحقيقة، بل تمادى فرعون

في غيـه واستمر في ضلاله إلى تهديد موسى عليه الصلاة والسلام بالقتـل، عندما لم يكـترث سيدنا موسى بتهديـده بالسجن ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

الطاغيـة أصبح واعظـاً، والمتكبر والمتغطرس أصبـح مذكراً مشفقـاً، والمجـرم الأول أصبـح آمراً بالمعـروف ناهياً عـن المنكر، وموسى عليـه الصلاة والسلام، المرسل من رب العالمين، والذي هو مـن أولي العـزم من الرسـل، أصبح في نظر فرعـون مفسداً، يريد تبديل ديـن النـاس، إنها المفارقات، يا للعجـب من حكم أهل الدنيا على أهل الدين!

قبـل خروجي من كوبا بشهر تقريباً وبعد تناول طعام الإفطار، جـاء الحراس وقالوا: عليـك عيادة، قلت لهـم: لا أستطيـع اليوم الذهاب إلى العيادة، أنا لست مريضاً أولاً، وثانياً جاء حلاق الشعر ولا بـد أن أحلـق شعر رأسي اليـوم، وإلا فلا بد مـن الانتظار ثلاثة أشهـر أخـرى؛ لأن الحلاق لا يمر على عنابـر السجناء إلا بعد مدة طويلة، انصرف الحراس دون أن أذهب معهم.

وخرجـت للحلاقـة، وفي اليوم اللاحق عـاد الحراس، وقالوا: العيادة، قلت لهم: أما الآن فلا بأس.

دخلت العيادة، جاء الطبيب، أجرى لي بعض الفحوص السريعة على جسدي، العينين، الحلق، الأذن، وأخذ وزني وطولي وقياس اليدين والرجلين والعنق كأنه قياس خياط يريد خياطة بنطال أو قميص، ثم أرجعني الحراس إلى غرفتي، لكن بعد تناول طعام الغداء جاء الحراس، وقالوا: عليك تحقيق، قلت: حاضر تم التقييد بالسلاسل ثم التفتيش، سرنا ووصلنا إلى غرفة التحقيق، جلست على الكرسي، فك الحراس اليدين، ثم قيدوا الرجلين بحلقة مثبتة في الأرض، وجاء المحقق، وكانت سيدة والمترجم يبدو من لهجته أنه عراقي، قالت المحققة: هذه الجلسة قد تكون آخر جلسة لك في التحقيق.

وبعد هذه الجلسة سنرفع ملفك إلى واشنطن، وخلال ثلاثة أسابيع سيأتي الرد عليه من واشنطن، بدأت تسألني عن عملي في باكستان قبل اعتقالي منذ وصلت إليها ١٩٨٥م إلى وقت اعتقالي ٢٠٠٢م، قلت لها: كل عملي طيلة وجودي في باكستان كان في مجال التعليم في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، قالت: لماذا لم تكمل دراستك؟ قلت لها: لم يتيسر لي ذلك بسبب العائلة، وبسبب قلة الموارد المالية عندي، قالت: لو رجعت إلى الأردن وأتيحت لك فرصة إكمال الدراسة، هل ستواصل دراستك، قلت: نعم بلا شك، ولقد انتابني إحساس جلي وراودني شعور قوي من خلال مدة وجودي في السجن.

وفي ثنايا جلسات التحقيق أن الأمريكان يحبون (يفضلون) الشخص المتعلم، رجلاً كان أو امرأة، إنهم يميلون (يحبذون) إلى الشخص المتفتح الذي يتصل بالدنيا ويعرف ما يدور فيها، وما يجد عليها، كنت أشعر أنهم يرتاحون للرجل الذي أمضى حقبة من عمره في التعليم، حقبة المدرسة والجامعة وما بعد الجامعة؛ لأنهم يربطون كما شعرت وأحسست بين المتعلم أو المثقف وما يجري من أعمال قتل وتدمير، المتعلم تعليمًا وثقافة عصرية أو ثقافة حكومية حديثة، وليس المثقف ثقافة دينية، ثقافة المسجد والشيخ أو ثقافة الحلقة والزاوية، أو حلقة الموجه الروحي والمربي الحركي.

الثقافة والتربية

وعلى ذكر المربي الحركي، فإنهم يتذكرون مثلا حركة طالبان التي كانت تحتضن تنظيم القاعدة وما يجري في داخل أفغانستان أو خارجها من وأعمال عدائية للغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وأعمال ظاهرة العداء والكراهية معنويًّا ونفسيًّا، وإن كان بعض أفراد حركة طالبان قد نال قسطاً من التعليم إلا أنه تعليم ديني (حسب رأيهم) علمهم التطرف والقتل، إنهم لم يحصلوا على التعليم العصري والثقافة الحديثة، إنهم متقوقعون (حسب الرأي الأمريكي) في مساجدهم، أو زواياهم أو مع مشايخهم المتحجرين القدامى، لا يعرفون ما يجري في الدنيا، حتى اللغة الإنجليزية يعدون تعلمها وتعليمها إثمًا وحرامًا، يقولون: إنها بدعة ويقولون: إنها لغة الكفار.

لذلك فإنك تلمح مما تسمعه من الأمريكان أنهم لا يحبون التعليم الديني المحض، لا يحبون المعاهد الدينية؛ لأنها تركز على

المـواد الدينيـة والعربيـة كثيراً، حتى ولـو كان في هـذه المعاهد مواد عصريـة علميـة، كالرياضيـات والعلـوم، حتـى ولو كان فيهـا المواد الاجتماعية المختلفة أو الثقافية الحديثة أو حتى لو كانت هذه المعاهد تعلم اللغات المختلفة؛ لأنهم يعدّون هذا الكم من التعليم الديني كافيًا لتوجيـه الطالب نحو الهدف الذي يريده بقـوة، فهذا الكم من العلم الشرعي قادر على تكوين شخصية الطالب بسرعة، شخصية متميزة قويـة يبرزها ويجعلها قادرة على معرفة الإسلام والكفر، قادرة على تحديد معنى الـولاء والبراء بدقة، بحيث يتحدّد اتجاه جميع الناس، وتجعلـه يعيش في أرض الواقع ويتواضع مع غيره، يطبق وينفذ ويعمل بهذه المبادئ التي تعلمها، إنك تلمح أنهم يفضلون المدارس العصرية؛ لأن الاهتمامـات في هذه المدارس بمواد بعيدة عن حس المسلم، ليس للدين فيها نصيب، الدين فيها ضعيف جداً إن وجد.

المدارس العصرية لا تهتم ببناء شخصيـة الطالب الذي يعتز بدينـة ووطنه أو لغته وتراثه، إنها تهتـم بثوبه وشكله ولا تهتم بقلبه وروحه تخرجه ذكياً ولا تجعله زكياً تخرجه يحمل شهادة وثقافة ولا يحمل تربية وعفة وطهـارة هذا على العموم والغالب إلا ما قل وندر وقليل ما هم.

هذه هي النتيجة التي وصل إليها الأمريكان عن المتعلمين وغير المتعلمين، بوصفها تطبيقًا عمليًا لما وصلوا إليه، وربما لمسوه وأدركوه

مـن مجموع المعتقلين الموجودين في معتقـل جوانتنامو (كوبا) حيث إن عـدداً لا بأس بـه ربمـا دخل الصفـوف الأولى، ثـم انقطع عن الدراسـة لفقر أو لعـدم اهتمام بالمدرسة، وبعضهـم لم يذهب إلى مدارس الحكومة أصلاً، لكنه اكتفى بحلقات المساجد والمشايخ إنك تلمـح وتحس أن الأمريكان تنفرج أساريـر وجوههم ويفرحون ليس فقـط لأنك متعلم في المدارس الحكومية أو الجامعات الحكومية، بل لأنك تؤمن بهذا المبدأ أنت أولاً وتطبقه على أولادك.

فإن علمـوا أن أولادك وخاصة البنات في المدارس والجامعات يقـول لك المحقق: هذا جيـد، أين يدرسون؟ مـاذا يدرسون؟ ويبدأ يسمعـك كلمـات الثناء والمـدح والتشجيـع، كما يفرحـون أكثر إذا علمـوا أنك لست منغلقاً أو منطوياً علـى نفسك، بل وسائل الإعلام والاتصـال المختلفة عنـدك، تلفزيون أو قنـوات فضائية، كمبيوتر، إنترنـت، وأنك تتابع مـا يجري في الدنيا أو تتأثـر بما يجد ويحدث في عـالم الفن والثقافـة، أو في عالم السياسـة والزعامات، أو عالم المخترعات والصناعات.

حركة طالبان

إن حكومة طالبان كان لها إيجابيات وحسنات في أفغانستان، منها نشر الأمن في البلاد وتطبيق بعض الحدود الشرعية ومحاربة البدع، وإن كانت بطريقة شديدة، ربما نفَّرت أو كرَّهت بعض الناس في هذا النموذج من الحكم الذي تدعو إليه حركة طالبان.

لكن في الوقت نفسه كان لها أيضاً بعض السلبيات، فهي تسير في اتجاه واحد، إذ لا تقبل المفاوضات ولا المناقشات، ولا تقبل الالتقاء مع الآخرين، خذ مثلاً: الأصنام التي حطموها في أفغانستان وأثارت عليهم العالم، أثارت عليهم كثيرًا من المسلمين، ومنهم مشايخ، وربما زارهم بعض مشايخ المسلمين لينصحوهم بألا يقوموا بتدميرها الآن؛ لما له من الآثار السلبية على حكومتهم الجديدة الضعيفة الفقيرة، لكن لم يسمعوا كلام أحد وحُطِّمت التماثيل والأصنام، مع أن أفغانستان قد فتحها الصحابة وعاشوا

فيها وعاش فيها التابعون وتابعو التابعين والصالحون، إلى يومنا هذا، وتركوا هذه الأصنام والتماثيل التي هي كالجبال، ولم يتعرضوا لها ولم يذكروها حتى في كتبهم ولا في تاريخهم.

إن سياسة الطالبان التي لا تستطيع مسايرة الأحداث ولا التعامل مع المشكلات بالطرق الدبلوماسية السلسة ولا تستطيع النزول عن التشدد في القرارات وتتعامل مع الأحداث من زاوية واحدة أثار حفيظة العالم عليهم، وجعلهم نموذجاً لأنصاف المتعلمين الذين فشلوا في حكمهم وحكومتهم، وفشلوا في تقديم الرخاء وإقامة الاقتصاد القوي أو حتى المقبول للبلاد، وفشلوا في استقطاب الناس حولهم وفي مسايسة وقيادة فئات كثيرة من الشعب بالطريقة الصحيحة، وفشلوا في الالتقاء مع قادة الجهاد القدامى وزعمائهم، أو الالتقاء مع أهل الرأي والمشورة في كافة أنحاء البلاد، مما جعل الكثير من الناس في حالة غليان وضغط واحتقان عليهم، حتى إذا كانت الظروف مواتية، انقضوا عليهم أو انقلبوا عليهم وعجلوا برحيلهم.

سألتني هذه المحققة: ما رأيك في حركة طالبان؟ قلت لها: إن حركة طالبان حركة أفغانية، طلاب علم كانوا يدرسون في المدارس الدينية في باكستان، فالحركة انطلقت من باكستان وتعتمد على باكستان في كثير من الأمور الاقتصادية والتوجيهية والسياسية

والعسكرية، قامت هذه الحركة واستولت على الحكم في كابل من الحكومة الأفغانية التي كانت موجودة، وحكومة طالبان كالحكومة التي سبقتها لا تحظى بتأييد جميع أو أغلب فئات الشعب الأفغاني، صحيح أن لها بعض الحسنات التي لم توجد عند الحكومات السابقة التي حكمت أفغانستان، منذ سقوط حكومة نجيب ١٩٩١-١٩٩٢م.

ولكن حكومة الطالبان لم تستطع أن تتعاون مع جميع فئات الشعب الأفغاني، وخاصة قادة الأحزاب الجهادية السابقين الذين كان لهم دور كبير في طرد الاتحاد السوفيتي من أفغانستان، لقد رفضت حركة طالبان أن تتعاون مع أي معارض لها، فقد كان شعارها الذي ترفعه للمعارضين أو لقادة المعارضين: أنا الحاكم والحاكم أنا، أنا وحدي الذي يوجه البلاد، غيري ليس له في الحكم شيء، ضع سلاحك واستسلم، وسوف نبحث في شأنك، وربما نحاكمك على تاريخك الماضي، لقد قطعت حركة طالبان صلاتها وعلاقاتها بكل معارض وبكل من لا يوافقها، حتى ولو كان محقاً.

إن الكثيرين ممن انضم إلى حركة طالبان لا يعرف الكتابة ولا القراءة، أميون، إن نسبة الأمية في الشعب الأفغاني عالية جداً، وهي من النسب العالية في العالم، إن لم تكن أعلاها.

ربما يكون التحليل والتفسير الأمريكي للمثقف أو المتعلم، أن الثقافة والعلم يقودانه إلى حياة آمنة هادئة، التعليم ربما يقنعه بأن

حياة القتل والتدمير وسفك الدماء غير صحيحة، غير ناجحة، غير صالحة للتفاهم والالتقاء مع الآخرين، غير المتعلم ربما يكون عقله وتفكيره يسيران في اتجاه واحد، عقله لا يقبل التحليل ولا التفسير أو لا يقبل الموازنة بين المصالح والمفاسد فيما يقوم به، أمامه هدف وعنده قضية لا بد أن يصل إليها مهما كانت التكاليف، حتى لو كانت السلبيات أكثر من الإيجابيات، حتى لو كانت الخسائر أكثر من الأرباح، مع أن معظم الشباب الذين نفذوا عملية ١١ سبتمبر، وربما كلهم (والله أعلم) متعلمون ومثقفون، وبعضهم في الجامعات الغربية أو العربية، وكثير من الناس الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة -ومنهم شباب- لا يمكن أن يفعلوا مثل هذه الأفعال، بل لا يؤيدون غيرهم للقيام بها ويستنكرون ويشجبون من ينفذها.

إن حركة طالبان حركة طلابية دينية، لكنها باكستانية التخطيط أفغانية التنفيذ، نشأت في المحضن الدافئ باكستان تحت سمع وبصر الأمريكان، والأمريكان يعرفون حركة طالبان كما يعرفون أبناءهم، سألتني هذه المحققة عن الجهاد والقتال في الإسلام، فقلت لها: إن الإسلام لا يحمل السيف على من يريد البقاء على دينه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، اعتناق الإسلام لا يكون إلا عن قناعة، وليس بالضغط والإكراه، الذي لا يريد الإسلام لا يكون عدواً للمسلم، من ليس صديقي لا

يعني بالضرورة أن يكون عدوي، لكن من لم يسلم لا يقف حجر عثرة ولا حاجزاً أمام من يريد أن يسلم، المسلم لا يعدّ غير المسلم- يهوديًّا أو نصرانيًّا أو غيرهما- عدواً له إلا أن يقع منه تجاوز أو اعتداء.

إن بلاد المسلمين، بها كثير من النصارى واليهود لهم كنائسهم ودور عبادتهم يعيشون بلا مشكلات، يمارسون ديانتهم وطقوسهم الدينية بحرية تامة، لهم مناصب ووظائف في الدولة، في حياتهم الاقتصادية والصناعية والسياسية وغيرها كبقية الناس، كما أن الدول الأوروبية وأمريكا بها بعض المسلمين، يعدون في بعضها بعشرات الألوف، وبعضها بمئات الألوف، وبعضها بالملايين، صحيح أن حقوقهم في هذه البلاد ليست حقوق أصحابها أهل البلاد الأصليين ١٠٠٪ لكن لهم حقوق دينية واقتصادية، تجعلهم يعيشون في البلاد حياة جيدة.

قالت: ما رأيك في الأحداث الأخيرة ضد الأهداف الأمريكية التي تعرضت للضرب، مثل المدمرة كول في بحر العرب، قرب اليمن، ضرب السفارة الأمريكية في كل من تنزانيا وكينيا- دار السلام ونيروبي- أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠٢م في نيويورك وواشنطن؟

قلت لها: إنكم تحكمون على الإسلام وأهله من خلال اجتهاد أفراد من المسلمين، يقومون بعمل عسكري ما ضد أهداف أمريكية

لكـم أو لغيركم، وما جرى في ١١ سبتمبر لم يلقَ موافقة وتأييداً من جميع الشعوب الإسلامية ومن جميع علمائها وشيوخها، لقد عارض هـذه الأحداث كثير من المسلمين ومـن علمائهم، لكن أنتم تسمعون للمؤيدين لهذه الأحداث، ولا تسمعون للمعارضين لها؛ لأن هذا يروق لكـم ويتناسب مع سياستكم التـي تنتهجونها، وتبرر لكم وتشجعكم على الكثير من مخططاتكم وأهدافكم عند هذه الشعوب، وتشجعكم على الاستمرار فيها، قالت: أليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن يكون عندها جيش؛ حتى تدافع عن نفسها بهذا الجيش؟

قلـت: الحق لها ولغيرها أيضاً أن يكـون عنده جيش يدافع عن نفسه، لكن الاعتداء على غيركم لا يوافق عليه أحد، واستطردت هنا لأقول: وكما سمعت من بعض السجناء أن أحد المحققين سأل سجيناً عـن أحداث نيويـورك وواشنطن وأحضـر له صوراً لمبنـى التجارة العالمي بشقيه، صوراً مفزعـة، يظهر فيها التدمير للبرجين والفزع والرعـب والهلع الذي يصيـب الناس، والخسـارة البشرية والمادية التـي لحقت بالبـلاد بسبب هذا التدمير، قال لـه: من المسؤول عن هـذا كله؟أليس تنظيم القاعـدة وحركة طالبان التي كانت تحتضن وتأوي هذا التنظيم الذي نفذ هذا الهجوم؟

فأجابـه السجين: كل ما تقوله صحيـح، أنا أوافقك الرأي على كل مـا تقوله في تنظيم القاعدة وحركة طالبـان، لكن لماذا لا تسأل

نفسـك وأنت محقق تجمع المعلومات والأخبـار من المعتقلين، وتريد أن تصـل إلى الصواب والحقيقة أو لمـاذا لا تسأل الولايات المتحدة الأمريكيـة نفسهـا سؤالاً مهمـاً ودقيقاً؟ لماذا وقعت هـذه الأحداث المدمـرة لها ولم تقـع لغيرها من الدول الكـبرى كبريطانيا وفرنسا والصين، أو لأي دولة أخرى؟

إن المثـل العربي يقول وأظن أن هذا المثل في بلادكم: (من كان بيته مـن زجاج، فلا يقـذف الناس بالحجارة) أظـن أن كثيراً من الشعـب الأمريكـي أو معظمه لا يحـب الإرهاب (كمـا تسمونه) أو قتل الأبرياء، ولا يحـب تدمير المباني، ولا نسف العمارات والجسور ولا مهاجمـة السفـارات، ولا يرغب في مهاجمة السفـن ولا إسقاط الطائـرات، ولا يحب أعمال العنـف ولا إراقة الدماء؛ لذلك يعارض الحـرب وترتفع أصواتهم التي تطالب بسحب الجيش الأمريكي من الخارج ورجوعه إلى بلده.

أصـوات مـن أناس عاديين من الشعـب، وأصوات من جمعيات حكومية وغير حكوميـة، وأصوات مـن وزراء ومسؤولين كما سمعنا مـن الكونجرس أو من مجلـس الشيوخ أو في غـير مجلس الشيوخ، أنتم تنشرونها، ووسائل الاعلام تتكلم عنها، لكنها أصوات لا يلتفت إليهـا، يرمى بها في سلـة المهملات أو يضرب بهـا عرض الحائط، وتلتفتون إلى الأصوات التي تطالب بالتوسع خارج أمريكا والمحافظة

على الاقتصاد القوي والتحكم في القرار العالمي وإخضاع الشعوب الفقيرة والمغلوبة على أمرها، وإيجاد أرض تعطي المواد الخام لمصانعكم وتكون سوقاً لمنتجاتكم، أليس كل ما أقوله لك صحيحًا أيها المحقق؟

أين الضغط الذي قام به الشعب الأمريكي أو المسؤولون الأمريكيون، أو الجمعيات والهيئات الأمريكية التي ضغطت بكل ما تستطيعه من قوة، حتى أجبرت حكومة بلدها على سحب جيوشها من فيتنام؟ أما كان ذاك الضغط وذاك القرار قراراً صائباً وعملاً أيده كل الشعب الأمريكي أو معظمه؛ لأنه كان في مصلحة الشعب الأمريكي وفائدته؟

ولقد تناقلت الأخبار -وكنت ممن سمع هذا الخبر- خبرًا يقول: إن أستاذًا يعمل في جامعة أمريكية (أظنها جامعة كولورادو) قال: إن ما جرى للناس في برجي التجارة في نيويورك، من هلاك ودمار إنما سببه سياسة بلادهم، أو بسبب سياسة حكومتهم الخارجية، فقامت عليه الدنيا في أمريكا تطالب بفصله من الجامعة، وتوالت عليه التليفونات من جميع أمريكا تشجب هذا الأستاذ وتنتقده وتهاجمه؛ لأن ما يقوله فيه تشجيع للإرهابيين للعمل ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في الداخل والخارج، وقام بعض الناس في أمريكا يحللون كلام هذا الأستاذ بين مؤيد ومعارض.

ومما سمعته من بعض هؤلاء أن عمليات ١١ سبتمبر سوف تكون بداية النهاية للديمقراطية في أمريكا؛ لأنها (أي الأحداث) ستكمم الأفواه وتسكت الألسنة التي ستنتقد وتعارض الحكومة الأمريكية، وتبين أخطاءها السياسية والعسكرية وهذا التكميم والكبت سيلحق الإضرار بالوطن الأمريكي وسيلحق الضرر بالبلاد والعباد.

الانتحار

إن عمليـة الانتحـار عن طريـق الشنق (تعليـق السجين نفسه بالشيت) والشيت قطعة قماش كبيرة وطويلة يثبتها في أحد جدران الغرفة المشبك، ويضع الشيت في عنقه، لقد شاهدتها مرات كثيرة، وهذا التعليـق إما أن يكون احتجاجاً على شيء يحدث في السجن لا يريـده السجناء، كما حـدث عندما قام أحد المحققـين وداس على القـرآن الكـريم، أو عندمـا يتعرض السجين إلى ضغـط وتعب في التحقيـق يجعله في حالـة نفسية متوترة، وهـذا التعليق قد يقوم به السجـين هزلاً، إذ يعلـق نفسه، فيعلو صـراخ المساجين وصياحهم، يطلبون الحراس ليفتحوا باب الزنزانة على السجين.

يقـوم الحراس بمنعـه من إتمـام انتحاره، وقـد شهدت بعض السجنـاء المصابـين بحالة نفسيـة متدنية، تجعلهـم لا يسكنون في غرفـة إلا ويكسرون مـا يستطيعون تكسـيره فيها، المغسلـة، حنفية

المـاء، وقـد حاول بعضهـم الانتحار مرتـين في عنبر واحـد، عملية الانتحار الأولى وقعت عندما كان يسكن في غرفة رقم (٢٥)، ليكون دائمـاً تحت مراقبة الحراس، لكنَّ الحراس لا يمكن أن يكونوا طيلة الوقت (٢٤) ساعة يراقبون كل السجناء في العنبر، إنهم يتحركون وينتقلـون، يقدمـون الخدمـات للسجنـاء أو يخرجونهـم للمشـي والرياضـة والاغتسال، حاول الانتحـار، في هذه الغرفة لكن جيرانه شاهـدوه وهو يحاول الانتحار فصرخوا على الحراس الذين هرعوا ودخلـوا الغرفة عليـه ومنعوه من إتمام عملية الانتحـار، ونقلوه بعد ذلـك إلى غرفة رقم (١) الملتصقـة بغرفة الحراس، لكن الحراس انشغلوا عنه بخدمات تقدم في العنبر.

وفي غيبـة عيـون الحراس عنـه علق الشيت وحـاول الانتحار، فصـرخ جيرانه على الحراس الذين جاؤوا مسرعين ودخلوا الغرفة عليـه وخلصوه مـن التعليق، إن الحراس يصيبهـم الذعر والخوف الشديد عندمـا تكون في العنبر الذي يحرسونه عملية تعليق وشنق؛ لذلك يحاولون ألا تكون هناك أي عملية من هذا النوع عندهم؛ لأنه لـو حدث أن تمت عملية الانتحار والشنق في العنبر الذي يحرسونه، فـإن هذا يعني وقوعهم تحـت المسؤولية والحسـاب والعقاب وأنهم قصروا في حراسة المساجين ومراقبتهم.

حدث مـرة أن أحد السجناء كان يقيـم في السجن الانفرادي، فحـاول الانتحـار، ووصل إلى حافة الموت، لكـن الحراس أنقذوه في آخر الأمر، سمعت ممن يعرفه، أن هذا السجين كان في حالة نفسية سيئـة، عمليـة الشنق أو الانتحـار لم تتم، لكـن كان لها مضاعفات عليـه، حيث أصيب عنقه بكسر وساءت صحته، نقلوه إلى المستشفى وبعد مدة تحسنت حالته الصحية والنفسية.

هناك نوع آخر من الانتحار، لكن لا ندري هل يقوم به السجين جـاداً أم هازلاً، وهـل سببه الضغط النفسـي وجلسات التحقيق،أم سببـه الاحتجاج على أعمال يقوم بها المحققون أو الحراس، أعمال يتحرشـون أو يتحـدون بها مشاعـر السجناء، مثل تفتيش القرآن الكـريم في غـرف السجناء في أثناء خروجهم مـن الغرف للتحقيق أو الرياضـة والاغتسال، أو إلقاء أغراض السجناء على الأرض غير النظيفة بطريقـة استفزازية، لكن الانتحار لا بد أن يكون له سبب، وهـذا النوع من الانتحار هو قطع الشرايين والأوردة الدموية لليدين أو للرجلين أو للبطن... أو لأي مكان في الجسم، لكن من أين يحصل السجناء على الآلة الحادة التي يقطعون بها شرايينهم؟

إن السجـين يحصل كل أسبوع علـى آلة حلاقة، وعندما يدخل حمـام الاغتسال، تكـون معه آلة الحلاقة التي فيهـا شفرة (موسى صغـير)، والحمام له باب مشبك؛ حتى يبقى السجين تحت مراقبة الحارس، لكن السجين قد يضع منشفة أو ملابس على شبك الباب؛ ليسـتر نفسه عند الاغتسال، مـع أنه يلبس لباسـاً رياضياً في أثناء

الاغتسال، وإذا تسلّم السجين آلة الحلاقة من الحارس كسر القطعة البلاستيكية التي تغطيها، وأخرج الشفرة الصغيرة التي بداخلها وقام بتقطيع شرايين يديه أو رجليه.

وقد حدث هذا أكثر من مرة، والذي يقوم بهذا العمل قد يكون في كامل عقله، وقد يكون مصاباً بشيء، لكن عندما تحدث مثل هذه العملية تقوم إدارة السجن بمنع آلات الحلاقة عن جميع المساجين مدة طويلة، وذلك عقاب للجميع، وحتى يضغط جميع السجناء على من يقومون بهذا العمل، وحتى لا يتكرر هذا الفعل مرة أخرى، وحتى يعرف السجين الذي يقوم بهذا الأمر.

أن هذا الانتحار قد سبب التعب والحرمان ليس له وحده فقط، بل لجميع زملائه في السجن، فلا يقوم بتكرار هذا الأمر مرة أخرى، ربما يكون العقاب منع آلات الحلاقة شهرًا أو شهورًا، حتى تطول الشعور التي يجب إزالتها وحلقها عند السجناء.

لكن أذكر مرة أن المنع استمر شهوراً على الجميع مع أن الجميع، لا ذنب لهم فيما حدث، مع العلم أن آلات الحلاقة هذه لا توجد في عنابر الدرجتين الثالثة والرابعة أو العنابر الانفرادية؛ لأن المعاقبين لا يسمح لهم باستعمال هذه الآلات.

لقد كان معنا في بجرام بعد رجوعنا من كوبا وقبل إطلاق سراحنا بأربعة أشهر معتقل إيراني الجنسية، كانت حالته النفسية متدنية، تصرفاته غير طبيعية أحياناً، وكثير التفكير شارد الذهن، حاول الانتحار مرة. فلم يجد شيئاً ينتحر به إلا أقراص الدواء التي كانت معه، كان معه كمية كبيرة من الأقراص المختلفة الأشكال والألوان، ابتلع منها ما يقرب من خمسين حبة، وكان يريد أن يبتلع أكثر، لولا أن هرع إليه الحراس وهرعنا نحن مع الحراس، حتى استطعنا بالقوة أن نمنعه من إكمال ابتلاع بقية الأقراص، ولو قدر له أن يبتلعها جميعاً لفقد حياته، اتصل الحراس بالطبيب، وتم نقله إلى مستشفى في القاعدة، وتم علاجه هناك.

من مخالفات المعتقلين

إن كثيراً مـن السجناء يقومون بعمل مخالفـات لأبسط الأسباب ولأقـل الأشياء، ثـم يريد أن يحمِّل هذه المخالفة لجميـع أصحابه، إنه يريد من أصحابه أو من السجناء، أن يقفوا معه لأمر بسيط، ربما كان هذا السجين نفسه هو السبب في هذه المخالفة. أنت سجين وعليك تهم، أو عندك قضايا في التحقيق، ودائماً تصنع المخالفات وترفض الالتزام بقوانين السجن، مثلاً أحد السجناء سبَّب مشكلة لجميع سكان العنبر الذي يسكنه، العنبر يتسع لثمان وأربعين (٤٨) سجيناً، فقام الحارس ووزع الطعام على كل السجناء وقت الطعام (٣٠) دقيقة، مع أن كثيراً من الحراس ربما أعطاك أكثر من ثلاثين دقيقة.

لما انتهى وقت الطعام المحدد بدأ الحارس بجمع أطباق الطعام والكاسات الفارغـة وبقايا الفاكهة، لكن بعض السجناء لم ينتهِ من طعامه ورفض تسليم بقايا الطعام، يبدو أن السجين كان مشغولاً في

أثنـاء تناول الطعام؛ أو تأخر ولم يأكل منـذ بداية الوقت، أو لسبب آخـر، طلب الحارس من السجين أن يسلم بقايا الطعام؛ لأن الوقت قـد انتهى، رفض السجين تسليم الطبق، لكـن الحارس لا يستطيع أبـداً أن يـترك بقايا الطعام عنـد السجين؛ لأن هـذا يعني تسجيل عقوبة شديدة عليه من مسؤوليه، بعد مشادة كلامية اضطر الحارس بمساعـدة من معه مـن الحراسـ، أن يفتح غرفة السجـين ويأخذ الصحن عنوة من السجين النحيف القصير الصغير العمر.

هذه المشـادة تعني أن تحدث بين السجـين والحراس، مدافعة ومشـادة بالأيـدي، لكـن السجنـاء في داخـل الغـرف لا يملكون إلا الصراخ، أو البصق أو رش الماء على الحراس، استعمل السجناء كل ما في أيديهم؛ احتجاجًا على ما جرى لصاحبهم من قبل الحراس، خـرج الحراس من غرفـة السجين بعد أن أخـذوا طبق الطعام، إن القانـون في السجـن لا يسمـح للحارسـ أن يقتحـم أو يدخل غرفة السجين مهمـا كان السبب، فالذي يستطيع أن يدخل غرفة السجن فقـط هم قـوات مكافحـة الشغب؛ لكن بعـد إذن المسـؤول الكبير، فـكان فعل الحراس هؤلاء فيـه مخالفة لقانون السجن، مما عرض بعضـ هؤلاء الحراس للعقوبة، كما سمعنا، لكن هذا الأمر وما فعله هـذا السجين أيضاً مـن رفض تسليم بقايا الطعـام للحراس سبَّب مشكلات وعقوبات لزملائه في العنبر.

قصة أخرى تبين كيف أن السجين ربما يقوم بفعل يتعب بسببه أصحابه، ويجرّ عليهم العقوبة، وذلك أن الورقة والقلم داخل عنابر سجـن الدرجتـين الثالثـة والرابعة ممنوعـان دائمًـا إلا عند كتابة الرسائل فقط، فها هو أحد السجناء في طرف العنبر يريد أن يكتب رسالـة إلى صاحبـه في طرف العنـبر الآخر، يبث لـه فيها همومه وأحزانـه، فهو لا يستطيـع أن يتكلم أو يرفع صوتـه لصاحبه؛ حتى لا يستمـع الناس إلى كلامـه، إذًا فما أحسن طريقـة لكتابة رسالة إذا استطاع أن يحصل على قلم وورقة؟ وإذا تيسر تبقى مشكلة من يحمل الرسالة إلى صاحبـه في طرف العنبر الآخر، فهو لا يستطيع أن يسلمهـا للحارسـ لتوصيلهـا إلى صاحبها، أي أنـه لا بد أن تمر الرسالة عبر جميع الغرف، من شبك الغرف من سجين إلى سجين يستلمها السجين بيده ويسلمها لمن بعده وهكذا.

لكن وقع مـا لم يكن في الحسبان في منتصف الطريق، إذ رأى الحارسـ شيئاً ملفوفاً يتحرك من سجـين إلى آخر، فقام الحارس وطلـب من السجـين الذي وصلـت عنده الورقـة والقلـم أن يسلمه الرسالـة التي وصلت إليه من جاره، طبعـاً رفض السجين، وسلمها لجـاره والجار الآخر لمن بعده؛ حتـى يشوش على الحارس، وحتى لا يستطيع مراقبـة الوضع، لكن الحارس تابع انتقـال الورقة والقلم، وتوقفـت الورقة والقلم عند أحـد الغرف، ولم يستطـع السجين أن

يتصـرف في الورقـة والقلم، مما اضطـره إلى أن يلقي الرسالة في دورة الميـاه، ويصـب فوقها المـاء، فذهبت وتلاشت، وقـام بتسليم القلم إلى الحارس.

النتيجة أن الحارس -وكانت امرأة- كتبت تقريراً عن القصة، جـاء الحراس وفتشـوا جميع الغرف التـي مرَّ فيها القلـم والورقة وصـادروا مـا فيهـا، مـن الممنوعات التـي كانـت فيهـا، كان فيها ممنوعـات مخفية، كان عندهم طعام وفاكهـة وكاسات بلاستيكية ومعجـون وفرش أسنان وحاجات أخـرى ضرورية لكل سجين ولكن هـذه الممنوعـات لا يسمح بتخزينهـا، ويمنع أن تكون مـع السجين، فصادروها ثم أنزلوا عقوبة على أصحاب هذه الغرف.

انظـر كيف سبَّب هذا السجين التعب والعقوبات له، ولأصحابه دون أن يكون لهم أي ذنب، وهذه قصة واحدة من كثير من المشكلات التي تحدث في السجن، ربما كان السجين فيها هو السبب، لكن يجب ألّا ننسـى أن كثـيراً من المشكلات التي تحـدث في السجن ربما كان الحراس هم أنفسهم السبب فيها.

من مشكلات الحراس

وهناك قصة أخرى شاهدتهـا بعيني حدثت لأحد السجناء في عنـبري، إنه جـار لي بيني وبينه بضعـة أمتار، إنـه في الغرفة التي تجـاور غرفتي، جاء الحارس، وكانت امرأة فقامت بتفتيش غرفنا، لمـا خرجنـا إلى المشـي والاغتسال، وعندمـا رجعنا بعـد الاغتسال والرياضـة إلى غرفنـا، وجدنا أن هذه المرأة قـد قامت بتفتيش كل شـيء مـن أغراضنا، كان التفتيـش بطريقة استفزازيـة، إذ بعض الأغراض أنزلته على الأرض، فقد كانت الأغراض على السرير المرتفع عن الأرض، لم ينته الأمر إلى هنا.

فقـد أُنزلـت عليـه عقوبـة، تمثلـت في أن سحبوا منـه معظم الأغراض مدة ثلاثة أيام، وكتبت هذه المرأة في الكمبيوتر أن سبب العقوبـة هـو أن صاحب هـذه الغرفة شتمهـا وقال لهـا: أنت سيئة وقبيحة (You are bad and agly) عادة العقوبة لا تنزل ولا تطبق

عليك وقت (الوردية) أو النوبة التي كتبت فيها عليك العقوبة، إنما تأتي العقوبة في وقت النوبة و(الوردية) القادمة، (فالوردية) الأولى مثلاً تكتب عليك العقوبة، و(الوردية) القادمة تطبقها عليك، جاء الحارس وقال للسجين: عليك عقوبة، أعطني أغراضك، فهي ممنوع استعمالها مدة ثلاثة أيام، قال له السجين: لماذا؟ قال له: أنت شتمت الحارس في (الوردية) السابقة.

قال السجين: أنا لم أقل شيئاً لها، أنا لم أتكلم معها أبداً، أنا لست خائفاً من العقوبة، لو قلت لها شيئاً: (أنت سيئة وقبيحة) لما أنكرت ذلك، لكن الحارس لم يلتفت إلى اعتراض صاحب الغرفة، وسحب منه الأغراض مدة ثلاثة أيام، ومثل هذه القصة قصص أخرى كثيرة، وكما يقول المثل: (يا ما في السجن مظاليم) أي كثير من السجناء سجنوا ظلماً. إدارة السجن تقول: يجب تطبيق القانون، حتى عند الأمن من وقوع أي مخالفة أو أي مشكلة، ربما يكون المعتقل مريضاً جداً، لا يستطيع المشي أو القيام، لكن لا بد من تقييده بالسلاسل، مثله.

تطبيق القانون

المعتقل الصحيح مثل المريض، ربما تقول: إنه قد يتظاهر بالمرض والضعف، وإذا أخذوه إلى التحقيق أو إلى الطبيب من دون تقييد، فربما يقوم بعمل مشكلة لهم، أو يقوم بضرب الحارس مثلاً، لكن المعتقل الذي ساقه مبتورة، واستبدلت بها ساق اصطناعية، ولا يستطيع المشي البطيء إلا بعكازتين، كيف سيسرع في المشي، أو يهرب، أو يقوم بضرب الحارس مثلاً.

إن القانون شيء مقدس عندهم، ومقدم على كل شيء، إنك تشاهد السجناء يلقون (يقذفون) الماء والشاي والحليب، وربما البول والغائط، أو يبصقون على الجنود، أو يشتمونهم بأبشع الشتائم، سواء أكانوا جنوداً أم مجندات، لكن الجندي لا يستطيع أن يرد على السجين الرد نفسه، إن أقصى ما يفعله الجندي أو المجندة هو تسجيل رقم الغرفة التي قام صاحبها بهذا العمل، أو

المخالفـة، وتسجيل نوع المخالفـة، إنه يكتب تقريراً عن الحادث، ثم يرفعـه إلى من هو فوقه، لم أرَ حادثة واحدة يرد فيها الجندي على السجـين، حتى الشتم والسب، إن الجندي يـرى ويسمع ما يقوله أو يفعله السجين معه، ثم يكتب ما حدث للمسؤول؛ ليقرر العقوبة.

لا يوجـد شـيء يضيـع أو يفقد وينتهـي هكذا، لا بـد من العد والحساب والضبط لكل ممتلكات السجين أو أغراضه، حتى الملعقة الصغيرة أو قلم الحبر إذا انتهى لا تتلفه أو تلقيه، لا بد من إرجاعه، حتـى بعد انتهاء حبره، كل شيء محسـوب ومعدود، التالف أو الذي انتهـى مفعوله أو عمله، لا بد من تسليمـه وإرجاعه، ربما يفقد قلم حـبر واحد في العنبر، وهو من أبسط الأقلام وأرخصها التي رأيتها في حياتـي، ولا يستعملـه أفقر عبـاد الله، إذا فقد هـذا القلم تقوم إدارة السجن بإجراء تفتيش لجميع غرف العنبر، ولجميع المعتقلين، يقيـدون كل سجـين كما هـو معـروف بالترتيب، ثـم يخرجونه من غرفتـه، يفتشون جسمه ولباسه، شعـر رأسه وشعر لحيته، يفتشون حـذاءه، ثم يقومون بتفتيـش غرفته وجميع أغراضـه بالدقة؛ بحثاً عـن قلـم؛ لأن القلم أداة حادة يمكـن أن يستعملها السجين لضرب الجندي أو جرحه أو إيذائه.

لقـد حـدث في العنبر الذي كنت فيـه أن ملعقـة واحدة فقدت من الجنود، ولا أدري أكان هذا الفقدان حقيقة أم تمثيلاً؛ لأن بعض

الجنود – وهذا يحدث في السجن – قد يتظاهر بفقدان شيء سلمه للسجـين، ويتهم السجين بعد ذلك أنه أخفـاه؛ تحرشًا أو لاصطناع مشكلـة لإيقـاع عقوبة على السجين من دون ذنـب، مع أن كثيراً من الحراس قد يصدقك لو قلت له أن الوجبة من دون ملعقة، ويحضر لك ملعقة أخرى.

والقصة كما يأتي: إن كل وجبة عسكرية أو غير عسكرية يسلمها الحراس للسجين فيها ملعقة، لكن ملعقة الوجبة العسكرية أطول وأقوى من غيرها من الملاعق، عندما تسلّم السجين الوجبة فتحها وتفقدها، فلم يجـد فيها الملعقة، فقـال للحارس: لو سمحت أيهـا الحارس، إن الوجبة من دون ملعقة، قال له الحارس: أعطني الوجبة فتشها الحارس فلم يجد فيها الملعقة؟ قال الحارس للسجين: أنت أخفيت الملعقة، قال لـه السجين: لم يكن في الوجبـة ملعقة حتى أخفيها، لقد تسلمت منك الوجبة الآن قبل ثوانٍ، متى وكيف سأخفي الملعقة.

احتـدم النقاش بينهما، الحارس يريد إثبـات أن كيس الوجبة فيه ملعقـة والسجين يريد أن ينفي ذلك، لم يكترث الحارس بكلام السجين، كان الوقـت سحراً يتناول فيه السجناء الذين سيصومون غداً طعـام السحور، ليست المشكلة أن تـأكل بمعلقة أو بغير ملعقة، سهل أن تأكل من دون ملعقة، لكن المشكلة أن عدم وجود ملعقة يعني أنـك تنوي أن تتخذهـا أداة لتهديد الجنود أو ضربهم بها، السجين

المتهم بإخفاء الملعقة طيب ومسكين، لا يحب المشكلات، ولا يمكن أن يخفي المعلقة لو كانت موجودة، أكل السجين وجبته من دون ملعقة.

وبعد ثلاثين دقيقة عند تسليم بقايا الطعام تسلّم الحارس الأكياس الفارغة (بقايا الطعام) من جميع السجناء، وعادة الحارس يفتش عن الملعقة قبل أي شيء، وقد تسلّم الحارس بقايا الطعام من جميع السجناء بالتمام، لكن هذا السجين لا توجد ملعقة في بقايا الطعام التي أرجعها، تسلّم منه بقايا الطعام، وبعد ذلك قام الحراس بتفتيش الغرف الموجودة عن يمين صاحب المشكلة وشماله، تفتيشاً جسمانيًّا لجميع سكان هذه الغرف، وتفتيش الغرف والأغراض، سواء الغرف التي تسلّم أصحابها الوجبات أم لم يتسلموا؛ لأن بعض الغرف التي لا يريد أصحابها الصيام لم يتسلموا وجبة سحور.

حدث معي ومع جاري ذات مرة مثل هذه القصة، قام الحارس وسلم لنا وجبة الفطور من دون ملعقة.

لم أنتبه أن طبق الطعام من دون ملعقة، إلا بعد أن تجاوز الحارس غرفتي بضعة أمتار، قلت: أيها الحارس، لا توجد ملعقة على طبق الطعام، انتبه جاري للأمر، وقال: أنا أيضاً لا يوجد عندي ملعقة، قال الحارس: أعطيتكما ملعقتين، قلت: لا، سلمتني الطبق من دون ملعقة، وأنا صادق ولو أردت أن أكذب عليك، فجاري أيضاً ليس عنده ملعقة، لم يكترث بكلامنا، قلت له: أنا لم أعمل أي مخالفة مع أي حارس طيلة وجودي في السجن، إن ملفي في السجن أبيض كالثلج، ارجع إليه إن شئت وجاري رجل طيب، مسكين، لا يحب المشكلات، ليست المشكلة في الأكل بالملعقة أو من دونها، الطعام أصلاً لا يحتاج إلى ملعقة إنه قطعتان (توست) من الخبز الصغير، وقليل من البيض المقلي.

لكن فقدان الملعقة يسبب لك مشكلة، قال الحارس: سأقوم بتفتيشكما، قلت: لا بأس قام الحارس بتقييدنا والتفتيش الجسماني الدقيق لنا، وللغرفة وللأغراض، لم يجد عندنا شيئاً، لكنه سبب لنا مشكلة، ألقى الأغراض على الأرض وعلى الماء، وألقى بعضها على النجاسة على فتحة الحمام وانصرف.

هناك نوع من العقاب تقوم به إدارة السجن للمسجون، العقاب ليس ضربًا ولا سحباً للأغراض، ولا جلوساً في غرف التحقيق ساعات طويلة تحت المكيف، أو فتح سماعات مسجل كبير على السجين في غرفة التحقيق أو غير ذلك، إنه عقاب من نوع آخر، وهو نقل السجين إلى عنبر دلتا، وما أدراك ما عنبر دلتا!

إنه عنبر المرضى جسدياً أو نفسياً، أصحاب الحالات الطارئة، كل من يحاول الانتحار عن طريق المشنقة أو عن طريق جرح نفسه أو

تقطيع شرايين جسمه وأوردته بآلة الحلاقة، فهذا العنبر عنبر غير طبيعـي، إنه مكان لعقاب أصحاب الحـالات الشاذة غير الطبيعية، وهـو أيضـاً يستعمل لعقـاب الأصحـاء؛ ليعيشوا بـين المرضى، لأن الإنسـان الطبيعي إذا دخل هذا العنبر فسيتعـب نفسياً؛ لأنه يعيش بـين أناس غير عاديين، لذلك مـن يدخله لا بد أن يعيش فيه شهوراً دون أن يعمـل أي مخالفة أو مشكلة، وإذا فعل أي مخالفة تضاف له مـدة أخرى في العنبر فوق المـدة الأصلية المقررة له، بحيث تتناسب هذه المدة مع المخالفة التي ارتكبها.

وكل من يعيش في هذا العنبر يتمنى أن يخرج منه بسرعة وينتظر اليـوم الذي سيغادر فيه هـذا العنبر، لذلك عليـه أن يلتزم بقوانين السجن ولوائحه؛ حتى يخرج من هذا العنبر إلى عنبر آخر.

بعـد إطلاق سراحنـا من (جوانتنامـو) ووصولنـا إلى قاعدة بجرام في أفغانستان تظهر هناك ملاحظات ومشاهدات.

القانون

إنـك تقف حائراً أمام التزام جميع الجنود والضباط بالقانون والنظـام، لا يستطيـع أحـد منهـم أن يخالف القانـون، إن القانون بالنسبـة لهم مقدس كالإلـه أو الدين بالنسبة لنا، إن عند المسلمين شيئاً يسمى هذا حلال وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا فيه أجـر وثواب وهذا فيه إثم وعقوبة، هذا يؤدي إلى الجنة وهذا يؤدي إلى النار، وهكذا... عندهم، لا يوجد مثل هذه الأحكام والتقسيمات إن القانـون هـو كل شـيء عندهـم، إن كان القانون يمنعـه، فهو لا يستطيـع أن يفعله لا بد أن يلتـزم بالقانون؛ حتى لا يقع تحت طائلة العقاب؛ حتى لا تصل إليه يد القانون، لقد كنا في هذه القاعدة بعد رجوعنا من (جوانتنامو) نعيش مختلطين تقريباً مع الجنود، يعيش معنـا في الغرفة منهـم حارسان على مدار الأربـع والعشرين ساعة وربمـا ثلاثة، نذهـب إلى حمام الاغتسال، يكـون واحد منهم معنا، نذهب إلى مكان قضاء الحاجة، يذهب واحد منهم معنا.

إن قسماً منهم كان يلعب معنا الورق، وكان بعضهم يجلس ويأكل معنا طعامنا، أما الحديث والنقاش بيننا وبينهم في موضوعات مختلفة فكثير جدًا، لا يَمرُّ يوم إلا ويجري فيه نقاش بيننا وبينهم، إن قسماً كبيراً منهم رجالاً ونساءً يدخن السجائر، لكن لا يستطيع أحد منهم أن يدخن في داخل الغرفة التي نعيش فيها، إن القانون يمنع أن يدخن داخل الغرفة، كان يذهب خارج الغرفة ويدخن سيجارته، سواء كان الجو حاراً أم بارداً، لم أشاهد واحداً منهم ولو مرة واحدة يدخن داخل الغرفة، حتى إن مكان التدخين في خارج الغرفة له مكان خاص.

ويستحيل أن تجد جندياً أو ضابطاً يدخن في غير هذا المكان، إن الأرض التي يدخن عليها المدخنون ليست إسمنتية أو ذات رخام أو.... إنها حصباء حجارة صغيرة، لكن أعقاب السجائر لها مكان خاص، سلة حديدية صغيرة توضع فيها أعقاب السجائر، لا يمكن أن ترى شيئاً من أعقاب السجائر على الأرض، الأوراق أو أي بقايا أخرى تعجز أن تجد شيئاً من هذه البقايا في الساحة، إن هذه البقايا لها مكان خاص، وسلات مهملات خاصة.

حتى في دخول المبنى الذي يعملون فيه، وكان يواجه غرفتنا مثلاً يمنع دخول هذا المبنى بالسلاح لجميع من في القاعدة، الجندي أو من فوقه، تجد الجندي أو الضابط، الجميع ينظفون أسلحتهم من الرصاص أولاً قبل تسليمه لمسؤول المخزن أو المستودع، ثم يدخل المبنى، إنك تعجز أن ترى واحداً منهم يسلم سلاحه للمخزن قبل تنظيفه والتأكد من خلوه من الرصاص، أو يتسلمه من المخزن بعد خروجه من المبنى ويحمله قبل تنظيفه وخلوه من الرصاص، لقد كان بعض الضباط يقومون بزيارات عمل إلى غرفتنا، فتظن لأنهم ضباط ربما يتجاوزون بعض القوانين، لكن عندما تشاهدهم في الساحة لا بد أن ينفذوا ويطبقوا القوانين كغيرهم من الجنود، سواء بسواء.

وقت طابور الصباح والمساء يندر أن يتخلف أحد عن حضور الطابور في موعده، الحضور إلى الطابور قبل موعده بربع ساعة مثلاً، بداية (شفت) أو (وردية) الحراسة طيلة مدة وجودنا في معتقل (جوانتنامو) أو وجودنا في (بجرام) لا يمكن لحارس أن يترك حراسته قبل أن يسلمها لغيره، لمن بعده، حتى لو تأخر الحارس الذي بعده، وهكذا.

ملاحظة

في الحقيقة إن بعض الجنود لا يحب عمل المشكلات، يريد أداء عمله ثم ينصرف، تشعر أن لديه الرغبة في مساعدتك، وربما يتألم لحالـك ولقصتك وقضية اعتقالـك، إن السجين في ذهنه ومخيلته أمـر مرعـب ومخيف، ووحشـ، إن السجين في ذهن هـذا الحارس إرهابـي (كمـا يسمونـه) قتَّال يحـب سفـك الدماء، يعتـدي على الآخريـن، لا يحب الآخرين، عنـده بعض صفات الجن والشياطين، والأرواح الشريرة التي يمكنهـا أن تخترق شبك السجن الحديدي، وتطـير وتنتقل من مكان إلى آخر، هذا ما يقوله المسؤولون في إدارة السجـن عن السجين لهذا الجندي الجديد الذي جاء يقضي خدمة في معتقل (جوانتنامو).

إن بعضـ الجنود ربما يبـوح لك بكثير من الـكلام، وكثير من التعليمـات التي يتلقونها من مسؤوليهـم في طابور الصباح، قبل أن

يتم توزيعهم على عنابر السجن لأداء مهماتهم، إن المجموعات التي تتناوب على حراسة السجناء وخدمتهم تتغير كل ستة أشهر تقريباً، هـذا ما كنا نلاحظه نحن في المجموعات الذاهبة والقادمة إلى هذا المعتقـل، وهذا ما كان يقوله بعض الجنود، إن كثيراً من المجموعات لا تحـب أن تخـدم في هـذه الجزيرة (كوبـا) ولا في هـذا المعتقـل (جوانتنامو) إنهم لا يحبون رؤية هؤلاء السجناء، الإرهابيين، إنهم يحسبـون ويعـدون مدة خدمتهم في هـذه الجزيرة، ليـس بالشهور أو الأسابيـع، إنهـم يعدونها بالأيام ولا أبالـغ إن قلت: إنهم يعدونها بالساعات، هكذا كان يظهر منهم.

إن المجموعـة الجديدة من الجنـود عندما تصل هذه الجزيرة يعطونهـا تعليمات جديـدة في كيفية التعامل مـع السجناء، يملؤون رؤوسهـم وقلوبهم عن هـؤلاء الوحوش كما يقولـون هم، وهذا ليس كلامي، بل من كلام بعض الجنود، يقولون لهم: إن هؤلاء الإرهابيين الذين يعيشون في هذه الأقفاص اعتقلناهم وأخرجناهم من الجحور والمغـاور في أفغانستـان، لقـد قيدناهـم وأحضرناهـم هنـا، إنهم خطيرون، لهـم القدرة الكبيرة على الهـرب، إنهم كالجن والأرواح الشريـرة، احذر منهم عندما تقيدهم بالسلاسل أو عند تفتيشهم، كـن حذراً جداً منهـم، لا تتكلم معهم إلا في الضـرورة القصوى، لا تلمـس جسدهـم ولا أي شيء من أغراضهم بيـدك، إنهم مصابون

بالأوبئـة والأمراض المعدية؛ لذلك لا يمكـن أن يأخذ الحارس منك شيئـاً أو يعطيك شيئاً إلا وهو يلبس القفاز (gloves) وإذا أردت أن تعطيه شيئاً، أو يستبدل لك معجونًا أو فرشاة أسنان، ولم يكن يلبس القفـاز على يديه يقول لك: انتظر، يذهب ويلبس القفاز، ثم يتسلم منك ما تريد.

إنـك تشعر بالفـرق الكبير بـين معاملة هؤلاء الجنـود عندما يأتـون لأول مرة في بداية دورتهم، وبين معاملتهم بعد مرور شهر أو شهرين مـن وصولهم، السبب أن هؤلاء الجنـود بعد مرور مدة من الزمن ومـن خلال تعاملهم مع السجناء، تتغـير فكرتهم كثيراً عن السجناء، ويشعرون أن إدارة السجن قد ضخمت الأمر، وكبرت لهم القضية عن السجناء، كثيراً جداً، إنها خدعتهم أو بصراحة كذبت عليهـم، إنهـم يكتشفون أن السجنـاء شيء آخر غـير الذي سمعوه وتعلموه من مسؤوليهم.

إن هـؤلاء السجناء أو أكثرهم أناس لا يحبون عمل المشكلات، إنهـم بريئـون من التهم التي توجه إليهم، ليسـوا جميعاً من تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، لقد قال أحد المحققين لأحد السجناء: لم يثبـت حتى الآن على جميع من يوجد بهذه القاعدة من المعتقلين أنه مـن تنظيم القاعدة أو حركة طالبان إلا علـى مجموعة قليلة منهم فقط، إنهم أنـاس نظيفون، مرتبون يؤدون عبادتهم وصلاتهم على

أحسن وجه، لا يوجد سجين إن أقيمت الصلاة لا يصلي جماعة مع بقيـة السجناء، إنهم يقرؤون القرآن أو ينصرفون إلى قراءة الكتب الأخـرى المفيدة، إنهـم أعفَّة لا ينظرون إلى النسـاء، كثير منهم لا يقبلـون السلام أو اللمس لأي امرأة، كثـير منهم لا يقبلون الخروج إلى التحقيـق أو المشـي والرياضـة والاغتسال إن رافقتـه امرأة، لا يخرجون إلا مضطرين.

إنهم يفضلون ألّا تقوم النساء بخدمتهم وحراستهم في العنابر، إنهم يطالبـون إدارة السجن بأن يستبدل رجال بهؤلاء النساء، لقد شعر هـؤلاء الجنود، ومن خلال المعاملة والاحتـكاك، أو الكلام مع بعض السجنـاء، بحقيقة الأمـر، أحسوا بالوضـع الصحيح لهؤلاء السجنـاء، شعروا أن هؤلاء السجنـاء أقسام، القسم الأكبر والأكثر كان في أفغانستـان مع حركة طالبـان، وعندما قامت الحرب هرب قسـم كبير منهـم إلى باكستان يريـد الفرار، يريـد ألا يدخل هذه الحرب، لكن باكستان قامت باعتقالهم عن طريق القبائل الحدودية وسلمتهم للأمريكان وأحضرهم الأمريكان إلى كوبا.

وقسـم منهم فـرَّ إلى الجبال والمدن والقـرى الأفغانية، وقسم بقي في موقعه يقاوم ويدافع، فقتل قسم من هؤلاء، وجرح قسم آخر، واستسلم للقوات الأفغانية وتحالف الشمال قسم من هؤلاء، وجميع هـؤلاء أصبحوا في قبضة القوات الأمريكيـة، سمعت أن بعضهم فرَّ

إلى إيـران، لكن إيران لم تسلم للأمريكان أحدًا منهم، إنما سلمت قسمـاً منهم إلى بلدانهـم، وقسمًا آخر سلمته إيـران إلى الحكومة الأفغانية، التي سلمتهم بدورها للأمريكان.

بـدأت عقـدة الحـذر من هـؤلاء السجنـاء تنفك عـن الجنود الجـدد شيئاً فشيئًـا، عندما سمعوا أن قسماً مـن هؤلاء المسجونين أصحاب شهادات عاليـة، وتخصصات محترمة أو نادرة يتعجبون، عندمـا يسمعون أن قسماً من هؤلاء السجنـاء لم يدخل طيلة عمره أفغانستـان، ولم يدخـل معسكـراً في حياته، لا يعـرف التدريب ولا استعمال السلاح أو المتفجرات، إنه كان يعيش في باكستان في أعمال دراسة وتدريـس في العلم والتعليم، إنه يعيشـ في باكستان مهاجرًا فـارّاً بدينه من بـلاده، إنهم كانوا يعيشـون في باكستان، يعملون في مؤسسـات إغاثيـة تساعـد المهاجريـن الذين فروا مـن أفغانستان في أثنـاء الغـزو الروسـي لأفغانستـان، يعملون في مدارس وكليات وجامعـات، يدرس فيها الطـلاب الأفغان المهاجـرون من بلادهم فرارًا من الغزو الروسي لبلادهم.

هذه المؤسسات كانت تقيم المدارس والمعاهد والمستشفيات وملاجئ الأيتـام لهؤلاء المهاجرين، إنهم يعيشـون في باكستان بأوراق وجوازات رسميـة وتصاريح وإقامات صحيحة من الحكومـة الباكستانية، كانوا يسكنـون في بيوتهـم ويعيشون مع عائلاتهم، عندمـا اعتقلتهم القوات

الباكستانية، كانوا يعيشون في مدن تسيطر عليها الحكومة الباكستانية، ما كانوا يعيشون في الجبال والمغاور، ولا في مناطق القبائل المستقلة التي لا تخضع للحكومة الباكستانية، هذه المعلومات التي سمعها الجنود من السجناء ورأوها بأم أعينهم، ولمسوها بأيديهم، ليس يوماً واحداً، أو مرة واحدة بل أياماً، ومراراً وتكراراً مدة شهور متتالية، تغاير تماماً الصورة التي كانت في أذهانهم.

مشاهدة

إن الجندي يطبق النظام، ينفذ الأوامر التي تأتي من فوقه، بعض الجنود لا يحب التخريب أو القتل والتدمير، والجنود كبقية الناس العاديين في بلادهم تحب الحياة وتريد التمتع بزينة الحياة الدنيا، وتلبية شهوات النفس، ليس لها هدف آخر، ولا يهمها، حققت بلادهم أهدافها وطموحاتها أم لا، الجندي عنده وظيفة أو واجب، يريد إنهاء ساعات دوامه دون أن يلحق به أي نقص أو خصم في مخصصاته ولا ينال العقاب، لا يحب أن يحدث في أثناء عمله أو ساعات دوامه أي مخالفة، حتى لا تطوله يد القانون بسببها، أما بعد إنهاء عمله أو خارج ساعات دوامه فلتنقلب الدنيا رأساً على عقب، فلا يهمه شيء.

كان تخزين الطعام في أحد العنابر ممنوعاً، وكان السجناء بحاجة إلى المحافظة على هذا الطعام حتى المغرب؛ لأنهم كانوا

صائمين، فلما جاء الحارس الجديد قال أحد السجناء لرئيس الحراس: إن عند بعض السجناء طعامًا، ويطلب منك أن تسمح لهم بتخزينه من الظهر (الآن) إلى وقت المغرب، وعند المغرب سيأكلون هذا الطعام، فقال رئيس الحراس: لا بأس، ليس هناك مشكلة في تخزين هذا الطعام إلى المغرب، أنا موافق، لكن بشرط ألاّ تعملوا لنا مشكلات تتعبنا، قال السجناء: اتفقنا.

في أحد الأيام كانت حراسة العنبر لجنود من البيض، فلما قاربت حراستهم على الانتهاء وحضرت مجموعة الحراس الجديدة، وكانوا من السود، قال أحد الحراس البيض الذين أنهوا عملهم للسجناء: إن هؤلاء الحراس الجدد ليسوا جيدين، ضايقوهم، وسببوا لهم المتاعب والمشكلات والمشاغبات، واكسروا لهم أطباق الطعام وكاسات الماء.

معاملة تغيرت

إدارة السجن، كما سمعت من السابقين الأوائل الذين وصلوا إلى (جوانتنامو) كانت تقدم وجبات الطعام- العسكرية- لهم كاملة غير ناقصة، لكن بعد مدة بدأت تفتح هذه الوجبات وتأخذ منها الكثير ثم تقدمها للمعتقلين ناقصة وغير كاملة، كانت تقدم لهم فرشاة الأسنان، الجيدة التي يدها طويلة، مما يسهل عملية تنظيف الأسنان، فأصبحت تقدم فرشاة بسيطة جداً ومن دون يد تمسكها فيدخلها المعتقل برأس إصبعه؛ حتى يستطيع أن ينظف ما يستطيع تنظيفه، التنظيف بهذه الفرشاة غير جيد، بعد مدة أصبحت الفرشاة أحسن حالاً من هذه، لكن ليست مثل الفرشاة الأولى، ولعل سبب هذا التغيير أن إدارة السجن خافت أن يستعمل السجناء الفرشاة ذات اليد الطويلة أداة حادة لتهديد الحراس أو ضربهم بها.

الصابــون كان يصــرف لكل سجــين صابونة كبــيرة، ومعجون الأسنــان، كان أيضا يصرف لكل سجــين معجون كبير، تغير الحال فأصبح الصابــون صغيرًا جداً وأصبح معجــون الأسنان أصغر من سابقــة؛ لأن بعض السجنــاء بدؤوا يستعملون المعجــون أو الصابون لغسل أرض الزنزانة وتنظيفها، مع أن أرض الزنزانة لها (شامبو) خاص لتنظيفها يعطيه الحراس للمعتقل عند ما يطلبه، لقد شاهد الحراس مثل هذه الأفعال، فرفعوا تقارير إلى المسؤولين عما يجري، فتم تبديل الفرشاة أو الصابون أو معجون الأسنان.

اختيار

اختيار لباسٍ للمعتقلين في (جوانتنامو) ولكن لماذا اللون البرتقالي؟

ربمــا يظن بعض النــاســ أن هــذا الاختيار لهذا اللــون عفوياً، ومــن دون قصــد، وكنت أنا ممن يظن هذا الظــن، حتى سمعت أن هذا اللون من الألوان المكروهة في الإسلام، وقد نهى النبي ﷺ عن اللون الأحمر، وفي الحديث أحب الألوان إلى الشيطان الأحمر. حتى السلم الذي يستعمله الجنود في التسلق والصعود في أعمالهم داخل السجن أحمر، وحتى الطائرة المروحية التي كانت تحلق وتطير فوق المعتقل لونها أحمر، مصبوغة بصباغ اللباس الذي نلبسه، قد يكون هذا التحليل والتفسير داخلاً في اختيار هذا اللون لملابس المعتقلين، وقد يكون هنالك تفسير أو تحليل آخر، والله أعلم بالصواب.

قصة النظارات

بعض المعتقلين معتاد على لبس النظارات لضعف بصره، لما تم ترحيلنا من بجرام إلى كوبا، أخذوا منا جميعاً هذه النظارات، ولما وصلنا إلى كوبا وبعد مطالبات كثيرة من المسؤولين، وبعد مضي شهر ونصف تقريباً تم صرف نظارة لمن يريد، لكن قوة النظارة ليست هي القوة والمقاس المطلوب لكل معتقل، إنها نصف المقاس ونصف القوة المطلوبة لكل شخص، إنك لا تكاد ترى بها، لكنها أفضل من العدم، ولما اشتكينا إلى إدارة السجن ما نعانيه من ضعف في الرؤية وتعب في القراءة، قالوا: إن إدارة السجن لا تستطيع صرف نظارة حسب المقاس المطلوب لكل سجين قلنا: لماذا؟ قالوا: إن القانون في هذه القاعدة العسكرية (جوانتنامو) لا يسمح بصرف نظارة للمعتقل كاملة المقاس، كما يريد المعتقل لنواحٍ أمنية في القاعدة، لا يسمح إلا بصرف نظارة نصف المقاس ونصف المطلوب لكل معتقل،

إن هذا القانون يعني أن تبقى تعاني من ضعف في الرؤية، وهذا يعني أن رؤيتك ستبقى تضعف شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت، إن النظارة الطبيعية ذات المقاس المطلوب ممنوعة لنواحٍ أمنية.

فما عساك أن تؤثر بهذه النظارة عليهم، وماذا عساك أن تكتشف أو ترى فيها؟ هل هي تلسكوب أو منظار ستكشف به الأسرار، أو تخترق به الحواجز، إنها نظارة، نظارة فقط.

تسليم المصحف

لقد كان يحدث أن يقوم بعض الجنود بتفتيش المصحف، وهذا التفتيش يحدث غضباً، وربما إضراباً ومشكلات مع الحراس بسبب هذا التفتيش، وحتى لا يتكرر هذا التفتيش من الحراس للقرآن، وحتى لا تحدث الإهانة للقرآن الكريم قرر الكثير من المعتقلين تسليم مصاحفهم إلى إدارة السجن، لكن إدارة السجن والمسؤول الديني رفضوا استلام المصاحف من المعتقلين، وحصل إصرار من المعتقلين لتسليم المصاحف، قابل هذا الإصرار رفض قاطع من إدارة السجن باستلام المصاحف.

تغيير الطعام

في هذا العنبر -عنبر العقوبات- تم تغيير الطعام، أصبح الطعام نوعياً أفضل، لكن كمياً أقل، الكمية لا تكفي أغلب السجناء، الفواكه زادت، بعض الأيام يعطون السجين في الصباح نوعين من الفاكهة، وربما في الظهر، لكن ليس في كل الأيام بل في بعضها، هناك يومان في الصباح يقدمون فيهما علبة (صن فلكس) لكل سجين، والشاي والحليب صباحاً بقي كما هو، لكن الحليب بعض الأيام يأتي غير طبيعي، عندئذ لا يشربه معظم السجناء؛ لأنه مغشوش بالماء، أو يكون حليباً جافاً مذاباً في الماء.

كمية اللحم أو الدجاج زادت، لكن كمية الأرز والخبز نقصت، كمية الخضراوات بقيت كما هي تقريباً.

توجس وحذر

مضت الأيام، وشعر السجناء أن هذه الإجراءات التي تعملها إدارة السجن معنا، إنما هي إشارات وعلامات الخروج من السجن، وأن الفرج قريب بإذن الله تعالى، لكن في أحد الأيام، الرياضية، والخروج والمشي والاغتسال تركني الحراس في الحمام- مكان الاغتسال- أكثر من الوقت المعتاد، وهو خمس دقائق، تركني أكثر من عشرين دقيقة، قلت للحارس: ماذا حدث انتهى وقت الاغتسال، أريد الرجوع إلى غرفتي، قال: انتظر، قلت: انتظرت طويلاً مضى الآن نصف ساعة، هذا وقت طويل جداً، أخيراً أرجعوني، وصلت الغرفة، قلت للجيران: ما الأمر؟

لقد أخرني الحراس كثيراً في مكان الاغتسال، قالوا: ماذا يوجد من الكتابة في غرفتك؟ قلت: لا شيء، لا يوجد عندي قلم؛ لأكتب به، قالوا: لقد حضر المحقق والمصور إلى غرفتك وصور المصور

الكتابة الموجـودة في الغرفة وانصرف، فعرفت السر في تأخيري في مـكان الاغتسال، قلت للجيران: إن الكتابة الموجودة في الغرفة بقلم الحـبر الجاف منذ شهـر، لم أستطع أن أقرأهــا، قلت لجاري: هل تستطيع قراءتها؟ قال: نعم، الكتابة هي: إذا ضاقت عليك الأحوال، أو الدنيــا فعليك بــ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ وكلام آخر نسيته، يحض ويأمر بالصبر وتحمل الأذى، قلت: كل هذا التأخير وحضور المحقق والمصور من أجل هذا الكلام.

إن هـذا الكلام لا يشكل أي خطر علـى السجين والسجناء، ولا يحمل أي معنى للتحريض أو الإضراب، لا يشتم ولا ينتقد أمريكا ولا أحـدًا من الناس، لكـن إدارة السجن أو من فوقهم لا يوجد عندهم شيء اسمه مزاح أو هزار، كل ما تقوله وكل ما تكتبه وحتى كل إشارة منك يأخذونها مأخذ الجـد، ويسألون عنها، ويجرون معك تحقيقاً بشأنهــا، إنهـم يحسبون لهــا ليس حسابــاً واحداً بل ألــف حساب، ويفسرونهــا ويحللونها بتفسيرات وتحليلات لا تخطر على بال أحد، ولا تأتي، بمقصد إنســان ويفترضون لها افتراضات لا تتحقق حتى في المنام والأحلام.

حـدث أن أحد السجناء خرج إلى مـكان المشي والرياضة وبدأ يرسـم علـى الأرض الإسمنتية، بحصـى صغيرة جـداً شيئاً يلعب بـه أو يعبـث به، هكـذا دون أن يكون لـه أي معنــى أو أي قصد، رآه

الحارس وهو يلعب ويرسـم، وبعد خروجه من مكان المشي ورجوعه إلى غرفتــه، ذهب الحارس وأخبر المسـؤول بما رأى، حضر المحقق والمصـور الذي صوّر هـذه الرسومات الموجودة علـى الأرض، وقام المحقـق وطلـب السجين وسأله عن معنى هـذا الرسم وما المقصود منه، ظن المحقق أن هذا الرسم خطة لأمر خطير- كروكة- بروفة- تدريب- لعملية ما.

قــال لهم السجـين: إن هذا مجـرد لعب، شــيء لا معنى له ولا أقصـد منه أي شيء، إنــك تشعر أن هؤلاء القـوم لا يوجد عندهم شــيء لا معنــى لــه، أو لا قصد فيــه، لا بد أن تفسر كل مــا تقوله أو تكتبــه أو ترسمه أو تشير به، كل شيء يصدر منك يخضع للتحقيق، للفحص، للتحليل، للبحث.

التفتيش

إدارة السجن تقوم بين الحين والحين بتفتيش عام لكل عنابر السجن والسجناء، تفتيش كل ما يوجد عندك من أغراض، حتى الكتب إن كان عندك كتب، أي ورقة أي صورة، أي رسم أو إشارة، أو كتابات، يجمعون كل ما يجدونه في غرفتك يوضع في كيس، كل غرفة لها مغلف أو كيس وحده عليه رقم الغرفة، يذهب هذا المغلف للتحقيق للبحث فيه وتحليله وتفسيره، وربما يطلبونك للتحقيق؛ ليسألوك عنه إن تطلب الأمر ذلك.

التفتيش يكون في ليلة واحدة لجميع عنابر السجن، يقطعون الماء، يغلقونه عن جميع العنابر؛ حتى لا يقوم أحد السجناء بتهريب أو إتلاف شيء وتسريبه في الحمام،- مكان قضاء الحاجة، وحتى هذا المكان يقوم الحراس بتفتيشه؛ حتى لا يقوم أحد بتسريب أو وضع شيء فيه، يبدأ التفتيش عنبراً بعد عنبر، يقيد السجين بالسلاسل

كما ذكرنا من قبل داخل غرفته ويقف ووجهه إلى جدار الغرفة المشبك، يقوم الحراس بتفتيشه تفتيشاً دقيقاً جسده، وملابسه، وحذاءه، وشعر رأسه وشعر لحيته، والطاقية إن وجدت على رأسه، يُفَتش حذاؤه، ويخرج به الحراس إلى مكان الرياضة والمشي، ثم تُفَتش غرفته، أي ثقب في الغرفة، وتفتش أغراضه وفراشه وكتبه، حتى القرآن الكريم، يقوم مترجم عربي بفتح صفحات المصحف، والحارس ينظر إليه، وأي ورقة أو كتاب أو صورة أو رسمة، أي شيء مكتوب يجمع في مغلف ويرسل إلى التحقيق.

والكثير من السجناء خضعوا للتحقيق بسبب كتابات أو رسومات وجدت في غرفهم، حتى إن أحد السجناء في عنبري كان يكتب شعراً باللغة الإنجليزية، كان هذا السجين لا يعرف العربية إلا قليلاً، هو من بريطانيا، هذا الشعر كان يحفظه غيباً، وكان يكتبه رموزًا وكلمات ناقصة؛ حتى لا ينتحلها أحد أو ينسبها إلى نفسه، هذا الشعر كان ينتقد فيه السجن والسجان والمعاملة القاسية التي يتعامل بها السجان مع السجين، ينتقد فيها أمريكا وسياستها في معاملة الشعوب، يقول في شعره: إن الإنسان الأمريكي مرتاح، مسرور على حساب غيره، الناس تنزف دماؤهم، فقراء بحاجة إلى المساعدة، لكن لا يلتفت إليهم أحد. وهكذا كانت معاني القصيدة كما أذكر، لما وجد الحراس هذه القصيدة ذات الرموز، ناقصة

الحروف في أثناء التفتيش، وضعت عليه عقوبة ونقل إلى السجن الانفرادي بسبب هذا الشعر، وطبعاً صودرت القصيدة ولم ترجع له، رفض تسليمهم القصيدة في البداية، وحدثت مناقشة بينه وبين الحراس ولم يسلمهم القصيدة إلا بعد تعب، لا بد أن يسلم القصيدة من أول أمر، سجين آخر يسكن في العنبر الذي أسكنه، رأى الحارس عنده صورة مسجد، قال له الحارس: يمنع رسم المساجد والاحتفاظ بها، لا بد من تسليم هذه الصورة للحراس، قال له السجين: أنتم تسلمون لنا الورق والقلم، ماذا سنفعل بالقلم والورقة، إلا الكتابة أو الرسم.

رفض السجين تسليم صورة المسجد للحارس، رفع الحارس الأمر إلى مسؤوله، والمسؤول إلى مسؤول أكبر منه، حضر المسؤول الكبير إلى العنبر وبعد مشادة في الكلام سحب الصورة من السجين، وسجلت عقوبة على السجين؛ لأنه رفض تسليم الصورة من أول مرة للحارس، فهذا يُعد عصياناً لأوامر الحراس. والورقة والقلم لا تسلمان إلا لمن كان من الدرجة الأولى.

سجين آخر كتب على الورق الذي يتسلَّمه من الحراس آيات وأحاديث تحض على الجهاد، وتبين أجر المجاهدين والصبر في الجهاد، ودرجات الشهادة، لما جرى تفتيش عام للعنابر صودر الورق من صاحبه، مع أن هذه الآيات في القرآن الموجود بأيدي

السجنـاء، وهـذه الأحاديث موجـودة في الكتب التـي تسلمها إدارة السجن للسجناء، هذا شيء عجيب ومتناقض.

لقـد رأيت أحد جيراني تصادر إدارة السجـن أوراقه التي كتب عليها دروسًا في اللغة العربية، النحو والإعراب وتجويد القرآن، سجين آخر في العنبر الذي أسكنه رأى معه الحارس ورقة فطلبها منه فرفض المعتقـل، قام الحارس ورفع الأمر إلى مسؤوله الذي أصر على تسليم الورقـة، رفض السجـين الأمر وقـام بتقطيع الورقة قطعـاً صغيرة، وأعطاها للمسؤول الذي عَدَّ هذا التقطيع عملاً يستحق عليه السجين عقوبة، وفعلاً وقعت عليه عقوبة ونقل إلى العنبر الانفرادي.

أحد جـيراني الذي بينه وبيني الشبك فقـط أعطاني ورقة عبر الشبـك، فرآه الحارس، جـاء الحارس وقال: ما هـذه الورقة؟ قلت: ورقة مـن جاري، قام الحارسـ ورفع الأمر لمسؤولـه، حضر المسؤول وقال: أين الورقة؟ قلت له: تريدها خذها هي رسالة والرسالة قبل أن تصل لصاحبها تمر على التحقيق ويقرؤها التحقيق ويشطب ما يريده منهـا أو يتركها كما هي، يريد جـاري أن يطلعني على بعض أخباره، وأخبار بلده، إنها أخبار عادية، ومثل هذه الحوادث يقع كثيرًا.

بشارة

في اليـوم نفسه الذي وجد الحراس الكتابة في غرفتي، تم نقلي إلى غرفـة أخـرى، ولكـن في العنبر نفســه، كان النقـل قبل الظهر بساعة، لكن بعد صلاة الظهر مباشرة، جاء الحراس وقالوا: عليك تحقيـق، قلت لهـم: جاهز، قُيدت بالسلاسل -كمـا هي العادة- ثم التفتيـش، سرت مـع الحراسـ، ظننـت أن التحقيـق سيكون حول الكتابـة التي وجدوها مكتوبة في غرفتـي اليوم، دخلت الغرفة، لكن وجـدت مصوراً وثلاثـة رجال وقوفـاً، وأمامهم علـى الطاولة حبر وأدوات تتعلـق بالبصمـات، لم أجلس، قـام الحارس بفك قيد يدي اليمنـى فقط، وقام رجل آخر يمسك أصابعي، وأخذ بصماتها على الـورق الأبيضـ، وعلـى أوراق بلاستيكية ملساء، كانـت البصمات لجميع أصابع يدي اليمنى بأشكال مختلفة، رأس الأصابع ثم جميع الأصابـع، ثـم الكف مـرة واحدة، لا يقـل عن عشريـن بصمة لليد الواحدة، ومثلها لليد الأخرى.

ثم جاء دور التصوير، التصوير للوجه من الأمام، ثم عن جهة اليمـين، ثم من الجهـة اليسرى، ومن زوايا مختلفـة، لم يكن الأمر بالنسبـة لي مكلفاً أو شاقاً، ما كان يوجد عندي أي مضايقة نفسية أو بدنية مما يفعلونه، كنت أفكر فيما يفعلونه معي في هذه الجلسات الأخـيرة، وأتوقـع وآمل أن الأمـور في السجن في لمساتهـا الأخيرة، وأن كل مـا يجري يشير إلى أن نهاية هـذه المأساة قريبة جداً، كان الأشخاص الذين يعملون البصمات لي عاديين، لم تظهر منهم شدة أو قسوة، لا في العمل ولا في القول، انتهى الأمر ورجعت إلى غرفتي، كان هذا اليوم، وما جرى معي في غرفة التحقيق من أخذ البصمات والتصويـر هـو آخر أيـام ذهابي لغـرف التحقيق، كانـت هذه هي آخـر مقابلة تتم بيني وبـين إدارة السجن، ولمـا أخبرت جيراني في العنبر عمـا حدث معي، قالوا: هذه بشارة خـير لك، والفرج قريب -إن شاء الله تعالى- هذه الإجراءات يعملونها مع الذين يتم إطلاق سراحهم.

عنبر جديد

بعد يومين قامت إدارة السجن بنقل جميع هذا العنبر إلى عنبر آخـر؛ لعمل ترميمات وتصليحـات في العنبر، أما السبب أو العلة في هذا النقـل، فإن الاحتجاجـات التي يقوم بها السجنـاء في العنابر يصاحبهـا ضرب على الأسِرّة، وضرب على جدران الغرفة، أو على بابهـا لإحداث أصـوات مزعجـة؛ ليضطر الحراسـ إلى استدعاء المسؤولـين لمعرفة مشكلات السجنـاء، أو للبحث في تلبية مطالبهم، أو أن الاحتجـاج يكـون على عمل قام به الحراسـ، أو المحققون مع أحد السجناء، أو مـع بعضهم كتفتيش المصحف الشريف أو إهانته أو الاستهزاء بالدين أو بالرسول ﷺ.

انتقلنا إلى العنبر الجديد كل شيء فيه نظيف، طلاء الجدران مريح للنظر؛ لأن الطلاء القديم كان متعباً للنظر، ومضعفاً له، الآن الطـلاء الجديد من الأرضـ إلى ارتفاع متر ونصـف تقريباً مطلي

باللون الأخضر، ومن ارتفاع متر ونصف إلى سقف الغرفة مطلي باللون الأسود هذا الترتيب في الطلاء على الجدران الأربعة للغرفة التي تسكنها، وهو ترتيب جميع العنبر من أوله إلى آخره، إنه مريح للنظر وأفضل من الطلاء القديم.

ثم إن السرير أصبح قريباً من الأرض يرتفع نصف متر تقريباً عن الأرض مغلق من كافة الجهات لا يحدث صوتاً مزعجاً عند الضرب عليه، الإضاءة في العنبر أصبحت قوية جداً وفي داخل كل غرفة مصباح قوي، بينما الإضاءة السابقة كانت عادية، وكانت الإضاءة موجودة في الممر الموجود بين الغرف، ولا يوجد في الغرف لمبات أو مصابيح للإضاءة، باب الغرفة أصبحت له فتحتان (نافذتان)، نافذة سابقة علوية لإدخال الطعام والدواء واللباس منها، كما أنها لتقييد يدي السجين وربطه منها وفتحة في أسفل الباب؛ ليتم منها تقييد السجين في قدميه وهو واقف.

عنبر المسافرين

لم أمكث في هذا العنبر إلا عشرة أيام تقريباً، وفي صبيحة اليوم الأخير لي في هذا العنبر، وبعد تناول طعام الإفطار، جاء الحراس وقالوا لي: سوف تنتقل إلى عنبر نوفمبر، قلت لهم: لماذا، ماذا حدث، أنا لم أفعل أي مخالفة؟ عنبر نوفمبر هذا عنبر انفرادي، وقد كان عنبرًا يرسل إليه أصحاب العقوبات والمخالفات، وقد دخلته قبل ذلك مرتين، المرة الأولى عند وصولي إلى كوبا شهر ٨/ ٢٠٠٢ م والمرة الثانية لما حدثت مشكلات في العنبر الذي كنت أسكنه وقام الحراس بمعاقبة كل من اشترك في أعمال الشتم والرش على الحراس ومن لم يرش، وكنت من القسم الأخير ممن لم يشترك في أعمال الرش والشتم، قال الحراس: هيا اجمع أغراضك؛ لتذهب إلى عنبر نوفمبر.

وضعت أغراضي في الكيس، تم التقييد ثم التفتيش، أما الجيران في العنبر، فقالوا: وداعاً أبا عبد الله، اللقاء في الأردن،

هــذا العنبر الذي تنقل إليه نوفمبر أصبح عنبر المسافرين، يتم فيه جمــع السجناء الذين ستجرى لهم ترتيبات الخروج من السجن ثم السفــر، استبشرت خيراً بمــا سمعت، مشيت باســم الله إلى عنبر نوفمــبر، وجدت فيه ثلاثة سجناء، أعرف منهم اثنين من المساكين الطيبيــين الذيــن اعتقلهم تحالــف الشمال الأفغــاني وسلموهم إلى الأمريكان، أو باعوهم للأمريكان، أحدهم تركي والثاني كردي من العــراق، لما عرفوا أني أنا الداخل إلى العنــبر، قالوا: أبشر أبا عبد الله، هذا العنبر (نوفمبر) عنبر المسافرين.

لقــد خرجــت وانطلقت من هــذا العنبر مجموعتــان قبلنا إلى بلادهــم، السجين الثالــث ما سبــق أن عرفته إنه دكتــور طاجيكي اعتقــل داخل أفغانستــان، وبعد قليــل جاء الحراســ بسجين آخر، سمعــت أنه مــن العــراق أصبح مجموعنــا خمسة سجنــاء، دخلت الغرفــة الانفرادية في هذا العنبر، طلبت من الحارس أن يبقى معي بعضــ الأغراض، قــال: انتظر سأسأل، ذهب ثــم رجع قال: لا بأس يمكنــك أن تحتفظ بأغراضك كلها، قلت: هــذه واحدة واستبشرت خيراً؛ لأن هذه الأغراض عادة كانوا يأخذونها من كل سجين يدخل هــذا العنبر، قلت له: أريــد الفرشة الكبيرة، قــال: انتظر سأسأل، ذهــب ورجع، قال: خذ هذه الفرشة الكبيرة للنوم عليها، قلت: هذه بشارة ثانية؛ لأن من عليه عقوبة لا يأخذ هذه الفرشة.

بعــد ساعتين جاء الجنود من خارج العنــبر، وأخذوا قياس كل سجــين، البنطــال والقميص، الحذاء، قلت: هذه بشــارة ثالثة؛ لأن السجين الــذي يطلق سراحه يــترك اللباس الأحمــر ويعطى لباساً آخــر جديداً غير أحمــر، بدأنا نحن الخمسة نطمئــن بعضنا بعضاً بــأن الفرج قريب بإذن الله تعــالى خلال يومين أو ثلاثة، بعد يومين جاء الجنود الذين قاموا بقياس الملابس والحذاء لنا ومعهم حقائب خمسة، لكل واحد منا حقيبة عليها رقمه في السجن وفيها ملابسه، قمنــا بقياس الملابس والحذاء لمعرفة أنهــا ملائمة أو غير ملائمة، كبيرة أو صغــيرة، الملابس تتكون من بنطلون جينز، وجاكيت جينز أزرقين، فانيلة بيضاء ولباس داخلي، وجرابات وحذاء رياضي أبيض اللون، بعد عمليــة القياس أرجعناها إلى الحقيبة، قلنا: هذه بشارة أخــرى بالفرج القريــب، وفي اليوم نفسه جاء شخصــان وجلسَا مع كل واحد منا على انفراد في مكان المشي والرياضة، وأخبراني أنني سأخرج من هذا المكان قريباً، ستسافر، قلت: إلى أين سأسافر؟

قــال أحدهما: أنا لا أعرف إلى أين ستسافر، أنا لم أقرأ ملفك أو أراجع قضيتك، لكن أنا أعرف أنك ستخرج من هذا المكان قريباً جداً، قلنا: هذه بشارة أخرى بأن فرج الله قريب، وفي اليوم اللاحق جاء شخصان من منظمة الصليب الأحمر، وجلسا مع كل واحد منا علــى انفراد في مكان المشي والرياضــة، وقالا لي: أنت ستسافر إلى

بلـدك غـداً أو بعد غد، لكنه ربما تنزل الطائـرة التي ستحملكم في محطـات قبل أن تنزل في بلدك، وربما يقيدون أرجلكم في الطائرة، لكن لن يستروا عيونكم، لن يضعوا عليها ساتراً، قلت: الله المستعان، ماذا سنفعل؟

قلنا: هذه بشارة أخرى بأن فرج الله قد اقترب جداً بعد عصر هذا اليوم جاء الحراسـ ووضعوا الاسم والرقم لكل واحد منا على كلتـا يديه، الذين معي في العنبر قالوا: السفر سيكون اليوم أو غداً، لكـن لا يستطيـع أحـد أن يجزم أو يحـدد موعد السفـر، نمنا تلك الليلـة مستبشرين على أمل أن يكـون السفر هذه الليلة، وقد وقع ما تأملنـاه، ففـي الساعة الثانية بعد منتصف الليـل دق الحارس على الباب، وقال: انهض خذ هذه الوجبة من الطعام- الوجبة العسكرية المعروفـة التي سبق ذكرها- قلـت له: أنا لا أريد الصيـام غداً، أنا لم أسجـل اسمي في قائمـة الصائمين غداً، لأن هـذه الوجبة عادة يقدمونها سحوراً لمن أراد أن يصوم غداً.

لم يلتفت الحارس إلى كلامي، قال: خذ هذه وكلها بسرعة ووقف ينتظـرني على فتحة الباب، نظرت فـإذا جميع الذين معي في العنبر يقدمـون لهم هذه الوجبـة وأمام كل غرفة الحقيبـة التي يوجد فيها ملابس كل واحد منا وكل حقيبة عليها رقم السجين، وهذه هي الحقيبة التي رأيناها قبل يومين عندما قمنا بقياس الملابس والحذاء.

أكلت ما أستطيع مـن الوجبة بسرعة ولم يمهلني الحارس لأكل باقي الوجبة وقال: انتهى الوقت، أعطني ما تبقى منها، أخذه ثم بدأ يناولني الملابس قطعة، قطعة، حتى انتهت الملابس وقال: لا تضع أي شيء في جيوبك، حتى مناديل الورق- الفاين- قلت: هذا جيد، قال: مد يديك قيدهما ثـم قيد وسطي بالحزام، واليدان إلى الأمام على البطـن دون تقييد الرجلين، ثم فتـح الباب، فخرجت وقام الحراس بتفتيشـي جيـداً على باب الزنزانة، مع أن كل مـا ألبسه من ملابس كان معهم قبل دقائق، وهم الذين سلموني إياها، قال: أين القرآن؟

قلت: في داخل الغرفة، فتح لي الحقيبة وقال: ضع القرآن داخل الحقيبـة، أغلقها ثم حملها أحد الحراسـ، وانطلقنا نحن الخمسة خلـف بعضنا، شعـرت العنابر المجاورة بحركتنـا وأصواتنا، عرفوا أن هـذه المجموعـة قد أفرج عنها وهي مسافـرة إلى بلادها، بدؤوا يرفعـون أصواتهـم في هذا الجزء من الليل، وكانـت الساعة الثالثة بعـد منتصف الليل، وأخذوا يسلمون علينـا ويودعوننا ويطلبون منا المسامحة، مشينـا إلى خارج العنبر، وجدنـا الحافلة ركبناها وكنا بعيدين عن بعضنا، كل واحد منا في كرسي ويجلس عن يمينه حارس وعن يساره حارس، والحافلة مغطاة لا نرى شيئاً خارجها.

سارت الحافلة لكن لا ندري إلى أين تسير، وصلنا إلى حافة الماء - شاطـئ- كما يبدو شعرنا أن الحافلة قد دخلت على ظهر سفينة،

سـارت السفينـة مسافة قليلة ثم توقفت، خرجـت الحافلة من على ظهرهـا، سارت قليلا، دقائق، ثم توقفـت، بدأ الحراس يفكون عنا كل القيود، نزلنا من الحافلة واحد تلو الآخر، نظرت وإذا بحافلتين أخريـين يبدو أن فيهما أشخاصًا مثلنا قد أفرج عنهم، بدأنا نمشي نحو الطائرة والطائرة عسكرية كبيرة ذات أصوات عالية، وفي أثناء المشي كان هناك مصورون يأخذون الصور.

مغادرة كوبا

على باب الطائرة وقف بعض الجنود يأخذون أرقامنا الموجودة علـى أيدينا، وقفت على باب الطائرة من دون قيد، حراس الطائرة بـدؤوا يقيدونني من جديد، وهذا القيد مثل الذي حصل لنا عندما نقلونـا، مـن بجـرام إلى كوبا لكنـه أخف قليـلاً، تُقَيَّـد اليدان مع الوسط، وهما في الأمام على جهة البطن، ثم السلسلة تنزل وتتصل بالسلسلة التي تقيد الرجلـين، العيون مغطاة بنظارة سوداء لا ترى منهـا شيئاً، كما أن الأذنين مغلقتان، والأنـف والفم مغلقان بقطعة قماش، جلسـت على مقعد الطائـرة الطولي، قـام الحراس بربط وسطـي بسلسلة في مقعد الطائـرة للتثبيت على مقعد الطائرة، وتم تقييـد الرجلين بحلقة مثبتة في أرض الطائرة، لكن الجديد في هذه الرحلـة أن قائـد الطائرة، أعلـن أن رحلته ستستغـرق من ١٦-١٨ سـاعـة من هذه القاعدة- جوانتنامـو- إلى قاعدة في تركيا، نسيت

اسمها، صفق الجنود، ورفعوا أصواتهم موافقين أو قالوا: هذا سفر بعيد أو لا أعلم بالضبط ما قالوه.

أقلعت الطائرة وكان الوقت قريباً من الفجر كنا نشعر بسرعة الطائرة الكبيرة، كان الكابتن يكلمهم بين حين وآخر، عند الأكل والشرب، يقوم الحارس بإنزال أو رفع قطعة القماش عن فمك، ويعطيك الطعام ساندوش فول سوداني يضعه بين يديك، ترفع يديك قليلاً بالطعام، ثم تنحني وتنزل رأسك قليلاً، حتى يصل فمك إلى الساندويش، وإذا احتجت إلى الماء يأتي الحارس ويرفع قارورة الماء إلى فمك ويسقيك منها، بعد انتهاء الأكل والشرب يقوم الحارس بإرجاع قطعة القماش (غطاء الفم) إلى مكانه على الفم والأنف.

عند قضاء الحاجة يقوم الحارسان بفك قيد مقعد الطائرة عن وسطك، وفك قيد الرجلين من الحلقة المثبتة في أرض الطائرة، يمسك بك الحارسان، ويقودانك إلى حمام الطائرة، أنت لا ترى شيئاً، لكن لو حاولت ربما ترى شيئاً، يجلسك الحارسان على الحمام الإفرنجي وأنت مقيد اليدين والرجلين فيقومان بخلع ملابسك، تقضي حاجتك ولا تستطيع أن تنظف نفسك، لأنك مقيد، ثم هم لا يسمحون لك أن تحمل أي منديل ورق، وهم لا يقدمون لك أي مساعدة، هذا الحمام ليس له باب تقضي حاجتك والجنود يجلسون مقابلك بينك وبينهم أمتار قليلة.

بعد انتهاء هذه العملية يقومان بإرجاع البنطال كما كان، يلبسانك الثياب وترجع إلى مكانك على مقعد الطائرة، ويعود لك القيد في وسطك وقدميك كما كان، كنا نصلي على حالنا دون وضوء ودون تيمم ودون معرفة الوقت، وإن سألنا الحراس عن الوقت لا يجيبك أحد، كنا نقدر الوقت بالتقدير والظن، بعد هذا السير الطويل هبطت الطائرة، لكن لا ندري أين هبطت، نشعر أنها أنزلت أناساً لا نعرف من هم، مكثت ساعة في هذا المكان.

ثم أقلعت الطائرة، لا ندري إلى أين أقلعت، بعد ساعات هبطت مرة أخرى، وبعد أن توقفت تماماً جاء الحراس، وفكوا الرباط الذي يربطنا بمقعد الطائرة، وفكوا القيد الذي يربطنا ويثبتنا في الأرض، أوقفونا على باب الطائرة، أزالوا عنا غطاء العيون، وغطاء الأذن والفم والأنف، وبقيت سلاسل الأيدي والأرجل.

الوصول إلى بجرام

كان الوقت قريباً من منتصف النهار، لكن لا أعرف اسم هذا المكان، أركبونا في سيارة صغيرة إلى مسافة قصيرة، ثم أنزلونا إلى غرفة خشبية فيها أربعة أسِرّة، بعد أن فكوا القيود والسلاسل عنا، فكان هذا الوقت هو آخر عهدنا بالقيود والسلاسل والحمد لله رب العالمين، سألت من معي: ما اسم هذا المكان؟ أنا لا أعرفه، قال لي: إنه قاعدة بجرام الأفغانية.

قلت: أرجعونا إلى المكان الذي انطلقنا منه. عندما وصلنا، قال لنا الجنود: أنتم هنا في قاعدة بجرام القريبة من كابل، وأنتم هنا ضيوف عندنا عدة أيام، وستغادرون هذا المكان إلى بلادكم، لا علاقة لكم بقوانين هذا المكان وأنظمته، لن تذهبوا إلى غرف التحقيق، لن يسألكم أحد عن أي موضوع، سياسي، أو أمني أو غيره...

كل مـن يطلـق سراحه مـن جوانتنامو- كوبا- ويأتـي إلى هذا المكان- بجـرام- يجلس هنـا أياماً، ثم يعـود إلى بلـده، كان أحد الأربعة الذين معي أعرفه، كنا في باكستان عدة سنوات واعتقلنا في باكستان في ليلة واحدة، وكنا في سجن واحد، ثم كنا معاً عندما نُقلنا من بيشاور إلى قاعدة بجرام، وكنا معاً عندما نقلونا من بجرام إلى كوبـا، تجاورنا في معتقل جوانتنامو مدة من الزمن، وأطلق سراحنا من معتقل جوانتنامو معـاً، وعندما رأيته في بجرام، حين نزلنا من الطائـرة القادمة من كوبا فرحت به فرحاً شديداً، وسألته عن كثير مـن السجناء في كوبا، فأخبرني أن الذين أطلق سراحهم في دفعتنا - وكنـا في الطائـرة من جوانتنامو إلى تركيا، ثـم إلى بجرام- اثنا عشـر معتقلاً (١٢) اثنان من السـودان، وواحد أردني، وعراقيان، وطاجيكيان، وتركي.

كل هـؤلاء نزلوا في تركيا، وبقينا نحـن الأربعة نزلنا في بجرام وهم أردني (أنا) وسوري وإيراني وأفغاني، إن هذه القاعدة سبق أن نزلنا فيها معتقلين مقيدين بالسلاسل، عندما رحلونا من باكستان إلى بجـرام، لكن مكان الاعتقـال كان في داخل مبنى من الإسمنت، مكثنـا فيـه شهرين، ولا يـزال هذا المبنـى إلى الآن فيـه معتقلون، ممن تعتقلهـم القوات الأمريكيـة، أو قوات التحالـف الأفغانية، أو مـن تعتقلهم باكستان ومـا جاورها، لكن نحـن الآن نزلنا في غرفة

خشبيـة مجاورة لذلك المبنى الإسمنتـي، وليس بيننا وبين السجناء الذيـن في داخل هذا المبنى أي علاقـة، لا نلتقي بهم ولا نراهم، ولا نكلمهـم، لكن سمعنـا أن أحوالهم الآن أحسن مـن أحوالنا، عندما كنا في هذا المكان قبـل سنتين تقريباً، حياتنا الآن في قاعدة بجرام ليست كالحياة في قاعدة جوانتنامو، هنا الحياة أفضل، لكنها حياة ليس فيها حرية تامة.

الطعام في بجرام

الطعـام هنا متشابه، طيلة المدة التـي قضيناها في بجرام بعد خروجـي مـن كوبا أربعة أشهـر ونصف تقريباً، مـن ١/٤/٢٠٠٤م إلى ١٢/٨/٢٠٠٤م الفطـور، والغداء والعشـاء كان متشابهاً، وجبة معلبـة، إمـا أرزًا بقطـع الدجاج الصغـير والقليـل، أو يوجد مكان الدجـاج لحم، أو معكرونة أو أرزًا بالبازيلاء السوداء بقطع الدجاج الصغير، وإما بطاطا مع الطماطم وقطع الدجاج الصغير والقليل، أربـع أو خمس وجبـات معلبة، كل وقـت لك وجبة واحـدة من هذه الوجبات، مع قطعتين من البسكويت وعلبتين صغيرتين من (الصن فلكس) نوع من البسكويت الخفيف وكيس صغير جداً من الفستق، مع كيس صغير جداً من لباب- بزر أقراص الشمس.

أمـا الخبز فقد نراه في كل أسبوع مـرة، وقد لا نراه وهو أصلاً لا يأتـي إلينا، بل يأتي للمعتقلـين في داخل المبنى القريب منا، ولكن

ربما طلبنا من الحارس أن يأتينا بقليل من الخبز من الداخل، وقد يوافق وقد لا يوافق، أما الفاكهة فعندما وصلنا إلى بجرام وجدنا في الغرفة صندوق تفاح وصندوق بيبسي كولا، وصندوقًا فيه أكياس مجففة من الموز، ثم اختفت الفاكهة بعد انتهاء هذه الصناديق، والشاي والحليب ممنوعان، رأيناهما مرة أو مرتين طيلة المدة.

رفعنا شكوى للمسؤول أكثر من مرة بأن يغيروا لنا الطعام، فكان الجواب بالرفض، كان الجيش له وجبة معلبة عسكرية خاصة به، وكان له وجبة ساخنة يومياً بعد الظهر فيها دجاج أو لحم أو سمك ومشروب بيبسي أو نحوه، قلنا لهم: تعطوننا وجبة ساخنة يومياً أو وجبة عسكرية، فرفضوا طلبنا، لكن أيضاً حتى الوجبة التي تصرف لنا هي أصلاً تأتينا كاملة مغلقة في كيس، لكنهم يفكون الكيس ويأخذون منها حاجات ويعطوننا الباقي، يأخذون منها كيسًا خاصًا لتسخين الوجبة إن كان الجو بارداً، ويأخذون منها الملح، والشاي، والكاكاو، والقهوة، قلنا لهم: لو تقدمون لنا هذه الوجبة كاملة ولا تأخذون منها شيئاً، فرفضوا ذلك، حقيقة كنا نعاني من مشكلات في المعدة بسبب تكرار هذه الوجبة علينا يومياً، بل ثلاث مرات يومياً، فكنا لا نأكل في اليوم إلا مرة واحدة.

لكن هنا في بجرام لا نمنع من تخزين الطعام، فكان عندنا كراتين من هذه الوجبات التي تقدم لنا، وأحيانا نعطيها للحراس،

يأكل بعضهم منها وبعضهم لا يأكل منها يردها إلى المخزن، أو يلقيها في صناديق القمامة، وأحيانا نأكل نحن من هذه الوجبات والمتبقي بعد الأكل نلقيه في صندوق القمامة، مع أنه معلب لا يفسد بالتخزين، والقانون عندهم أن تأكل الوجبة والمتبقي تلقيه في سلة القمامة، ولا يسمح لك بتخزينه.

الحياة في بجرام

الغرفة التي نعيش فيها هي في الأصل غرفة معدة للجيش، وهي غرفـة مستطيلة تتسع لعشرة أفراد، تهويتها جيدة، لكنها في الشتاء باردة، ونحن وصلنا بجرام آخر الشتاء، كان هناك مدفأة كهربائية صغـيرة، لكنهـا لا تكفـي لتدفئة الغرفـة، أما في الصيـف فالغرفة مجهـزة بجهاز تبريد جيد، لكـن كان يتعبنا الجلوس الطويل وعدم الخروج للمشي والرياضة، وكنا لا نخرج لحمام الاغتسال، أو حمام قضـاء الحاجـة، إلا بإذن من الحراس الموجوديـن معنا في الغرفة، وبمرافقة أحدهم أيضاً.

والغرفة يتنـاوب على حراستها ثلاث مجموعـات يومياً، وكان حمام الاغتسال مرتين كل أسبوع وكنا نغسل ملابسنا مرة كل أسبوع، كل واحـد منا له سرير، مثل أسِرّة الجيش المتنقلة، مع قطعة سجاد أو قطعتـين بعضهما تحت الرأس (كوسـادة) وقطعة تضعها تحتك

ومعك بطانية جيدة تتغطى بها، كان في الغرفة طاولة متوسطة نأكل عليها أحياناً، أو نلعب عليها الورق.

كانت لنا الحرية داخل الغرفة نتحرك فيها كيف نشاء، الكلام مسموح به، القراءة والكتابة كذلك، القلم والورق متوافران، القرآن الكريم موجود، والكتب الدينية وغير الدينية كانت في البداية غير متوافرة، ثم أصبحت متوافرة، حيث أحضر لنا الصليب الأحمر بعضاً منها، كما أحضر لنا سجادة صلاة ومسبحة وملابس باكستانية، وبذلتين في البداية ثم زادهما بعد ذلك بذلتين، أحضر لنا الملابس الداخلية وشبشباً، وفرشاة ومعجون الأسنان، والمياه الصحية متوافرة طيلة الوقت للشرب فقط، أما مياه الوضوء فغير متوافرة بسبب نقص المياه، ولذلك لم نتوضأ مرة واحدة طيلة مدة وجودنا في بجرام (١٣٢) يومًا تقريباً، وطيلة هذه المدة كنا نتيمم.

كنا في الغرفة أحرارًا، ولكننا في الواقع غير أحرار، أحرار لأننا لا نخضع لأي عملية تحقيق أو مساءلة من قبل المحققين أو غيرهم، لا تنطبق علينا أنظمة السجن الموجودة في بجرام، لا يوجد عندنا نظام عقوبات وسحب أغراض، كما هو في معتقل جوانتنامو، أما كوننا غير أحرار، فلأننا لا نستطيع أن نخرج من الغرفة إلا بإذن، ويكون الحارس مرافقاً لنا، إننا نعيش في قاعدة عسكرية مراقبين وليس لنا الحرية الموجودة للناس الآخرين خارج هذه القاعدة.

لقد قال الحراس في سجن جوانتنامو (كوبا) لبعض الإخوة المعتقلين: كل من خلع اللباس البرتقالي ولبس مكانه لباس الكابوي الأزرق، وخرج من هذه الجزيرة (كوبا)، فقد ثبتت براءته من تهمة الإرهاب (كما يسمونها)، ولم يعد له أي علاقة بالقضية التي جمعت أمريكا بسببها هؤلاء السجناء، ليس له علاقة بأحداث نيويورك وواشنطن، ليس له علاقة بقتل أو تفجير أو تخريب أو أي عداء للولايات المتحدة الأمريكية، إنه بريء من هذه التهم كلها براءة الذئب من دم النبي يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لذلك قال لنا الحراس منذ اليوم الأول لوصولنا إلى بجرام: أنتم عندنا ضيوف هنا عدة أيام، وستسافرون إلى بلادكم.

لكن مضت الأيام الأولى، مضى الأسبوع الأول والثاني ولم نسافر، بعد أسبوع من وصولنا من كوبا إلى بجرام حضر إلى الغرفة التي نسكنها شخص يبدو أنه مسؤول كبير، وسأل عنا وعن أحوالنا بسرعة وانصرف؟ لم نكن نعرفه، فلما انصرف قال لنا الحراس: إنه السفير الأمريكي في كابل، قد يكون اسمه خليل زي- أفغاني الأصل، يعيش في أمريكا منذ سنوات ومعه أشخاص من وزارة الخارجية الأفغانية، بعد أسبوع تقريباً عاد الشخص نفسه وسأل عن أحوالنا وقلنا له: وجودنا هنا كم سيكون ومتى سنسافر؟ فقال: نحن نجري اتصالات مع الدول التي ستذهبون إليها، ونحن

مهتمـون بموضوعكم، لسنا ناسين لكـم وانصرف، بعد مضي شهر تقريباً أصبنا بيأس من السفر القريب أو الفرج العاجل.

فقـام الشخص الإيراني الموجـود معنـا وأراد أن يشكل عملية ضغـط وإحراج علـى المسؤولين في القاعـدة؛ ليسرعوا في تسفيرنا، وكان رجـلاً مريضاً ،أعصابه قلقة، يتصرف تصرفات غير عادية، كان لديـه كميـة مـن الحبـوب (أقراص دواء) مختلفـة الأشكال والألـوان، فبدأ يتنـاول كميات من هذه الأقراص، قدرت بخمسين حبة؛ حتـى تؤثر عليه وتزيد في مرضه أو نقلـه إلى المستشفى، فزع الحراس لما رأوه يفعل ذلك، أسرعوا إليه، ثم جاء الطبيب ونقلوه إلى المستشفى القريب، مكث هناك أسبوعًا ثم عاد إلى الغرفة معنا.

لكـن بعد يومين تم نقله من غرفتنـا إلى مكان آخر ، إذ الحياة في هـذا المكان دون الحياة في الغرفـة معنا، وقد كان هذا الشخص يتصرف تصرفات عجيبة، كان يدخن وكان يضع النسوار (الشمة) في الفـم، وكان يحصـل علـى كل هـذه الأمور من الحراس، وهذا العمل مخالف لقوانين هذه القاعدة، كان يطلب من الحراس الإذن ليسمحـوا له بالخروج خارج الغرفـة؛ ليدخن، كان يتعامل مع بعض الحراس معاملة ليست لينة، هذه المخالفات وغيرها، جعلت الإدارة تنقلـه من غرفتنـا إلى مكان آخر غير جيد، وبقينـا ثلاثة أفراد في الغرفـة إلى أن خرجـت، لكن بعـد خروجي من بجـرام بنحو أربعة

أشهـر رأيته على إحدى القنوات الفضائية يجري مقابلة يشكو فيها من المعاملة السيئة التي حصلت معه في السجن.

كمـا سمعـت أن الشخصـ الثالث السـوري قد أطلـق سراحه أيضاً، ورجـع إلى أهله الموجودين في باكستان، أما الأفغاني الرابع، فلا أعلم عنه أي شيء.

الرسائل

الرسائل من السجين وإليه لا بد أن تمرّ على قسم المراقبة في السجن، ويقرأ كل كلمة يكتبها المعتقل إلى أهله بأي لغة كانت، وربما تتأخر الرسالة أياماً أو أسابيع من أجل كلمة واحدة لا يستطيع قسم الرسائل معرفة معناها؛ لأنها ربما تكون مكتوبة بلغة عامية، وربما يراجع صاحب الرسالة لفك اللغز أو الكلمة الموجودة في رسالته، ويفسر ويحلل معنى هذه الكلمة.

وطريقة إرسال الرسائل إما عن طريق الجيش، الذي يقوم بإرسال رسالتك عن طريق البريد، وتصل إلى عنوانك، لكن بعد فحصها وتدقيقها، وإما عن طريق الصليب الأحمر الذي يحضر رجاله إلى عنابر السجن، ويقدم لك الأوراق الخاصة بالصليب، وبعد كتابتها يتسلمها منك موظف الصليب الأحمر، ثم يسلمها إلى إدارة السجن، حيث هناك قسم التدقيق والفحص، وبعد أن يوافق

علـى الرسالة من قبـل هذا القسم، يستلمهــا الصليب الأحمر مرة أخرى، ويرسلها إلى عنوانك عن طريق تابعة للصليب الأحمر، حتى تصل إلى عنوانك.

أما وصول الرسائل إليك، فعن طريق الصليب الأحمر الموجود في منطقتـك أو بلدك، وذلـك بأن يكتب أهلـك الرسالة ويسلمونها للصليب الأحمر الذي يوصلها إلي السجن، عن طريق تابعة للصليب الأحمـر يتسلمها قسـم التدقيـق والفحص في السجـن ويفحصها ويقرؤهــا، وربما يوافق عليهــا، وربما لا يوافق، وربمــا يشطب منها كلمة أو سطراً أو سطـوراً وربما يحجزها ولا يرسلها، وربما تصلك الرسالـة عن غير طريـق الصليب الأحمر، وذلك بـأن يكتب أهلك الرسالـة ويرسلوهــا على عنـوان خاص بالجيش، علـى أمريكا، ثم تصل إلى كوبا، إلى السجن، إلى قسم التدقيق والفحص يشطب ما يريـد، كلمة أو سطراً أو سطـورًا أو لا يوافق عليها وقد يحجزها ولا يسلمها لصاحبها.

والرسائل مـن السجين وإليـه تخضع للتحقيـق ويتحكم فيها، فمثـلاً بعض المعتقلين وصلته رسائـل كثيرة جـداً وبعضهم وصله رسائـل قليلـة، وبعضهـم وصلتـه كمية مـن الرسائـل لا بأس بها، وبعضهـم لم يصلـه أي رسالة مـن أهله أبداً، بالرغـم من أنه كتب لهم الكثير، وبعضهم لم يصله أي رسالة أبداً؛ لأنه لا يريد هو ذلك، حيث لم يكتب لهم أي رسالة.

وكل رسالــة تخرج من المعتقـل إلى أهله، أو تصل من أهله إليه يأخذ منها قسم الرسائل نسخة يحتفظ بها، وعادة ما تتأخر الرسائل في الخـروج من المعتقل إلى الخارج أو مـن وصولها من الخارج إلى أصحابها؛ لأن الكتابة للرسائل بلغات مختلفة وكثيرة والألسنة التي يتكلـم بهــا السجناء كثـيرة، ولأن هذه اللغات الكثـيرة متفاوتة بين الوضوح والغموض وبين المفهومــة وغير المفهومة وبين اللغة العامية واللغــة الفصحى، وهذا يحتاج إلى وقـت كبير، وجهد كثير لإنجاز، وإتمام المقصود من هذه الرسائل وتدقيقها وفحصها.

الصليب الأحمر

كان الصليب الأحمر في المعتقل يقدم بعض الخدمات للمعتقلين لمن أراد منهم، منها: حمل الرسائل ذهاباً وإياباً، ويقوم بحمل شكاوى المعتقلين إلى إدارة السجن، وربما يحل بعضها مما يقع في دائرة اختصاصه، وقد كان يعرض على كل معتقل أن يكتب رسائله عن طريق الصليب الأحمر، ومن يرفض كتابة الرسائل عن طريق الصليب الأحمر، يكتب عن طريق الجيش، وفي معتقل بجرام كان الصليب الأحمر هو الطريقة الوحيدة لحمل الرسائل من المعتقلين وإليهم، كان يقدم لهم أموراً لا توجد في المعتقل، مثلاً تراهم يحملون برادات الشاي، وتقديم كأس شاي لكل معتقل، هم في الظاهر يتعاطفون مع المعتقل، لكن إن رفعت لهم شكوى عن وضعك في السجن مثل: العقوبات، التحقيق، مدة السجن، يقال لك: نحن لا نستطيع أن نتدخل في سبب اعتقالك، ولا نسأل عن جلسات

التحقيق التي تكون معك، ولا عن موعد إطلاق سراحك، نحن نعمل في مجال الرسائل، والمساعدة في حالتك الصحية، ووضعك الغذائي، والطعام، واللباس، وهذه نتدخل فيها أو نساعدك فيها في حدود، وليس تدخلاً كاملاً، ندخل فيها أو نساعدك.

سمعت من بعض الأفغان أن الصليب الأحمر يقيم لهم دورات، يقول لهم: إنها دورات تثقيفية ولا يسمح لأي جنسية أخرى أن تشترك معهم لا من العرب ولا من العجم، يقدمون لكل مشترك علبة من البيبسي أو العصير أو ... بعض الأفغان رفض الاشتراك فيها، وقال: إنها دورات مشبوهة؛ لأن المعتقلين الأفغان معظمهم عوام، ليس عندهم تعليم عالٍ، ويخشون أن يدخلوا لهم بعض المفاهيم غير الصحيحة، أو يسببوا لهم نوعاً من التشويش أو...

الصليب الأحمر يظهر دائماً أنه معك أيها المعتقل، وأن السياسة الأمريكية في المعتقل لا تعجبهم، لكن ليس بيدهم تغيير الأمور، بعض موظفي الصليب الأحمر ربما يدافعون عن النظام المطبق في المعتقل، مثلاً بعد شهر من وصولنا إلى كوبا، جاء الحراس وأخذوني إلى مكان جديد، غرفة فيها مقعد وكراسي، ليس زنزانة، ظننت أنه مكان تحقيق، جاء شخص وبدأ يتكلم معي لغة عربية غير واضحة، لكنها مفهومة على كل حال، وعليه إشارة الصليب الأحمر، شكوت له ما يتعرض له المعتقلون في بجرام من تعذيب

وتضييق، وما نعانيه في كوبا من فقر في الوجبات الغذائية وقلتها، فقال لي: ما هي وجبة الفطور؟

فقلت له: بيضة واحدة وقطعتان من الخبز وقليل من الأرز المطحون... إلخ، فقال: هكذا يأكل الجنود، قلت: هل يعقل، هذا؟ هل تصدق أنت هذا؟ لا يمكن هذا، إننا نسأل الجنود الذين تعودنا الكلام معهم عن وجباتهم الغذائية فيخبروننا بوجباتهم الغذائية، هناك فرق كبير جداً بيننا وبينهم، أنا لا أطلب أن نأكل مثلهم، هذا لا يمكن أن يحدث، لكن نطالب بشيء معقول، بشيء يكفي المعتقل.

إن كثيراً من المعتقلين بعد تعاملهم مع الصليب مدة طويلة وكما سمعت قرروا مقاطعة الصليب الأحمر في كافة المجالات، مثل الرسائل، عرض المشكلات أو الشكوى له، عدم طلب أي مساعدة منه؛ لأنهم وجدوا أن الصليب الأحمر عبارة عن معين ومساعد للأمريكان، وإن ما لا يستطيع الأمريكان الحصول عليه أو معرفته فإن الصليب الأحمر قد يحصل عليه أو يعرفه من المعتقل، إن كثيراً من هؤلاء المقاطعين للصليب الأحمر، أدرك أن كثيراً من المعلومات التي رفض تقديمها للأمريكان استطاع الصليب الأحمر بذكائه ودهائه، أو بوصفه طرفاً لا علاقة له بالتحقيق، كما كان يظن بعض المعتقلين الحصول عليها بسهولة، وهذا سر زيارات الصليب الأحمر المتكررة للمعتقلات والسجون، وهذا سر إلحاح الصليب الأحمر

وإصراره على مقابلات الكثيرين، وعلى طلبه المتكرر المرة بعد المرة مـن المعتقلين كتابـة الرسائل عن طريقه، وهذا سـر تفقُّد الصليب الأحمـر بعض الرافضـين للتعاون معه وزياراتهـم وعرض خدماته عليهم، والله أعلم بما يضمرون في قلوبهم.

ثـم إن المعتقلين الرافضين للتعاون مع الصليب الأحمر أسمعوا رجـال الصليب الأحمـر كلاماً شديداً وقاسياً، مثـلاً قالوا لهم: إن الصليـب الأحمـر والأمريكان شـيء واحد، إنهم يعملـون في صف واحد، وخندق واحد، ولولا استفادة الأمريكان من الصليب الأحمر لم يسمحـوا له بزيـارة معتقلاتهم وسجونهـم، والصليب الأحمر لا يتحـرك قيد أنملة، ولا يستطيع تقديم أي شيء لك، ولو كان بسيطاً وعادياً، إلا بعد موافقة الأمريكان عليه.

الدعوة في كوبا

لقد رأيـت أن بعض المعتقلين ممن يجيـدون اللغة الإنجليزية، قـد أثـر إيجابياً على بعض الحراس والجنود، حيـث إن كثيراً من الحراس قد داخله شيء من الإنسانية كما يسمونها، وشعر أن هذا المعسكـر -جوانتنامـو- فيه كثير من المظلومـين الطيبين العاديين، لقد كان الكثير من الحراس يتعامل معك ونسي أنه جندي في الجيش الأمريكـي، وأنـت سجين معتقـل، لقد كان بعضهم يقـف الساعات الطوال على نوافذ جدران غرف بعض المعتقلين ممن يجيدون اللغة الإنجليزية، هذا الجندي يحدثهم عن آلامه وعن مشكلاته، يحدثهم عـن عائلته، عن فقره وقلة حيلته، يحدثهـم عن ظلم المجتمع الذي يعيشـ فيـه، وأنه لا يرحم أحداً لا بد أن تكـون جيوبك أو محفظتك مليئـة بالنقود؛ حتى تستطيع أن تعيش مستـور الحال، إن الفقير لا يعرفـه أحد في هذا المجتمع، كم هو ظالم هذا المجتمع الذي يطحن الفقير ويسحقه، ويرفع الغني ويعليه!

وقد كانت هناك مجندة تأنس، بل تحب مناقشة أحد المعتقلين، كان يكلمها عن الإسلام وعن احترام الإسلام للمرأة وقال لها: لو كنت أنت مسلمة لكنت الآن في بيتك معززة مكرمة، بدل أن تكوني في هذا الجو الذي لا يتناسب أبداً مع أنوثتك، لا يمكن لأبيك أو لزوجك أن يرضى أيٌّ منهما أن تكوني بين هؤلاء الرجال تسمعين منهم الكلام البذيء وتجدين منهم الضيق والتحرش، إن هذا العمل- الجيش- لا يناسبك، ومن المؤكد أنك تكرهين هذا العمل، وتودين التخلص منه بأسرع وقت.

فجلست على الأرض تود أن تسمع أكثر وتحب أن يزول عنها ما تكنه في قلبها من الآلام والتعب، ومن الغربة والبعد عن أهلها، قالت: إني أود الخلاص مما أنا فيه، ولقد غرر بنا مسؤولو الجيش وخدعونا، لقد أعلن هؤلاء المسؤولون، عندما بدأت الحرب على ما يسمى (بالإرهاب) وقالوا: إن الجيش بيت من لا بيت له ومأوى من لا مأوى له، إنه بيت الجميع فَخُدِعنا بهذه الإعلانات ولما دخلنا الجيش وجدنا غابة وحوش يفترس فيها الكبير الصغير، ويظلم فيها القوي الضعيف، خاصة أصحاب الرتب القليلة والسيدات.

لقد كان جميع المعتقلين- إلا القليل- كباراً ومثاليين ونماذج للتضحية في عيون الحراس والجنود، بل في عيون المترجمين والمحققين بسبب الصبر واليقين والرضا والتسليم لما هم فيه من البلاء، لقد عبر بعض الحراس عن هذا الموقف، فقال: لو كان هذا السجن في أمريكا ومرت عليه هذه المدة من الزمن، وكان بهذا الوصف والشكل لقتل السجناء أنفسهم وأقدموا على الانتحار؛ خلاصاً من هذا الضيق، وقال أحد الحراس: لو كنت أنا مكانكم لم أتحمل هذا الوضع إلا عدة شهور.

ولقد دخل بعض الحراس مازحاً على غرفة أحد المعتقلين الفارغة؛ لأن المعتقل كان في الاغتسال وأغلق على نفسه باب الزنزانة، فقال: يا إلهي، إنه شيء مفزع، إنه مكان ضيق لا أحتمله! ولقد رأيت بعض الحراس يريدون أن يمزحوا مع بضعهم بعضاً بإدخال أحدهم عنوة إلى غرفة أحد المعتقلين الفارغة، هم يصرون على إدخاله إلى الغرفة، وهو يحاول منعهم من ذلك واشتد الأمر بينهم، ولم يقبل الحارس الدخول إلى الغرفة الفارغة، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحاً، إنه يرفض الدخول إلى الغرفة، ولو كان عن طريق المزاح.

لقد تأثر بعض الجنود، خاصة الذين أصولهم وأجدادهم مسلمون، كالأسبان أو الأفارقة من النقاش الذي كان يجري بينهم وبين المعتقلين، ووعد بعضهم بأنه سوف يسلم عندما ينهي مدة تعاقده مع الجيش، وعندما كان يسأل: لماذا لا تسلم الآن؛ لأن الموت ربما لا يمهلك حتى تخرج من الجيش، بعد سنة أو سنوات؟ فكان

يجيب: إن التدين في الجيش غير مسموح به، لك أن تعتقد ما تريد بأي دين وبأي ملة لكن السلوك والعمل، التطبيق لما تحمله من دين لا يسمح به داخل الجيش، إنه جيش علماني لا يجوز أن يظهر فيه الجندي صلاته أو عبادته، وإلا سيعرض نفسه للعقاب، إنك تسأل الجندي عن دينه، فيقول لك: إنه مسيحي، لكنه لا يعرف أي شيء عن دينه، حتى المبادئ الرئيسة والخطوط العريضة في دينه لا يعرفها، يقول لك: إن أبي أو أمي على هذا الدين، حتى الكنيسة لا يعرف طريقها، إن في الإسلام فرائض كالصلاة والصوم، ومحرمات كالزنا والخمر، هذه أمور معلومة من الدين بالضرورة، لا أحد يجهلها حتى المسلم العامي الذي لا يقرأ ولا يكتب يعرفها.

لقد كان بعض الحراس يريد أن يدخل إلى قلبك، ويريد أن يجاملك، فيقول لك: لقد كان أبي مسلماً أو أذكر أن جدي قد ذهب إلى الحج قبل عشرات السنين، مثال آخر أحد الجنود كان يسمع المعتقلين، يتكلمون عن الإسلام فقال: أنا مسلم لكنه لا يعرف عن الإسلام شيئاً ولا يمارس أي نوع من الشعائر ولا يطبق أي حكم من أحكام الدين، لكنه يقول: إنني مسلم وبعد مناقشات بينه وبين المعتقلين، نشأت علاقة طيبة بينهم، وحدث مزاح ومجاملات بينهم دخل رمضان فصامه، وكنت تشاهد آثار الصوم وعلامات الجوع والتعب والعطش ظاهرة عليه، قال: هذا أول رمضان أصومه في حياتي، لكن بقدر ما تكلّم الحراس عن الإسلام بقدر ما يوجد في قلبه من جهل وتشويه، وحقد على الإسلام، وبقدر ما يزرع في رأسه ويغرس في قلبه من مطاعن وشبهات حول الإسلام، وما يتلقاه من ثقافة مسمومة عن الإسلام والمسلمين وأنهم خطر عظيم ووباء جسيم ضد الإنسانية، وضد كل تقدم وتطور، إنهم يزرعون في قلبه باستمرار صورة الإسلام الهمجي، الذي يقطر سيفه من دماء الأبرياء، صورة الإسلام المتخلف الفقير الجاهل.

ولا أدل على ذلك من بلاد العرب والمسلمين الفقيرة والمتخلفة، والمتفككة، إنهم يرون صورة الإسلام في أهله وفي بلاده، وفي رجاله الذين يشاهدونهم في أثناء زياراتهم للغرب، وما يمارسونه من أعمال وما يقومون به من أفعال، يكفي أن تحكم على الإسلام والمسلمين من خلال هؤلاء الأشخاص.

إن التأثير على هؤلاء الحراس يكون بتنظيف عقولهم أولاً، ثم إفراغ تعاليم الإسلام الصحيح في عقولهم ثانيا أي التخلية أولاً ثم التحلية ثانيا، جندي كان يناقش ويتكلم مع المتعقلين كثيراً كان يمازحهم استطاع الاندماج والدخول مع المعتقلين في موضوعات كثيرة، قال له أحد المعتقلين مرة، وأنا أسمع: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال له أتشهد أن محمداً رسول الله؟ تبسم وانصرف، لقد كان بعض الجنود يأتي في أثناء صلاة

الجماعة الجهريـة، صلاة المغرب والعشـاء والفجر، ويقف بجانب غرفة الإمام الذي يرتل القرآن ويضع أذنه على جدار غرفة الإمام؛ ليسمـع القرآن الكريم، شاهـده المعتقلون أكثر من مرة، وكان تعليق الجندي بعد انتهاء الصلاة: هذا شيء رائع، جميل.

الجهاد والإرهاب

إن بعض الجنود كان يقوم بالدعوة لما يعتقده، يدعو للنصرانية، خاصة للمعتقلين الذين يعرفون الإنجليزية، كنت ترى بعض الجنود يقـف طويـلاً في مناقشـة بعض الجوانـب في ديـن الإسـلام، أو النصرانيـة، وربمـا يقوم هذا الجندي بتقـديم الإنجيل للمعتقلين، وقـد حدث هذا أكـثر من مرة، إن كثـيراً من المحققـين كان يشغل بالهـم في التحقيق مع المعتقلين مـدى تعمق معنى الجهاد والإرهاب في الإسـلام، وهـل انتقلت هذه المعـاني إلى عقول هـؤلاء الشباب؛ لينفذوهـا على أرض الواقع، لقد سمعت من بعض السجناء مدى التعب الـذي يجدونه من المحققين حول معنـى الجهاد وما يسمونه بالإرهـاب، وهل معنى الجهـاد استباحة دماء الكفـار وأعراضهم، وهـل هذا ديـن أو عقيدة؟ إن هؤلاء الشبـاب إزاء أمر خطير، لا بد من تغيير مفاهيمهم وتصحيح سلوكهم وأعمالهم.

ولقد سمعت من المعتدلين ومن المتشددين من هؤلاء الشباب عن الجهاد، وعن الدعوة وعن قتال من يقف في طريق الدعوة الإسلامية، وعن أهداف الجهاد في سبيل الله، ومتى يكون الجهاد فرض عين، ومتى يكون الجهاد فرض كفاية، وأستطيع تلخيص ما سمعته منهم فيما يأتي:

١- الجهاد في الإسلام ليس معناه سفك دماء البشر، حتى لو كانوا غير مسلمين.

٢- الإسلام لا يحمل السيف على الناس ولا يضعهم تحت تهديد السيف، إنه لا يخيرهم بين الإسلام وبين القتل.

٣- الإسلام يعطي حرية الاختيار لغير المسلمين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، لقد اعتنق الناس الإسلام بالاختيار، ولم يعتنقوه بالتهديد والوعيد.

٤- لن يرضى الإسلام أن تكون هناك حواجز تقف حائلاً بين الإسلام وبين الشعوب التي تريد أن تدخل فيه.

٥- الجهاد في الإسلام شرع لإزالة هذه الحواجز التي تحول دون وصول الإسلام إلى الشعوب، وحتى لا تكون هذه الحواجز ضغوطاً وموانع على كل من يريد أن يدخل في دين الله.

٦- الإرهاب مصطلح يطلقه في هذه الأيام أناس غير مسلمين على الإسلام والمسلمين؛ لتشويه الإسلام ولتنفير الناس من الدخول فيه، وهذا المصطلح لا يستعمله المسلمون فيما بينهم، ولا يتداولونه في معاملاتهم وأحكامهم.

٧- لا يحكم على الإسلام وأهله من خلال عمل شخص أو تصرف فرد، ولا حتى من عمل جماعة أو مؤسسة أو دولة مهما كانت.

٨- ما قام به الشباب في واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ م لا يصح أن يحاكم عليه جميع المسلمين، بغض النظر عن صحة ما قام به هؤلاء الشباب أو عدم صحته.

٩- كثير من المسلمين لم يعجبهم ولم يوافقوا على ما قام به الشباب في ١١ سبتمبر، ومنهم علماء ومشايخ لهم وزن وصيت بين شعوبهم.

١٠- تفاوتت الشعوب وتفاوت العلماء في حكمهم على ما فعله الشباب في ١١ سبتمبر، وتباينت نظراتهم إلى هذا الفعل، لكنكم سمعتم لمن أيده ورحب به ولم تسمعوا لمن عارضه وأنكره.

١١- كانت ردود الفعل من الولايات المتحدة الأمريكية أكبر بكثير من الحدث الذي وقع عليها، وأخذت الكثير من المسلمين ممن لا علاقة له بالحدث من قريب أو بعيد، بجريرة عدد قليل جداً، ممن لهم علاقة بهذا الحدث.

١٢- الـردود الأمريكيـة على الحدث لم تكن فقـط في المجال الذي وقع فيـه وبسببه الحدث، بل تجاوزتها الـردود الأمريكية إلى مجـالات أخـرى، وإلى شعـوب أخـرى لا تعرف عـن الحدث شيئـاً، ولم تسمع به إلا كما سمعه بقيـة الناس، وبعض الناس لم يسمـع بتنظيـم القاعـدة ولا بزعيمها أسامة بـن لادن إلا مـن وسائـل الإعلام بعـد وقـوع أحـداث ١١ سبتمـبر، ولقد قامـت أمريـكا باستغلال هذا الحدث لتحقيـق وتنفيذ برامج ومخططـات أخرى، بعيدة عن الحدث تحـت غطاء وستار ما يسمى بالحـرب على الإرهاب، وظهر للنـاس بعد مرور شهور أو سنين أن الحرب التي تجري الآن، والردود على الحدث ليس المقصود بها حمايـة مصالحهم، أو بلادهم، أو تصفية هؤلاء الإرهابيـين وتدميرهـم، كما يسمونهـم، ولا حتى زرع الخوف والرعب في نفس كل من تسول له نفسه أن يقلدهم ويسير على نهجهـم، بل لقد كان الـرد على ما وقع وحـدث في وادٍ وكل ما يجري ويقع الآن، في وادٍ بعيد جداً عن الوادي الأول.

الأمريكان: يعجبهم، يحبون، يفضلون:

١- المتعلـم في كافـة المراحـل المدرسية والجامعية ومـا بعدها، لكن أظن أنهم لا يرغبون، ولا يميلون إلى المتعلم تعليماً دينياً، خاصة في الـدول أو الجامعات التـي يقولون عنها: إنهـا متطرفة وغير معتدلة، لكن لا بأس أن يكون التعليم الشرعي للشخص قد خرج من تحـت أيديهم، ومن خلال جامعاتهم أو الجامعات الأوروبية التـي تفتـح أقسامـاً في جامعاتهـا، تسمى كليـة الدراسـات أو الديانات الشرقية، فيدرس الطالـب فيها ديانات الشرق، سواء كانـت سماوية كديانة موسى وعيسـى -عليهما السلام- وديانة محمـد خاتم النبيـين ﷺ أجمعـين، أو يدرسـون الديانات غير السماوية التي ظهرت في اليونان ومصر والعراق والهند وغيرها، والتي لا علاقة لها بوحي السماء من قريب أو من بعيد، ولو كانت قائمـة على الشرك والوثنية وتعـدد الآلهة، وحتى لو كانت قائمة على الظلم والاستعباد ونشر الفواحش والموبقات، وحتى لو كانت قائمة على النهب والسرقة والاعتداء على الآخرين.

فالإسلام يدرَّس في هذه الأقسام كما يدرَّس أي دين آخر، لكنه يدرسـ على أنه ثقافة وعلم نظري ولا يدرس بصفته دينًا للعمل والتطبيـق أو دينًا للاعتقاد وسلوكًا للفرد والأسرة والمجتمع، ثم إن الطالـب وكما سمعت لا يتخرج في هـذه الأقسام، إلا بعد إن تكون رسالته أو بحثه الذي أعده للتخرج، قد احتوى على مطاعن ومثالب وسلبيات للدين، أو تهجمات على قواعده ومبادئه.

٢- العائلـة المتعلمة زوجة كانـت أو أولاداً -الذكور- وخاصة الإناث يعـدّون عدم تدريس البنـات في أي مرحلة مـن مراحل التعليم نقصاً وعيباً وعدم مسايرة لما عليه الحياة اليوم.

٣- وسائل الاتصال والثقافة العالمية، وتلفزيون، وقنوات فضائية، وإنترنت، والمجلات والجرائد والنشرات الدورية...

٤- معرفة اللغة الإنجليزية محاورة وكتابة؛ لأنها المدخل الأول لمعرفة الثقافة المستوردة.

٥- الذي ليس له أسبقيات أمنية أو سجلات قديمة، ولو انتهت مدتها وقضى ما حكم عليه به ونظف ملفاتها.

٦- غير المتدرب على السلاح الذي لم يدخل معسكرات التدريب، وخاصة صناعة المتفجرات، كل من ليس لديه ثقافة عسكرية أو قتالية، أو جهادية (إرهابية) كما يسمونها.

٧- الذي له علاقات اجتماعية مع غير المسلمين، يهودًا أو نصارى أو غيرهم، مثل: حضور ندواتهم واجتماعاتهم ومطالعة ثقافتهم ومطبوعاتهم ومعرفة أسلوب حياتهم ونمط عيشهم، خاصة الجنس الثاني- الإناث-أو الجنس الثالث كما هو موجود في بعض الدول.

٨- من لم يدخل إيران أو سوريا أو لبنان، وغيرها من الدول التي يسمونها (الإرهابية) أو من دول صناعية أو دول كانت ولا تزال في عداء مع بلادهم.

٩- الدول التي توجد فيها أنظمة ملكية غالباً، أكثر من الدول التي تحكمها أنظمة جمهورية؛ لأن الأنظمة تعكس توجهها وسياساتها على الشعوب، والشعوب تتأثر وتقتبس كثيراً من أنظمة الحكم، وتتأثر بالقيادات التي تحكمها.

١٠- مَنْ يكون مِنْ دول غنية فيها الرفاهية ورغد العيش، ووسائل الحياة المريحة التي يجد فيها الشاب ما يشغله ويشبع طموحاته وأهواءه؛ لأن الفقر وقلة ذات اليد قد يدخله في طرق التعنت والتشدد والانشغال بأمور السياسة وتغيير النظام، وقد يؤدي به هذا التفكير إلى أمور لا تحمد عقباها.

١١-المتزوج وصاحب العائلة؛ لأن هذا يشغله ويشده إلى الدنيا ويجعله أكثر حرصاً عليها من أجل أولاده، بخلاف الأعزب الذي لا تربطه عائلة. ولا تقيده نفقات أسرة، لذلك تجد أكثر الأسرى من العزاب، ومن صغار السن.

١٢- لا يعجبهم التتلمذ على شيوخ المساجد وأئمة الكتاتيب بخلاف شيوخ الحكومات ورجال الدين الرسميين الذين يتقيدون بقرار الحاكم والسلطان، ويحسبون للوظيفة والراتب والمنصب ألف حساب، ولا يرغبون في المشايخ غير الرسميين الذين لا يرتبطون بوظيفة أو عمل رسمي مع الحكومات؛ لأن

هـذا يجعلهم أحراراً في فتاويهم، لا يتقيدون بقانون جامعة أو نظام دولة، لا يخشون من الفصل أو إنهاء التعاقد.

١٣- لا يحبون الشخصيات ذات المال والجاه والاستقامة، وأصحاب الغنى والمنتسبين إلى عائلات قوية وكبيرة ومعروفة بالصلاح؛ حتى لا يكون لهم نفوذ قوي، وحتى لا يقوموا باستخدام أموالهم في مشروعات تخدم الدين والبلد أو تدعم الجهاد والمجاهدين، أو تخفف معاناة المهاجرين أو الأقليات المسلمة في دول غير عربية أو إسلامية.

١٤-المؤسسات الخيرية والإغاثة الإسلامية؛ لأنها تعرقل أو تؤخر الكثير من أعمال المؤسسات الإنسانية غير المسلمة شرقية كانت أو غربية، أو لأنها ربما تسخر شيئاً من أموالها في غير الإغاثة الإنسانية لدعم العمليات الإرهابية (كما يظنون).

١٥-يرغبون العمل في مؤسسات مرتبطة بالحكومات؛ حتى يكون عمل هذه المؤسسة ضمن سياسة البلد، أما المؤسسات والجمعيات الخيرية المستقلة (غير الحكومية) فقد تجلب الاتهام والنقد في اجتهادها في العمل (على حد زعمهم).

١٦- قلة أفراد العائلة، يحبون العائلة الصغيرة ذات العدد القليل المشابهة للعائلة في الغرب، ولا يحبون صاحب العائلة الكبيرة؛

حتى يضن صاحب العائلة القليلة بولده على الموت، وحتى يزداد حرصه عليهم وعلى الحياة من أجلهم.

١٧- اسم أبو عبد الله، لا يرغبون في هذا الاسم؛ لأن فيه ارتباطًا وتذكيرًا وإشارة إلى الرجل الذي كان خلف ما جرى لهم، ليس في ١١ سبتمبر، بل ما جرى لهم في اليمن في ضرب المدمرة كول، وفي تدمير السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا (دار السلام ونيروبي) كما يظنون هم، أو كما يحللون، أو يفسرون، أو كما يعتقدون، لا يكرهون أحداً في الأرض مثل صاحب هذا الاسم، لا يحبون أن يكون هذا الرجل قدوة للآخرين، لا في عمله وتصرفه، ولا في ملبسه ومأكله ولا في كلامه وعاداته ولا في أي شيء من نواحي حياته، يتمنون أن ينسى العالم هذا الاسم، خاصة العالم الإسلامي، ولو قلت: إنى ألبس قميصاً مثل قميصه أو أرتب شعر رأسي أو شواربي ولحيتي كما يفعلها هذا الرجل، فإنهم يتضايقون من هذا التقليد وينزعجون من هذا التشبه ولو قلت: إني معجب به وبعمله ومن حقه أن يعمل مثل هذه الأعمال، والذي فعله هو الرد الطبيعي لما يجري لكل إنسان، لكان هذا كافياً لأن تذهب إلى التحقيق عدة مرات، ولو كان قولك هذا مجرد كلام نظري واقتناع بما يقوم به، دون أن يكون لك علاقة أو مشاركة بما يفعل، أما لو قلت: إني

سمعته في محاضرة أو رأيته في الشارع أو في أي مكان أو قلت: إني شربت معه القهوة أو تناولت معه الطعام أو كان في فصلي الدراسي المدرسي أو الجامعي، فإن الشبه القوية والاتهامات الواضحة ستتوجه إليك وتنصب فوق رأسك.

١٨-أكثر الدول كراهية عندهم الآن (الشعوب) وليس الأنظمة، السعودية ثم اليمن، سمعت من بعضهم أن أحد المحققين قال لأحد المعتقلين: ماذا يظن هؤلاء اليمنيون أنفسهم إنهم شعب أمي جاهل جبلي، متأخر جداً عن ركب الحياة، فقير لا يملك من الاقتصاد والفن شيئاً، إنهم يسمعون كلمة من شيوخهم لا يعرفون معناها ولا يدركون مغزاها فيطبقونها دون أن يفكروا في نتائجها أو يحللوا أو يفسروا ردود أفعالها.

إن أكثر الجنسيات العربية عدداً في معتقل جوانتناموا هم من السعودية، ثم اليمن.

إنهم يرغبون في استمرار الأمن، واستقرار الوضع في دول الخليج، فيحاولون ألّا تكون هناك قلاقل أو احتجاجات على أنظمة الحكم في الخليج، وفي غيره من الدول التي لهم بها علاقات اقتصادية، والتي تقدم لهم النفط وتضخ لهم الذهب الأسود، لا يحبون انفلات الأمن في الدول التي لهم معها

مصالح وفيها لهم مشروعات اقتصادية، إن ظهور موجة العنف والتطرف والتدمير والقتل والإرهاب (كما يسمونه) هذا الذي ظهر في دول الخليج مؤخراً قد أزعجهم مما جعلهم خائفين من المعتقلين الذين ينتسبون لهذه الدول، عندما تنتهي مدة عقوبتهم، ويتم إطلاق سراحهم فيما بعد.

لقد كانت أشرطة بعض المشايخ خاصة من دول الخليج، تصل إلى كوبا ويعرضها المحققون على المساجين، هؤلاء المشايخ الذين تراجعوا عن فتاويهم في الجهاد ووجوب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

لقد كان المحققون متضايقين مما يجري من تفجيرات في جزيرة العرب حتى إن أحد المحققين غضب من أحد المساجين من جزيرة العرب، وقال له: ويحك هل يعجبك ما يجري في بلادكم؟! لقد أصبحت البلاد كلها في حالة فوضى، في حالة رعب وخوف.

١٩- كراهية المشايخ الذين تربّى هؤلاء الشباب المعتقلون على أيديهم، أو تتلمذوا على كتبهم وحلقاتهم ومحاضراتهم وتأثروا بفتاويهم أو التقوا بهم في مساجدهم ومدارسهم، خاصة المشايخ الذين لم يدخلوا إلى الجامعات الشرقية أو الغربية.

عودة إلى الحياة في بجرام بعد كوبا

مضـى الشهـر الأول، ولم نسافـر، شكونا للمسؤولـين، فقالوا: أنتـم سـوف تسافـرون، فقلنا: متـى سيكون هـذا السفـر؟ قالوا: عليكم بالانتظار، فشكونا للصليب الأحمر الذي كان يزودنا ببعض الرسائـل من قاعدة بجـرام إلى بيوتنا ومن بيوتنا، يحملها إلينا في القاعدة، كان الصليب نافذتنا على العالم وكان أعضاؤه يقولون لنا كلامـاً ليس فيه وعد أو وقت محدد للسفر، لكنهم كانوا يقولون لنا: سوف تسافرون.

بعـد مضي شهـر حضر وفد أفغاني وقابـل الشخص الأفغاني ووعـده بالخـروج، وبعد مضي أكثر من شهر على هـذه المقابلة عاد الوفـد نفسـه وقابله مرة أخـرى ووعده بالسفـر، لكنّي خرجت من بجرام، والأفغاني لم يسافر.

بـدأ الأمـل يتلاشـى مـن نفوسنا في قـرب الفـرج، خاصة أن المجموعـات التي جـاءت إلى هذا المكان قبلنا لم تمكـث فيه كثيراً، أكثرها مكث أسبوعين وسافر.

لا نـدري مـا سبب تأخيرنـا، قالـوا: أنتم تطلبـون السفر لغير بلادكـم، قلنا لهـم: بعضنا يريـد أن يرجع إلى بلده مثـل الأفغاني ومثلـي ومثـل كل المعتلقين، أمـا الأخ السوري وكذلـك الأخ الإيراني فـلا يريدان الرجـوع إلى بلديهما، ومن ثم فلا يـزال اليأس عندنا مـن الخـروج القريب. بعـد مضي ثلاثـة أشهر وبعد إلحـاح وطلب منا لمقابلـة المسؤولين، قالوا لنا: سوف يجلـس معكم مسؤول كبير، ويحاول أن يجيب عن أسئلتكم وطلباتكم، جاء المسؤول وجلس مع كل واحـد منا على انفراد، طلب الاسم والبلد والجهة التي تريد السفر إليهـا وإن كان لديك مشـكلات أو طلبات فسنجيـب عنها، ووعدنا بالسفر القريب دون تحديد الموعد وانصرف، لكن قبل أن ينصـرف طلبنـا منـه إن كان بالإمكان أن تؤخذ لنا صـورة كبيرة نرسلها إلى بيوتنا؛ حتى يطمئنوا على أحوالنا، قال: لا بأس، أرسل شخصاً وقام بتصويرنـا صورة مكـبرة ٢٠×١٠سم وسلمناهـا للصليب الأحمر الذي قام بإرسالها إلى بيوتنا.

كان المسؤول عنا نحن الأربعة سيدة مجندة برتبة كابتن، كانت تعاملنـا جيـداً، كانت الفواكـه والمشروبات ممنوعـة علينا، فكانت

تأتينـا في البداية يومياً أو يوماً بعد يـوم تضع البيبسي والفاكهة في حقيبتها وتأتي إلى الغرفة وتقدمها لنا، ولكن بعد ذلك انقطعت عنا ولا نـدري أكان الانقطـاع منها أم بأمر مَنْ فوقهـا، كنا نطلب منها الكثير مـن الحاجات فتلبي بعضها وتعتذر عـن بعضها الآخر، كان وقـت الصلاة يحيرنا ألا نسمع الأذان، فلا نعرف متى تدخل أوقات الصـلاة فأحضرت لنـا ساعة صغـيرة وتقويماً بأوقـات الصلوات الخمس حسب توقيت أفغانستان.

مضـت الأيام علينا، ولا يكاد يمر يـوم إلا ونسأل فيه عن حالنا وموعـد سفرنا، كنا قلقين؛ لأنهـم يقولون لنا: أنتـم عندنا ضيوف، سترحلـون إلى بلادكـم، انتهت علاقتكم بالسجـن أنتم بريئون من الأحداث التي حصلت ضد الولايات المتحدة الأمريكية، إذاً لماذا هذا الحجز؟ صحيح أننا لسنا في السجن ولنا بعض الحرية والامتيازات التـي لا توجد في السجن، لكن لماذا هذا البقاء هنا؟ لماذا لا يطلقون سراحنا؟ منـذ أن خرجنا من كوبا مضى علينا مئة وثلاثون يوماً في بجرام، بدأ عندنا إحساس أننا سنبقى هنا ستة أشهر وبعدها سيكون الفرج إن شاء الله، لكن كأن فرج الله أقرب مما توقعناه، بعد مغرب يوم الإثنين جاء أحد الجنود وقال: أين الشخص الأردني؟

قلـت: هأنذا، قال: نريـد أن نأخذ لك صـورة، قلت: ما الأمر؟ قال: لا أدري طلب مني المسؤول أخذ صورة لك، هيَّأت نفسي، فأخذ

صورة لي، ثم صورة، ثم انصرف الذين كانوا معي في الغرفة، قالوا: هذه الصورة لها علاقة بالإفراج، سوف تخرج قريباً، قلت: إن شاء الله تعالى، لم ننم نحن الثلاثة جميعاً تلك الليلة، كنا نفكر: لماذا هذه الصورة أخذت لي بالذات، أنا دون غيري؟ في اليوم اللاحق الثلاثاء وبعد صلاة الظهر جاء أحد الحراس، وقال: أين الشخص الأردني؟ قلت: هأنذا، قال: أنت مطلوب للمسؤول، خرجت معه خارج الغرفة، فوجدت هذه السيدة الكابتن التي كانت تزورنا كثيراً ومعها ضابط آخر برتبتها، سبق أن جلس هو وهذه السيدة معنا قبل شهر، قالا لي: أنت ستسافر غداً إلى بلدك واليوم سنقوم بأخذ بصمات يدك وأخذ صور لك ووزنك وطولك وإجراءات أخرى، وغداً عند الظهر تذهب إلى الحمام للاغتسال.

رجعت إلى الغرفة، فوجدت أصدقائي ينتظرون متلهفين لمعرفة الخبر، قلت لهم: أبشروا جاء الفرج، غداً -إن شاء الله- بعد الظهر، سجدت لله شكراً على هذه البشرى، بعد ساعتين جاء الحارس وذهبت معه إلى غرفة داخلية، أخذ مني الموظف المختص بصمات اليدين الكثيرة وبصمات الكفين وأخذ صورة الوجه من جميع الزوايا، وصور العينين، كل ذلك يظهر على الكمبيوتر، أخذ الطول والوزن ثم انصرفت إلى الغرفة، بدأت أرتب أغراضي في الحقيبة التي قدمت معي من جوانتنامو، كان فيها بطانية متوسطة

الجودة، ومنشفة، لكن الأغراض التي جمعتها من بجرام كثيرة لا تتسع لها هذه الحقيبة، فضغطتها حتى اتسعت وكانت هذه السيدة الكابتن قد قالت لي بالأمس: بإمكانك أن تأخذ معك جميع أغراضك التي جاءت معك من جوانتنامو، نمنا تلك الليلة -ليلة الأربعاء- أهدأ ليلة، وفي ظهر اليوم اللاحق- الأربعاء-جاء الحارس، وقال: تذهب معي إلى الاغتسال.

قلت له: أنا اغتسلت الليلة الماضية وجسمي نظيف؛ لأن الليلة الماضية كان موعد اغتسالنا الأسبوعي، إذ الاغتسال كان مرتين في الأسبوع، قال: لا بد أن تأتي وتغتسل قلت: جيد، ذهبت واغتسلت، ثم أحضر لي هذا الحارس حقيبة وقال: هذه لك، فتحتها، فإذا بها بِذْلتان باكستانيتان وفرشاة ومعجون أسنان وفرشاة ومعجون حلاقة وقلامة أظافر وإبريق بلاستيكي صغير، وقال: اجلس قليلاً [شهادة براءة من الإرهاب].

جاء ضابط وبدأ يقرأ عليّ ورقة باللغة الإنجليزية، والمترجم يترجم ما يقوله الضابط، تقول الورقة: لقد وقعت للولايات المتحدة الأمريكية حوادث كبيرة وخطيرة، دُمِّرت فيها البنايات والعمارات، وقُتل فيها الكثيرون، وترملت النساء، وقتل أطفال ونساء، فقامت أمريكا واعتقلت الكثيرين لم تكن تعرف أو تميز المتهم من غير المتهم ولما جمعنا المعتقلين وقمنا بالتحقيق معهم عرفنا البريء من غير

البريء، وبعد اعتقالك والتحقيق معك تبين لنا أنك بريء، لا علاقة لـك بالأحداث التي وقعت للولايات المتحدة الأمريكية؛ لذلك قمنا بإطلاق سراحك، وأنت الآن حر، لا يوجد عليك شيء وسترجع وتعيش في بلـدك كأي إنسـان وتمارس كافة حقوقك بسـلام، ثم انصرف، هكذا كانت الترجمة كما أظن، وأتذكر رجعت إلى الغرفة.

وبعد الظهر جـاءت السيارة، وقال المسؤول: حان وقت السفر، ودعـت أصحابي وركبت السيارة مع المترجم، وكان في السيارة معي ثلاثـة جنود ومجندة، وفيها ثلاثة ضبـاط، كنت أتوقع أن يربطوني بالسلاسـل ويغطوا عيوني كالمعتاد في كل سفـر مع الأمريكان، لكن لم يكـن ذلك، بقيت حراً طليقاً دون تقييد، وصلنا إلى الطائرة وفي مدرج المطار طائرة نقل كبيرة عسكرية.

مغادرة بجرام إلى الوطن

صعدنـا الطائرة، فجلست بجانب المترجم، لم يكن في الطائرة إلا طاقـم أو حراس الطائـرة كمـا رأيـت، بالإضافـة إلى الجنود الأربعـة الذين عرفـت فيما بعد مـن المترجم أنهم حراس وأمناء علي، حتى يتم تسليمي إلى بلدي، أقلعت الطائرة من قاعدة بجرام بعد العصـر من يوم الأربعاء ٢٠٠٢/٨/١٢م وقد أخبرني المترجم أنهـا ستنزل في قطـر، وفعلاً بعد العشاء نزلت الطائرة في قطر، لم أكـن أعرف الوقـت، فطلبت من الحراس أن يسمحوا لي بالوضوء والصلاة، وعندما توضأت تذكرت أن هذه هي أول مرة أتوضأ فيها منذ (١٣٤) يومًا وهي مدة وجودي في بجرام، إذ إن الماء هناك قليل فكنـا نتيمم للصلاة، بعد الصلاة والاستراحـة في قاعدة عسكرية لا أعرف اسمهـا، ولم أسأل المترجم ولا الحراس عن اسمها، لكنها قاعـدة كل مـا فيها جنود وطائـرات عسكرية، لم أرَ فيهـا أحدًا إلا

الجنـود، عند منتصـف الليل قـال الحراس لي: تفضـل جاء وقت السفـر، ركبنا الطائـرة نفسها لم أرَ فيها ركابـاً أو جنودًا، ليس في الطائـرة إلا الحراسـ الأربعة الذيـن خرجوا معي مـن بجرام وأنا والمترجـم وطاقم أو حراس الطائرة، قـال المترجم لـي: إن الطائرة ليس لهـا أي غرض في عمان، فهي توصلـك إلى عمان وترجع، وقد حان وقت تناول الطعام، أما الجنود فكان كل واحد منهم معه وجبته أو طعامه في حقيبـة، طلبت منهم وجبة عسكرية فأعطوني واحدة، بينما هذه الطائرة عسكرية ليس فيها ضيافة كالطائرات المدنية.

وهذه الوجبات يأكلها الجنود؛ لأنها طعام الجنود في حال السفر إذا لم يتيسـر لهم وجبات ساخنة، وكان أمامي في الطائرة صندوق فيه كثير من أنواع البسكويت والشوكولاتة آكل منه كلما أردت، وقبيل الفجر نزلت الطائرة على المطار، قال لي المترجم: هذه عمان وهذا مطارهـا، توقفت الطائـرة وفتحت أبوابها فصعـد ضابط أمريكي إلى الطائرة وبدأ يتكلم مـع الحراس الذين سيقومون بتسليمي له، قدموا له أوراقاً وقع عليها، ثم سلمني ورقة باللغة الإنجليزية، وكان يتكلم معي باللغـة العربية المكسرة إلا أنها مفهومـة تقريباً، الورقة التي سلمها لي هذا الضابط كانت ترجمتها كالآتي:

شهادة براءة من الإرهاب

وزارة الدفاع

القوات المشتركة الموحدة

قاعدة بجرام الجوية- أفغانستان

وثيقة للحفظ

الموضوع: إطلاق سراح حسين عبد القادر

هـذه الوثيقة تؤكـد أن هذا الشخص قد وُقِّـف من قبل القوات المسلحة الأمريكية منذ ١١ آب ٢٠٠٢م.

الرقم الرسمي	المؤقت	الاسم	البلاد	الميلاد
PKgWE000715 DP	BT 171	حسين عبد القادر	الضفة الغربية	١٩٥٣م

لقد تثبتنا من أن هذا الفرد لا يشكل خطورة على القوات المسلحة الأمريكيـة أو مصالحها في أفغانستـان، ولا توجد أي تهمة موجهة إلى هذا الفرد من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لقد أطلق سراح هـذا الشخصـ في المـكان نفسه الذي ألقـي القبض عليـه فيه، وتريد الولايات المتحدة الأمريكية إعـادة هذا الشخص؛ ليجتمع بأهله وهذه الوثيقة ليست لحمايته من أي تصرف سيئ مستقبلي قد يقوم به.

توقيع الضابط

SFCMP.CJTF 76 Detair-opsncoic

أما شهادة الصليب الأحمر، فتقول ترجمتها:

إلى من يهمه الأمر

إن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تؤيد حسب هذه الوثيقة أن السيد حسين عبد القادر يوسف مصطفى مواليد ١٩٥٣م في سيلة الحارثية - فلسطين

وثيقة الصليب الأحمر ٠٠١٤٨٦ وثيقة التسجيل PKg 000715 DP.

تم تسجيله من قبل لجنة الصليب الأحمر في ٢٠٠٢/٦/١٥م في مكان التوقيف الأمريكي الانتقالي في بجرام في محافظة بروان في أفغانستان، وتم نقله إلى مخيم جوانتنامو-كوبا- في ٤ آب ٢٠٠٢ م حيث تمت زيارته من قبل الصليب الأحمر عدة مرات، وبعد أن أعيد إلى أفغانستان في ٣/٣١/ ٢٠٠٤م تمت زيارته في بجرام في القاعدة الأمريكية الانتقالية وفي بجرام أطلق سراحه في ١١/ ٨/ ٢٠٠٤م.

صدرت هذه الوثيقة في كابل ٢٠٠٤/١٠/١٩م.

التوقيع:

أندريه مكنزي/ الإداري في كابل أفغانستان

سلمني الحراس الأمناء الذين كانوا يرافقونني طيلة الرحلة من بجرام إلى عمان، إلى الضابط الأمريكي، والضابط سلمني الورقة ونزل من الطائرة، ثم ودعت الحراس وشكرتهم على حسن صحبتهم لي، حيث لم يضايقني أحد منهم طيلة الرحلة، وشكرت المترجم، ونزلت من الطائرة، بعد أن حملت حقيبتي السفر اللتين كانتا معي، وبعد ذلك تسلمني الجنود الأردنيون من باب الطائرة، ذهبت معهم بالسيارة، وكان وقت أذان الفجر ليوم الخميس ١٣/ ٢٠٠٤/٨م على وشك الدخول، وصلت إلى معتقل قريب لا أعرف اسمه، ولم أدخل إليه ولم أدخل أي سجن آخر، لا في الأردن ولا في غيرها إلا الاعتقال عند الأمريكان، وأنا الآن حديث عهد بالأردن، إذ إني خرجت منها سنة ١٩٨٥م ولم أرجع إليها إلا اليوم بعد مضي تسعة عشر عاماً، وصلت المعتقل بدأ الضابط المسؤول يأخذ المعلومات عني، وقد تسلّم مني ما معي من الأغراض والأوراق وفتشها، ثم سلمني ملابس السجن الزرقاء، جاء الحارس وأدخلني إلى غرفة الاعتقال.

جلست في هذا السجن من وقت أذان الفجر إلى الساعة الحادية عشرة تقريباً، جاء الحارس وأخذني إلى غرفة التحقيق، استغرق التحقيق معي ما يقارب ساعة، كان التحقيق عادياً وكان المحقق هادئاً ومؤدباً وقال: سنحاول إخراجك اليوم الخميس،

وإن لم نستطـع فعليك الانتظار إلى يوم الأحـد، أي بعد ثلاثة أيام، انتهى التحقيق معي وبعد لحظات جاء الحارس وأرجعني إلى غرفة الاعتقـال، بعـد ساعة تقريبـاً جاء الحارسـ وأرجعنـي إلى غرفة التحقيق، عندئذ تسلمت أغراضي التي أخذوها مني عندما وصلت فجـر اليوم، وقال لي المحقق، مع السلامة يا شيخ، سترجع الآن إلى بيتك إن شاء الله تعالى وأطلقوا سراحي عند أذان ظهر يوم الخميس ١٣/٨/٢٠٠٤م.

والحمد لله رب العالمين

ذكريات معتقل

من جوانتانامو (كوبا)

حسين عبد القادر

شهادة براءة من الإرهاب

وزارة الدفاع

القوات المشتركة الموحدة

قاعدة بجرام الجوية- أفغانستان

وثيقة للحفظ

الموضوع: إطلاق سراح حسين عبد القادر

هذه الوثيقة تؤكد أن هذا الشخص قد وُقِّف من قبل القوات المسلحة الأمريكية منذ ١١ آب ٢٠٠٢م.

الرقم الرسمي	المؤقت	الاسم	البلاد	الميلاد
PKgWE000715 DP	BT 171	حسين عبد القادر	الضفة الغربية	١٩٥٣م

لقد تثبتنا من أن هذا الفرد لا يشكل خطورة على القوات المسلحة الأمريكية أو مصالحها في أفغانستان، ولا توجد أي تهمة موجهة إلى هذا الفرد من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لقد أطلق سراح هذا الشخص في المكان نفسه الذي ألقي القبض عليه فيه، وتريد الولايات المتحدة الأمريكية إعادة هذا الشخص؛ ليجتمع بأهله، وهذه الوثيقة ليست لحمايته من أي تصرف سيئ مستقبلي قد يقوم به.

توقيع الضابط

SFCMP.CJTF 76 Detair-opsncoic

ISBN:978-9960-54-785-5



موضوع الكتاب: سجن جوانتانامو - التعذيب

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com